الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الخامس عشر

دمشق
١٤١٦هـ - ١٩٩٥

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

١ ـ ابن شداد ـ سيرة صلاح الدين
٢ ـ سبط ابن الجوزي ـ من مرآة الزمان

دمشق ١٤١٥ / ١٩٩٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتمد السلطان صلاح الدين في ادارته لدولته على ثلاثة اعلام مدنيين ، كان أولهم القاضي الفاضل ، وثانيهم العماد الاصفهاني ، وثالثهم ابن شداد ، وأما القاضي الفاضل فكان لكل مهم ، وأما العماد فكانت اليه كتابه الانشاء ، وأما ابن شداد فكان قاضي عسكر صلاح الدين والفقيه الأول لديه ، وفقط القاضي الفاضل كان من اصل شامي وأما العماد فقد جاء - كما رأينا - اصلا من اصفهان . وتعرف صلاح الدين الى القاضي الفاضل في بداية صعوده السياسي في مصر ، ورأينا أن العماد عمل أولا في دولة نور الدين ، ثم التحق بصلاح الدين بعد وفاة نور الدين ، والتحق ابن شداد بخدمة صلاح الدين متأخرا بعض الوقت وعمر طويلا بعده .

ويلاحظ ان هؤلاء الثلاثة كتبوا بالتاريخ ، ومن المؤسف أنه لم يصلنا مماكتبه القاضي الفاضل سوى بعض النقول ، ومازال رسائله مجموعة لم تنشر بعد ، ولا شك انها تحتوي على مواد ثمينة جدا .

وكتابات هؤلاء العلماء الثلاثة مضاف اليها مادونه سواهم من معاصريهم ، ولا سيما ابن ابي طي يحيى بن حميدة الحلبي هامة بلا حدود وتغطي عصر صلاح الدين بشكل ممتاز ، ويمكننا التعرف الى ابن شداد من خلال السيرة التي صنفها عن حياة صلاح الدين ومن خلال التراجم التي أعدها عن حياته معاصروه وتلاميذه ولا سيما ابن

خلكان ، وسنطلع فيما يلي في موسوعتنا هذه على ماكتبه ابن خلكان ، ولذلك سأكتفي هنا بتقديم عرض موجز عن حياته .

هو بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، شهر بابن شداد ، نسبة الى أخواله ، ولد بمدينة الموصل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م ، وفيها نشأ ونال علومه الأولى ، ثم التحق ببغداد لاكمال تحصيله بالنظامية ، حيث أعاد فيها مدة اربع سنوات ، ثم رجع الى الموصل ، حيث علا نجمة وبات واحدا من ابرز اعلامها .

وكنت اشرت في الجزء الأول من موسوعتنا هذه الى المكانة الرفيعةالتي احتلها علماء الدين الاسلامي لدى حكام السلاجقة ، ونظرا لهذه المكانة ولأن السلاجقة والأيوبيين بعدهم كانوا بالأصل أعاجم امتهنوا العمل العسكري ، فقد أخذوايكلفون العلماء بالمهام الدبلوماسية من سفارات ومفاوضات ، وبهذه الوساطة تعرف ابن شداد الى صلاح الدين أثناء الصراع حول ميراث نور الدين ولدى محاولة صلاح الدين احتلال الموصل ، وانتهى الصراع هذا ، وانصرف صلاح الدين بالامكانات الكبيرة التي توفرت لديه نحو جهاد الفرنجة ، فكانت حطين وتحرير القدس ، وبتحرير القدس أخذت اعداد كبيرة من المسلمين تقصد هذه المدينة المقدسة للصلاة في أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وكان من هؤلاء ابن شداد ، فبعدما قضى فريضة الحج ، توقف في دمشق ، ثم توجه منها الى القدس ، وفي الطريق علم أن صلاح الدين قائم على حصار قلعة كوكب ، فعرج نحو معسكره لزيارته ، واستقبله صلاح الدين ورحب به وآنسه ، وكلف العماد الاصفهاني أن يطلب منه القدوم لزيارته ثانية بعد الفراغ من زيارة القدس ، وهذا ما فعله ، وهنا رغب إليه صلاح الدين الالتحاق بخدمته فاستجاب ، ورافق منذ ذلك الحين سلطانه العظيم ــ وشاركة الام حصار عكا والتصدي لما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومابرح معه حتى يوم وفاته ، فالتحق بعد أمد قصير بالظاهر غازي ابن صلاح الدين ، وأسهم في ادارة شؤون مملكة

حلب والتعليم فيها ،عالي المكانة، عظيم الاحترام موفور الكرامة حتى توفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م.

وصنف ابن شداد عدة كتب نشر منها « دلائل الأحكام في الأحاديث التي استنبطت منها الأحكام » في أربعة مجلدات ، ومهم بالنسبة لي من كتبه كتابين هما الكتاب الذي نقدم له اليوم عن سيرة صلاح الدين واسمه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وكتاب في « فضائل الجهاد » صنفه لصلاح الدين ، أنا موعود بنسخة مصورة عنه ، وكان لكتب الجهاد وفضائل المدن ، لاسيما فضائل القدس أوسع الاثار على المسلمين في عصر الحروب الصليبية .

وفيما يختص بسيرة صلاح الدين ، هو أهم كتاب كامل وصلنا في بابه ، أهم مما كتبه العماد الاصفهاني لأنه كتب بدون تكلف ولا صنعة كلامية ، فيه أمانة وبساطة نادرتين ، وفيه اعتدال وعقلانية المؤلف الذي كان هادئا عميق الايمان والتفكير ، يشير أحيانا الى نفسه والى أدواره ، لكن ليس من باب التبجح والدعاية للذات .

واتخذ ابن شداد في عرض مواده اسلوبا خاصا به ، استوحاه من الفراغ العظيم الذي نتج عن وفاة صلاح الدين ، واستهدف به احتذاء المثل الأعلى الذي ضربه صلاح الدين ، وكأنه بذلك كان يتوجه باللوم الى بني أيوب الذين عاشوا بعد صلاح الدين للملذات الفردية والصراعات الداخلية ، ومع أن ابن شداد رأى في صلاح الدين مثلا أعلى للحاكم المسلم الملتزم بعقيدته المنصرف نحو الجهاد وتحرير الارض ، الكريم بلا حدود والشجاع الصابر المتواضع بلا تكلف ، فانه لم يخترع شخصية بطله أو حاول صقل صورته ، بل دون الحقيقة لأن صلاح الدين كان عظيما مثلما وصفه ابن شداد لابل اكثر عظمة ، كان الابن البار لمثالية الاسلام ، وعلى عكسه تماما كان قادة الصليبيين ولاسيما أرناط ورتشارد قلب الأسد ، وانها لمتعة حقيقية أن نقرأ في أيامنا هذه سيرة صلاح الدين ونستلهم منها.

وكنا فيما مضى تحدثنا عن المؤرخ الكبير ابـن الجـوزي ، ورأينا كيف ان دمشق نور الدين وصلاح الدين قـد جـذبت اليهـا علمـاء المسلمين في المشرق والمغرب ، وكان فيمن جذبته اليهـا مـن المشرق سبط ابن الجوزي شمس الدين -ابي المظفر يوسف بن قزا اوغلي

وكان ابن الجوزي قد رزق بثلاثة أولاد وبعدد من البنات منهن واحدة حملت اسم رابعة ، زوجها أبوها المرة الثـانية ، بعـد وفـاة زوجها الأول ، من حسام الدين قزاأوغلي بن عبد الله ، وكان تـركيا من مماليك الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة .

وكانت رابعة كأخواتها سمعت الحديث على أبيهـا وعلى غيره مـن المحدثين ، وأنجبـت ابنهـا يوسـف سـنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ولما ترعرع يوسف أخذه جده اليه وتكفل بتعليمـه ، فغدا أشبه الناس به ، لاسيما في مجال الوعظ والتـأثير الشـعبي ، وعندما غدا يوسف شابا يقارب العشرين من عمره ، كان جـده قـد توفي ، فقرر ان يفارق بغداد ويقصد بلاد الشام .

عندما نقرأ نيل الروضتين لأبي شامة سنلتقي مرارا باخبار سـبط ابن الجوزي ونشاطاته في بلاد الشام ، فهو قد حظي بمكانة رفيعـة بين علماء دمشق وأقبل الناس على على مجالس وعظه ، ونشأت له علاقات جيدة بابناء العادل الايوبي ولم تقتصر نشاطاته على الميادين العلمية ، بل جند جيشا من المتطوعة غزا به الأراضي التي كان يحتلها الفرنجة في فلسطين .

وجذب ميدان التاريخ اليه سبط ابن الجوزي فصنف فيه « مـرآة الزمان في تاريخ الأعيان » وقد سارفيه على خطة جده في المنتـظم ، بعرض المواد الاخبارية وفق طريقة الحوليات أخبار كل حـولية على حده أولا وبعد ذلك تراجم لوفيات تلك الحـولية ، ورأيت في مـكتبات العالم أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، ووضح لدي ان سـبط ابـن الجوزي كتب مؤلفه ــ أو بعض أجزائه ــ أكثر من مرة ، لذا تحتوي بعض النسخ على مواد اكثر من سواها ، وكنت قد صورت من هـذا

الكتاب قطعة كبيرة من المكتبة الوطنية في باريس فيها أخبار القرن الخامس للهجرة ، كما صورت من مكتبة أحمد الثالث (٢٩٠٧ ـ ب) في استانبول الأجزاء التي تبدأ بأخبار سنة / ٣٠٠ هـ / وتنتهي مع نهاية الكتاب . وبودي لو أصور بقية النسخة هذه مع غيرها ، ومن ثم أعمل على تحقيقه ، لأنه من أهم الموسوعات التاريخية وكتب التراجم بالوقت نفسه .

لقد أكثر أبو شامة من النقل عن سبط ابن الجوزي ، واختصر ابن تغري بردي مواد مرآة الزمان وبنى عليها كتابه النجوم الزاهرة .

واشرت قبل قليل الى وطيد العلاقات التي قامت بين سبط ابن الجوزي ، وأبناء العادل الايوبي لاسيما الملك الاشرف ، وأكثر منه الملك المعظم عيسى ، وكان أبناء العادل مثل سواهم من أفراد البيت الايوبي قد انشغلوا في صراعاتهم الداخلية ، ولم يتورع بعضهم عن الاستعانة بالفرنجة في هذا الصراع ، الذي تطور الى حد التضحية بمنجزات صلاح الدين والتخلي عن القدس للفرنجة الأمر الذي كان له ردات فعل شديدة ، أفسدت العلاقات ما بين سبط ابن الجوزي والملك الاشرف ، فقد انتقد سبط ابن الجوزي الاشرف مع أخيه السلطان الكامل لتخليهما عن القدس وتسليمها للفرنجة ، وعد ذلك خيانة ، وبعد موعظة شديدة على منبر دمشق قال فيها : « انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، ياوحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دمعة ، تالله لوصارت عيونهم عيونا لما وفت ، ولوتقطعت قلوبهم أسفا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، ياخجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات » . بعد هذه الموعظة افتى بشرعية قتال الكامل والأشرف لعقدهما صفقة تسليم القدس للامبراطور الالماني فردريك الثاني بشكل شائن .

واضطر سبط ابن الجوزي الآن الى مغادرة دمشق والالتجاء الى قلعة الكرك . حيث مكث فيها من سنة ٦٢٦ الى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٢٩ ـ ١٢٣٦ م ، ثم رجع الى دمشق حيث مكث قليلا ، وأخذ يتردد ما بين دمشق والقدس والكرك ، ثم قصد مصر سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ، وأقام بها حتى سنة٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥ م ، حيث عاد الى بلاد الشام ، فزار حماه لفترة وجيزة ثم رجع الى دمشق حيث توفي فيها سنة٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م .

من يقرأ المنتظم لابن الجوزي يتيقن أنه كان شخصية بغداد الأولى في قرنة ، وكذلك فعل سبطه الذي اقتدى به بكل سبيل ، فكان شخصية الشام وشارك سبط ابن الجوزي السلطان العظيم صلاح الدين في اسمه واستعار منه لقبه « ابو المظفر » واستلهم سيرته وشجاعته ، فآثر مصالح الأمة على منافعه ، وفضل آخرته على دنياه .

ولا شك ان هذا الاستلهام مع المصداقية قد انعكسا على عمله التأريخي ومنحا لكتابه مرآة الزمان مكانة عالية ، وقام سبط ابن الجوزي مثل غيره من المؤرخين باستقاء أخباره ممن تقدمه من المؤرخين ، لاسيما من ابن القلانسي ، ومع هذا لديه بعض التفاصيل غير الموجودة لدى ابن القلانسي ، وغالبا ما حذقت نقوله عن ابن القلانسي كما وحذقت بعض الأخبار التي لاعلاقة لها بالحروب الصليبية وكذلك بعض ، لابل غالب التراجم .

أرجو من الله التوفيق والعون والسداد ، وله جلا وعلا الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي لمصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق ٢٤ ـ ذي القعدة ـ ١٤١٥ هـ
٢٣ ـ نيسان ـ ١٩٩٥ م

سهيل زكار

كتاب

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي

تأليف

القاضي بهاء الدين بن شداد

ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وهدانا بالايمان الجاري على احسن نظام ، وانعم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الأولين عبرة لأولي الأفهام ، وتقلبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام ، كيلا يغتر ذو جمال حسن ولاييأس من لعبت بأحواله أكف السقام ، واشهد إن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تشفي القلوب من لظى الأوام ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي فتح للهداية أبوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ببقاء الأيام .

وبعد فإني رأيت أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان ، رافع على العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي سقى الله ضريحه ذوب الرضوان ، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الايمان ، قد صدقت من أخبار الأولين ماكذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روي من نوادر الكرام الأجواد ، وحققت وقعات شجعان مماليكها ماقدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان ، ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره في ذات الله ماقوى بها الايمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنها جنان ، وجلت نوادرها أن تحد ببيان لسان ، أو أن تسطر في طرس ببنان ، وكانت مع ذلك من قبيل لايمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولايسع المطلع عليها إلا أن تروي عنه أخبارها وأنباؤها ، ومسني من رق نعمتها ، وحق

محبتها وواجب خدمتها ، مايجب علي بـه إبـداء مـاحققت مـن حسناتها ، ورواية ماعلمت من محاسن صفاتها .

رأيت أن أختصر من ذلك على ماأملاه علي العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الايقان ، وذلك جـزء مـن كل ، وقـل مـن جل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعـد المستطير ، وسـميت هـذا مـن مختصر تـاريخها (النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية) وجعلته قسمين أحدهما في مولده رحمه الله ومنشـئه وخصـائصه وأوصـافه وأخـلاقه المرضية ، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية ، والقسم الثاني في تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك أيام حياتـه قدس الله روحه ، والله المستعان في الصيانة عن هفـوات اللسـان والقلم ، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم ، وهـو حسـبي ونعـم الوكيل .

القسم الأول في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله رحمة الله عليه

كان مولده رحمه الله تعالى على مابلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بذوا عليه تسيير مولده على ماتقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت .

وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى وإليا بها ، وكان كريما أريحيا حليما حسن الأخلاق مولده بدوين ، (١) ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة ، وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترما هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي ، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدة ، فنقل ولده المذكور إلى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ، ولاحت لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى وعول عليه ، ونظر إليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة وذهابه إليها . وسيأتي ذكر بيان ذلك مفصلا مبينا أن شاء الله تعالى .

ذكر ماشهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية .

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله وعليه وسلم أنه قال « بني الاسلام على خمس : شهادة إن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وفهم من ذلك مايحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء ، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع مايحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها للصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

وأما الصلاة : فانه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجملة ، حتى أنه ذكر يوما أن له سنين ماصلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه ، ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما ، وماترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما الزكاة : فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ماتجب عليه به الزكاة .

وأما صدقة النفل : فإنها استرقت جميع ماملكه من الأموال فانه ملك ماملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، وجرما واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولادارا ولاعقارا ولابستانا ولاقرية ولامزرعة ولاشيئا من أنواع الأملاك .

وأما صوم رمضان : فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام ، وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ، ومع كون الصوم لايوافق مزاجه الهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ماقضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائبا ، وكان الطبيب يلومه وهو لايسمع ، ويقول : لاأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما مايراد به رحمه الله تعالى .

وأما الحج:إنه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل ، فقضى الله ماقضى ، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام .

وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالما بعلم القرآن العظيم متقنا لحفظه ، وكان يستقرىء من يحرسه في الليل وهو في برجه (٢) الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان يستقرىء وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ، ولقد اجتاز

على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسب قراءته فقربه ، وجعل له حظا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة .

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته ، وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، إذا سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لايطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروي عنه أحاديث كثيرة .

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه .

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين ، يقول ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة ، والمسيء بالنار مصدقا بجميع ماوردت به الشرائع ، منشرحا بذلك صدره مبغضا للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي ، قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله فطلبه أياما فقتله .

وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الانابة اليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ماأحكيه ، وذلك إن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من

القدس الشريف حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا (٣) على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل (٤)عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ماقد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الاقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لامصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ، ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه أنه إن لم يقم لم يقم احد ، فلما انصرف الامراء الى بيوتهم جاءً من عندهم

من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل ، أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم ، والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الاقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته ، ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه ، حتى أخذني الاشفاق عليه ، والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعة لعله ينام ساعة ، فقال رحمه الله : لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال : ما أخذني النوم أصلا ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأني مانمت ، ومابقي وقت للنوم ، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ماكنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ، فقال : وماهو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والانابة إليه ،

والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالاقصى موضع مسرى النبي صلى الله وعليه وسلم ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الآذان والاقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « ياإلهي قد انقطعت أسبابي الارضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت على جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الآذان والاقامة ، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولاأسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الافرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك ، ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسيسة إلى أنهم لابد لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكتار وأتباعه إلى أنه لايخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ماحول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم انهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأي شيء أشاروا به لايخالفونهم ، ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر انهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة ، فهذا ما شاهدته من آثار استنباطه واخلاده إلى الله تعالى رحمه الله .

ذكر عدله رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله وعليه وسلم قال : « الوالي العادل ظل الله في أرضه ، فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لاظل إلا ظله ، ومن خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه »(٥)

ولقد كان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ، ناصرا للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل في كل اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا ، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع مايعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة أما في الليل او في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصدا أبدا ولامنتحلا ولاطالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه ، ولقد كان رؤوفا بالرعية ناصرا الدين مواظبا على تلاوة القرآن العزيز عالما بما فيه عاملا به لايعدوه أبدا رحمة الله عليه ، وماا ستغاث اليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين (٦) ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، فما خالصه إلا أن شهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول ، أنه وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين — قاضي حماه — في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان وأقاما الشهادة عندي في مجلسه — رضي الله عنه — بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة

الخصم ، فساواه ـ وكان من خواص السلطان رحمه الله ـ ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقي الدين وانقضى المجلس على ذلك ، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي ، وذلك أني كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه ، فسألته : من خصمك ؟ قال : خصمي السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك لاتحابي ، قلت : وفي أي قضية هو خصمك ؟ فقال إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وإنا مطالبه بها ، فقلت له : ياشيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ فقال الحقوق لاتبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وماعرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه وجه ما ، وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل : لايسعني سماع الدعوى بلا وجود الخصم ، وأنا أعرفه وأعرفك ماعنده ، فرضي الرجل بذلك ، واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال : كنت نظرت في الكتاب ؟ فقلت : نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهود مغروفون ، فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية مايقتضيه الشرع ، ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي فقلت له هذا الخصم يتردد ولابد أن تسمع دعواه ، فقال : أقم عني وكيلا

يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم وآخر فتـح الكتـاب إلى حين حضور الرجل هاهنا ، ففعلت ذلك ، ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت الى جانبه ، ثم نزل من طراحته حتـى ساواه وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ماشرح أولا ، فأجابه السلطان إن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعتقته وتوفي وخلف مـاخلفه لورثتـه ، فقـال الرجل : لي بينة تشهد بما ادعيته ، ثم سـأل فتـح كتـابه ففتحتـه فوجدته كما شرحه ، فلما سمع السلطان التـاريخ قـال عندي مـن يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسـنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرهـا والتاريخ كما ادعاه ، فابلس الرجـل ، فقلت له : يا مـولاي هـذا الرجل مافعل ذلك إلا طلبا لمراحم السـلطان ، وقـد حضر بين يدي المولى ولايحسن أن يرجع خائبا للقصـد ، فقـال هـذا بـاب آخر ، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عني مقدارها ، فانظر إلى مافي طي هذه القضية من المعـاني الغـريبة العجيبـة ، والتـواضع والانقياد إلى الحق ، وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مـع القدرة التامة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صلى الله وعليه وسلم أنه قال : « ان الله يحب الشجاعة ولو علي قتل حية » (٨) ، ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ولايهوله أمر ، ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونجدهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لايزداد الا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لايزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان ـ رحمه الله ـ يعطي دستورا في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمه يسيرة في مقابلة عددهم الكثير ، وقد سألت باليان بن بارزان ، وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه : انه يقول : كنت أنا وصاحب صيدا ، وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور ، فلما أشرفنا عليه تحازرناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف ، أو قال عكس ذلك ، قلت : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ، ومارجع من هذا العالم إلا الاقل .

وكان لابد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين ، إذا كنا قريبا منهم .

وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله ، ولقد قرىء عليه جزآن من الحديث بين الصفين ، وذلك أني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى

أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا ، فأذن في ذلك فأحضر جزاه كما أحضر من له به سماع ، فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشي تارة ونقف أخرى .

ومارأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الاقسام كلها ، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولاغضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكوس والعلم ، وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى إنحاز إلى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابرا لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، ونحن لانتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الالهية والأقدار مافي مكنونها .

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الآذان الى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره ، قدس الله روحه ونور ضريحه

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) (٩) ونصوص الجهاد كثيرة ، ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف انه ماأنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولادرهما الا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه ، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى علي قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ماكان له حديث الا فيه ، ولانظر الا في آلته ، ولاكان له اهتمام الا برجاله ، ولاميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولايزيد ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما .

وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد وانا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل اية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرا مايطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل عز نصره ،

ولأحكين عنه ماسمعت منه ، وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، واعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود الى مصر وكان مقدمه أخاه الملك العادل عز نصره ، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وسرنا في خدمته ، ولما صلى العيد في القدس وقع له ان يمضي الى عسقلان ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ، ويرتب أحوالها ، فاشاروا عليه ان لايفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقى في

عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت رحمه الله ، وودع اخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا في خدمته الى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، (١٠) وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم امر البحر عندي ، حتى خيل لي اني لو قال لي قائل قادر : ان جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت افعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لايقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه ، فبينا انا في ذلك اذ التفت إلي رحمه الله ، وقال : اما : أحكي لك شيأ في نفسي أنه متى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم وأتبعتهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ، فعظم وقع الكلام عندي حيث ناقض ماكان خطر لي ، وقلت له : ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ولاأقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى ، فقال : وكيف؟ فقلت : اما الشجاعة فلان مولانا مايهوله أمر هذا البحر وهوله ، وأما نصرة دين الله فهو ان المولى مايقنع بقلع اعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى يطهر جميع الأرض منهم ، واستأننت أن أحكي له ماكان خطر لي ، فحكيت له ثم قلت : ماهذه الا نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له ان يخاطر بنفسه ، فقال : انا استفتيك ماأشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله ، فقال : غاية مافي الباب ان اموت أشرف الميتات فانظر الى هذه الطوية ماأطهرها ، والى هذه النفس ماأشجعها وأجرأها ، رحمة الله عليه ، اللهم انك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه .

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى : (ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . (١١) ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لايستطيع الجلوس ، وانما يكون متكئا على جانبه إن كان بالخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابرا على شدة الألم ، وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

ولقد مرض رحمه الله ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعا في أن ينالوا شيئا من المسلمين ، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الى الابار التي تحت التل ، فأمر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر الى جهة الناصرة ، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضا أيضا فأذن له ان يتأخر مع الثقل ، واقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقي الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما في القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبهم ، وأول مانزل من التل أحضر بين يديه افرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وابائه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير الى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولاينصب له خيمة حتى لايرى العدو ضعفا ، ولم يزل

كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ونحن في خدمته الى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبتنا تلك الليلة اجمع انا والطبيب نمرضه ونشاغله ،وهو ينام تارة ويستيقظ اخرى حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائدا الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا انا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبيارق لاغير ، فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا عظيما ، ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لايبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض ايس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة ، وبقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى اخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم ، وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية ، وعاد العسكر في الصباح الى ماكان عليه بالامس من مضايقة العدو ، ورحل العدو ، وسار على مامضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه ، وخرج اليه من أنجده حتى وصلوا الى خيامهم .

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى اي غاية بلغ هذا الرجل ! اللهم انك الهمته الصبر والاحتساب ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه ياارحم الراحمين .

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف احدا ولم نعرف حتى سمعناه

من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينيه .

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في الذ مفاكهة ، وارغد عيش ، والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى اتى الصباح وقد فرغ منها ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من اطول الليالي واشدها بردا ومطرا .

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ، ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة ، فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر الى الصباح ، ونحن بالرملة ، والعدو بيازور ، بيننا وبينها شوط فرس لاغير ، فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان بن جندر ،وسابق الدين بن الداية ، وعز الدين ابن المقدم ، وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه : توفي تقي الدين ، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدت الى نفسي فقلت : استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين وفيم أنتم ، وأعرضوا عما سواه ، فقال رحمه الله : نعم أستغفر الله ، وأخذ يكررها ، ثم قال : لايعلم بهذا أحد ، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم أشخص الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك حتى عاد الى يافا وعدنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا .

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه ، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله

تعالى ، اللهم أنه تــرك ذلك كله ابتغــاء مــــرضاتك فـــارض عنه وارحمه .

ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال سبحانه وتعالى : (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، (١٢) ولقد كان متجاوزا قليل الغضب . ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته ان يركب في وقت الركوب ، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة ، وانا في خدمته نقرأ شيئا من الحديث ، أو شيئا من الفقه ، ولقد قرأ علي كتابا مختصرا تصنيف الرازي يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه ، ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد الى الجلوس وقال : نصلي وننام ، ثم جلس يتحدث حديث مضجر ، وقد اخلى المكان ، الا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : انا الان ضجران اخرها ساعة فلم يفعل ، وقدم القصة لقريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال : رجل مستحق ، فقال : يوقع المولى له ، فقال : ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاه بحيث لايستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها ، والخركاة كبيرة ، فقال له المخاطب : هذه الدواة في صدر الخركاه ، وليس لهذا معنى الا أمره اياه باحضار الدواة لاغير ،فالتفت رحمه الله فرأى الدواة ، فقال والله لقد صدق ، ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى أ حضرها ووقع له ، فقلت : قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (وانك لعلى خلق عظيم) (١٣) وماأرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ماضرنا شيئا قضينا حاجته ، وحصل الثواب ، ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل

ذلك ، وهــذا غاية الاحســـان والحلم ، (والله لايضـــيع أجــــر المحسنين) . (١٤)

ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو لايتأثر لذلك ، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وانا راكب في خدمته فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم رحمه الله ، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فنضــحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ماكان عليه ، وهــو يتبســم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني .

ولقد كان يسمع مــن المســتغيثين والمتــظلمين أغلظ مــايمكن أن يسمع ، ويلقي ذلك بالبشر والقبول ، وهذه حــكاية يندر أن يســطر مثلها ، وذلك انه كان قد اتجه نحو أخو ملك الافرنج خــذلهم الله الى د'`ا ، فإن العسكر كان قد رحل عنهم وبعد ، وتراجع الى النطرون ، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد ، وثلاث معتــادة ، وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عســاه يبلغ منها غرضا ، وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك ، وكان بهــا الانكتارومعه جمــاعة فجهــز معــظم مــن كان عنده في المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي الانكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم وبعد العسكر ، ولما وصل رحمــه الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتمــت بــه ، وعلم أنه لاينال منهم غرضة سرى من ليلتــه ،. أول الليل الى آخــره حتى أتى يافا صباحا ، والانكتار في سبعة عــُر فــارسا وثــلاثمائة راجل نازلا خارج البلد في خيمة له فصبحه العســكر صــباحا فــركب

الملعون وكان شجاعا باسلا صاحب رأي في الحرب ، وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد ، فاستدار العسكر الاسلامي بهــم إلا مــن جهة البحر وتعبى العسكر تعبية القتال وأمــر الســلطان العســكر بالحملة انتهازا للفرصة ، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشــونة تعتب لعدم التوفير في أقــطاعه ، فعــطف رحمــه الله عنان فــرسه

كالمغضب لعلمه أنهم لايعملون في ذلك اليوم شيئا وتــركهم وانصرف راجعا ، وأمر بخميته التــي كانت منصــوبة أن قلعــت وانفضــوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة ولقــد حــكى لي

ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم ، حتى أنه لم يتجــاسر أن يقــع في عينيه مــع أنه حمــل في ذلك اليوم ، وأوغل ، ولم يزل سائرا حتى نزل بيازور ، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومــن يعتقــد أنه مــأخوذ مســخوط عليه ، قال : ولم تحــدثني نفسي بــالدخول عليه خيفــة حتــى استدعاني ، قال : فدخلت عليه وقد وصله مــن دمشــق المحــروسة فاكهة كثيرة ، فقــال : اطلبــوا الأمــراء حتــى يأكلوا شيئا ، قال : فسرى عني ماكنت أجده ، وطلبت الأمراء ، فحضروا وهــم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهــم الطمــأنينة والأمن والسرور ، وانصرفــوا على عزم الرحيل كأن لم يجــر شيء أصلا ، فانظر إلى هذا الحلم الذي لايتــأتى في مثــل هــذا الزمــان ولايحكي عمن تقدم من أمثاله رحمه الله عليه .

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلى الله وعليه وسلم : « بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لايترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك ، ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لايرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، ولايخاطبه بشيء إلا وينجزه ، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا .

ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق وطلب منه شيئا فأعطاه العمق ، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لانغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه ، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب توريز ، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل ، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة ، فلقيته ورحبت

به ، وسألته عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل ، فاستحضره وروي عنه حديثا ، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة ، فلما صليت الصبح أخذ يودعني ، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك ، وقال : قد قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته ، ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ، وشدد النكير علي في ذلك ، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسنت له فيها العود ، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فما أحسست به إلا وقد عاد إلي فرحب به السلطان وانبسط معه ، وأمسكه أياما ، ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه إمارات الخوف والجزع ، فقال الترجمان : من أي شيء يخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى إلا الخير ، فرق له ومن عليه وأطلقه .

ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة

إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لي الملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك وماأعرف ابنتي إلا منك ، فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب ، والناس يبكون على مانالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ، ولانعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ، ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالذواب شيئا سوى أن صرفهم من عملهم لاغير .

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الأفرنج بالساحل لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والواقعة تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان قد أمر بإحضارهما ، وكان أرناط هذا اللعين كافرا عظيما جبارا شديدا ، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ، ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة ، وذكروا له حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم ، فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ، فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحا من شراب فشرب منه ، ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ، ولاأطعمه من طعامي ، فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لاأونيه ، ثم ضرب عنقه بيده وفاء

بنذره ، وأخذ عكا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضـيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصـل بهـا إلى بلده وأهله ، هكذا بلغني على ألسـنة جمـاعة لأني لم أحضر هـذه الواقعة .

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرة منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بخير ، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع من أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط ، وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قـط ، وكان حسن العهد والوفـاء ، فمـا أحضر بين يديه يتيم الا وتـرحم على مخلفيه ، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته .

وكان لايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه .
فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة ، وماسطرت إلا ماشاهدته ، أو أخبرني الثقـة بـه وحققته ، وهذا بعض مااطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسير فيما أطلع عليه غيري من طالت صحبته وتقدمت خـدمته ولكن هـذا القدر يكفي الأديب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتـاب في

- ٦٦٦٤ -

بيان تقلبات أحواله ووقـائعه وفتـوحاته في تـواريخها قـــدس اله روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه .

القسم الثاني

في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها

ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى صحبة عمه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل ، وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على المكان وولي الوزارة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعة وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وماكان يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال ، فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نور الدين بن زنكي ، مستصرخا به مستنصرا على أعدائه بعسكره ، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وحفظا للبلاد ، وتطلعا إلى أحوالها ، وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فتأهب أسد الدين شيركوه ، وسار إلى مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ، ونصر شاور على خصمه وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده واستقر أمره ، وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الامور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

وكان ابتداء رحلته عنها متوجها إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة ، وكان لايفصل أمرا ولايقرر حالا إلا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبرا لأمره مفكرا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثا بذلك نفسه ، مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين بن زنكي إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر عودته إلى مصر في الوقعة الثانية

وهي معروفة بوقعة البابين

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ، فداخله الخوف على البلاد من الاتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد ، وأنه لابد له من قصدها ، فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ، ويمكنهم تمكينا كليا ، ويعيذونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها ، وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار ، استولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر ، وألزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك .

وكان توجههم في اثني عشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج إليها ، واتفق مع الافرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم ، وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الافرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين ، وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلاد الافرنج ، وأخذ المنيطرة ، وعلم الافرنج بذلك فخافوا على بلادهم وعادوا ، وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الافرنج والمصريين ، وماعاذوه من الشدائد وعايذوه من الاهوال ، وماعاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر ، وعاد إلى الشام في بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لايشعر بذلك .

ذكر عوده الى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها وجرى ماجرى في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب قلعة أكاف بالبرية ، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماه للغزاة وساروا إلى بلاد الافرنج فخربوا هونين في شوال منها .

وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين إلى مصر ، وكان سبب ذلك أن الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد .

فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد ، أما نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من الافرنج ، ولأنه قد حدث نظره إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين بن بكتكين ، فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ماكان في يده من الحصون إلى قطب الدين ماعدا إربل فانها كلها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله ، فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر .

وأما أسد الدين فبسيفه وماله وأهله ورجاله ، ولقد قال لي السلطان قدس الله روحه : كنت أكره الناس بالخروج في هذه الواقعة ، وماخرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (١٥) ، وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى

أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعا ، وكان وصولهم إلى مصر في اثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة .

ولما علم الافرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الاحيان ، وكان وعدهم بمال مقابلة ماخسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا ، وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد ، وعلم أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وترددهم إليها في كل وقت لايفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه أن خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به .

وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم ، فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه ، وذلك إنه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه ففروا ، ونهبهم العسكر وقبض على شاور وأنزل إلى خيمة مفردة ، وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قوي منهم على صاحبه ، فحزت رقبته وأنفذ رأسه إليهم ، وأنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيرا ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة ، ودام آمرا ناهيا ، والسلطان رحمه الله مباشر الامور مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ، وفوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام ، وبذل المال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وماعاد عنه ولاازداد إلا جدا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ، ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما ، وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع القوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لايخيب قاصدا ، ولايعدم وافدا ، ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين ، وذلك في رجب من سنة أربع وستين .

ذكر قصد الأفرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم ، وماتم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية ، خافوا أن يملك بلادهم ، ويخرب ديارهم ، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك ، فاجتمع الافرنج والروم جميعا ، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ، ولما سمع أفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار ، من المسلمين ، وأسروا صاحبه وكان مملوكا لنور الدين يسمى خلطج العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها ، ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلغه نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة ، فقصده أفرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي أخربت كثيرا من البلاد المذكورة ، فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر ، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ، ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ماأمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم ، ثم نزل الافرنج في التاريخ المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارة عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصر الله المسلمين ، وأيدهم وحسن قصدهم في نصر دين الله واسعدهم وأنجدهم حتى بان للأفرنج الخسران ،

وظهر على الكفر الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم ونهبت ، وقتل منهم خلق كثير ، وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فل حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

ذكر طلبه والده

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، وتجري القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء ، فوصل والده نجم الدين إليه في أثناء جمادى الأخرى من سنة خمس وستين ، وسلك معه من الأدب ماكان عادته ، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، ولاينبغي أن يغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها ، ولم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين ، وسار منها إلى نصيبين فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها ، ثم قصد الموصل ، وقصد أن لايقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن ، وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى ، وقرر صاحبها فيها ، وزوجه ابنته ، وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار ، وخرج من الموصل قاصدا نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

ذكر موت العاضد

وكان موته يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك للسلطان .

وكان خطب لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي ، وكانت الخطبة ابتداؤها المستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها ، ولايبقي لنفسه شيئا ، وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده ، وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته ، وكانت غزاة عرقة وأخذها في المحرم سنة سبع وستين .

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على قدم بسط العدل ، ونشر الاحسان ، وإقامة الاحسان على الناس إلى سنة ثمان وستين ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك ، وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب اليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصدا لها فحاصرها وجرى بينه وبين الأفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الواقعة وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصـــوله إلى مصر وفـــاة أبيه نجم الدين ، فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس ، وكان رحمـــه الله شـــديد الركض ولعـــا بلعـــب الكرة ، بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس ، وكانت وفاته في شهور سنة تسع وستين ، ورأى السلطان قوة عســـكره وكثرة عدد إخوته ، وقـــوة بـــأسهم ، وكان بلغـــه إن باليمن إنسانا استولى عليها ، وملك حصونها وهـو يخـــطب لنفســـه يسمي بعبد النبي بن مهدي ، ويزعم أن ينتشر ملكه في الأرض كلهـــا ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الاكبر شـــمس الدولة الملك المعظم توارنشاه ، وكان كريما أريحيا حسن الأخلاق ، سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمـــه وحســـن أخـــلاقه وتـــرجيحه على نفسه ، وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وســـتين ، فمضى إليها وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجي الذي كان بها ، واستولى على معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته إيضا عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الاربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين ، في قلعة دمشق ، وقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل .

ولقد حكى لي السلطان قال : كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم وأقول لايجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

- ٦٦٨٠ -

ذكر منافقة الكنز بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين

والكنز انسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية ، وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ماتستصغر هذه الافعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر ، وقصدوا قوص وأعمالها ، وانتهى خبره إلى السلطان فجرد له عسكرا عظيما شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم ، وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقيهم بمصاف ، فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك ، واستوت أموره ولله الحمد والمنة . (١٦)

ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الأحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد ، وجردوا عساكرهم في البحر ، وكانوا ستمائة قطعة مابين شيني وطرادة وبطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين ألفا على ماذكر ، ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة ، وهي سنة سبعين ، فأمده السلطان بالعساكر المنصورة ، وتحرك وأدخل الله في قلوبهم من

الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه ، وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديدا ، وعصمه الله منهم .

ولما احسوا بحركة السلطان نحوهم مالبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم والتهم ، فخرج أهل البلد إلى نهبها وإحراقها ، وكان أمرا عظيما ، ومن أعظم النعم على المسلمين وإمارة كل سعادة .

ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق

وأمـا نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصـالح اسـماعيل وكان بدمشق ، وكان بقلعة حلب ابـن الداية شمس الدين علي وشاذ بخت ، وكان علي قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ، ومعه سابق الدين ، فخرج بدر الدين للقائه فقبض عليه سابق الدين ، ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن ، وفي ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك .

ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لاينهض بأعباء الملك ولايستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الاسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسببا لتغير قلوب الناس عن الصبي ، فاقتضى الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ، ووصل البلاد مطالبا بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله ، فيقوم له ما اعوج من أمره ، فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها .

وكان أول دخـوله إلى دار أبيه ، واجتمـع الناس إليه وفـرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مـالا طـائلا ، وأظهـر الفـرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعـة واستقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن طلب حلب ، فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتـى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهـي الوقعـة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدى الأمر اليه ، فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا ، وساروا يريدون لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ورده عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائدا إلى حماه ، وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى حلب وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم ، ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه (١٧) وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر ، والمقصود الأوفر والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لايشعرون ، وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضا ، ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة .

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان واعتصم بذلك ، واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصلح فصالحه ، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي .

وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها إلى العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به ، وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة (١٨) وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم ، وصعد القلعة جريدة وأكل بها خبزا ونزل وسار راحلا إلى تل السلطان (١٩) ومعه الديار البكرية وجمع كثير ، والسلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لايشعرون أن في التأخير تدبيرا حتى وصل عسكر مصر ، فسار رحمه الله حتى أتي قرون حماه ، فبلغهم أنه قارب عسكره ، فاخرجوا اليزك وجهزوا من يكشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، (ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا) (٢٠) فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال .

- ٦٦٨٦ -

وأصبح القوم على مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين ، فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر فإنه كان في ميمنة سيف الدين ، وحمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء منهم فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم ، وعاد سيف الدين الى حلب المحروسة فأخذ منها خزانة ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فأنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ، ففرق الاصطبلات ، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لعز الدين فرو خشاه

وسار إلى منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها وذلك في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين ، وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ، ولم يفل ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة ، وسار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها فأخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه أعزاز فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية وتوفي باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين .

ثم أن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين ، واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها ، وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدم الافرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب ، فإنه كان أسيرا بها من زمن نور الدين ، وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة ان تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلوا في الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى ، وكان وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين المشهورة ولله الحمد .

وأما الملك الصالح فإنه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله ، ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الافرنجية ، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الاواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الملك الصالح الى حلب ، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فأخرج إليه العسكر وذلك في عاشر المحرم سنة ست وسبعين ، ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة ، وولي مكانه أخوه عز الدين مسعود في الخامس منه ، وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم ، علم بتخبط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده للغزاة فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الارمن ، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره حصار ، واخذ عسكر حلب في خدمته لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، وعبر منه إلى النهر الأسود وطرف بلاد ابن لاون ، وأخذ منهم حصنا وأخربه ، وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح وحلف السلطان في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وديار بكر ، وكان ذلك على نهر سنجة وهو نهر يرمي إلى الفرات ، وسار السلطان نحو دمشق .

ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلى حلب

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه في تاسع رجب ، وفي ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعي الأمراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل ، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس ، ولما توفي سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من الوصية إليه وتحليف الناس له فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان ، وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين ، وصاحب سروج ، ووصل معهما من حلف جميع الأمراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة ، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة .

ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد

ثم اقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس شوال ، وعلم أنه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عطنه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز ، وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام ، فرحل من قلعة حلب طاليا الرقة وخلف ولده مظفر الدين بها ، وسار حتى اتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم ، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لاخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب الدين من تسلم سنجار ، وفي ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين الى قلعة حلب .

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد إلى الديار المصرية واستخلف بن أخيه عز الدين فروخشاه واليا ، ولما بلغ السلطان قدس الله روحه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفا على البلاد من الافرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشاه في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فاشتد عزمه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت ، فإنه عبر على الافرنج في

عوده من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد بيروت ونزلهـا ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الافـرنج فـرحلوه عنهـا ، ودخـل إلى دمشق ، وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الافرنج يحثـونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشـأ العزم على قصـدهم لجمع كلمة العساكر الاسـلامية على عدو الله ، فـأخذ في التـأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعرهم بالخبر ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثـامن عشر جمـادى الأولى من هذه السنة ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة ، واستقر الحـال بينه وبين مـظفر الدين ، وكان صـاحب حران ، وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجـاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر الى قـاطع الفـرات ، وقـوى عزمه على البلاد ، وسهل أمـرها عنده ، ودخـل الرهـا والرقـة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه .

ذكر نزوله على الموصل

وكان نزوله عليها في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شـهر رجب ، وكنت إذ ذاك في الموصل فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، وأتيت بغـداد بعـد يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سـوى الانفاذ إلى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ، ويتلطف الحال معه ، ويسير إلى بهلوان رسولا مـن الموصل يستنجدونه ، فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ، ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم أنه بلد عظيم لايتحصـل منه شيء بـالمحاصرة على هـذا

الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها .

ذكر أخذه سنجار

ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان ، وأقام يحاصرها ، وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى محروسة الموصل ، وأعطاها ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم ، وسير إلى عز الدين صاحب الموصل أعلمه ، فخرج إليه وذلك في الخامس عشر من شوال ، فسار حتى اجتمع به صاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان ، وأرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعا إلى بلاده ، وعاد عز الدين إلى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمد ، فنزل عليها وقاتلها وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أول محرم سنة تسع وسبعين ، وأعطاها نور الدين بن قرا أرسلان ، ومن على ابن نيسان بجميع ماكان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب ، وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة أعزاز ، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكتمش ، فأنه كان قد

-٦٦٩٣-

صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الأولى من السنة المذكورة ، وقاتل تل باشر وكان صاحبها دلدرم الياروقي قـد صــار مع السلطان ، فلم يقدر عليها وجرت غارات من الأفـرنج في البــلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى ، وتسلم الكرزين(٢١)ثم عاد إلى حلب .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ، ثم سار طالبا حلب فنزل في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون فيباسطون عسكر حلب ببانقوسا وبباب الجنان غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك رحمه الله .

ذكر أخذه حلب قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له قبل ، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء وجبههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العساكر حتى تم الأمر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه فأعلمهم ، وأذن في تدبير انفسهم ، وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك النوري وزين الدين فقعدوا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدموا حلب ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى السادس والعشرين من صفر .

وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه ، وشـق عليه أمـر موته ، وجلس للعزاء .

وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه ، وتقررت بينهمـا قواعد وأنزله السلطان عنده في الخيمة وقدم له تقـدمه سـنيه وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وصار عماد الدين من يومـه إلى قـرا حصـار سـائرا إلى سنجار ، واقام السلطان بالمخيم بعد سير عماد الدين غير مـكترث بـأمرها ، ولامسـتعظم شـأنها إلى يوم الاثنين سـابع عشري صفر ، ثـم في ذلك اليوم صـعد السـلطان قلعـة حلب مسرورا منصورا ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية ، وكان قد تخلف لاخذ ماتخلف لعماد الدين من قماش وغيره .

ذكر أخذه حارم

وكان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها ودا فعهم الوالي وأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه ، فحلف لهـم ، وسـار مـن وقتـه إلى حارم ، فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها ، وبات بها ليلتين ، وقرر قواعدها ، وولى فيها ابراهيم بـن شروه ، وعاد إلى حلب ودخلها في ثالث ربيع الأول ، ثم أعطى العساكر دستورا وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ، ويدبر أمورها .

ذكر غزاة عين جالوت

ولم يقم في حلب إلا إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، وأنشأ عزما على الغزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام به تسعة ايام ، ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة ، وسار حتى أتى الفوار (٢٢) وتعبى فيه للحرب ، وسار حتى نزل القصير فبات به ، وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ماكان من ثقيل الاقمشة والغلال والأمتعة بها ، فنهبها العسكر وغنموا وحرقوا مالم يمكن أخذه ، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها ، وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش ، فوصل إليه في بقية الكسرة وهو العاشر من جمادي الآخرة ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر ، ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر إليه أن الافرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا إلى الفولة وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلك تعبى للقاء ، ورتب الأطلاب يمنة ويسرة وقلبا ، وسار للقاء العدو ، وسار الافرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين في العين ، وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الافرنج وجرى قتال عظيم ، وقتل العدو جماعة ، وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمي راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، ونزلوا

عليها ، ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف وهم لايخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة ولما رأى أنهم لايخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف ، فرحل نحو الطور ، وذلك في السابع عشر من هذا الشهر ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة ، وأصبح الافرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكصين ، فرحل رحمه الله نحوهم ، وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم ، فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتخريب عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين ، وهي من حصونهم المذكورة ، وخربت عليهم قرى عديدة ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الفوار ، وأعطى الناس دستورا من اثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولاالظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ثم انه اقام بدمشق الى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مرارا نحو الكرك ، وكان قد سير إلى الملك العادل ، وهو بمصر ، يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك ، فبلغه خبر حركته من مصر ، فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك رابع شعبان من هذه السنة ، وكان قد بلغ الافرنج خبر

خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحـو الكرك الدفـع عنه ، ولما انتهى ذلك إليه سـير الملك المظفـر تقـي الدين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شعبان ، وفي صبيحة السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك ، وتزخزح السـلطان عنه بعـد أن قـاتله قتـالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين برغش النوري شهيدا رحمـه الله في ثامن عشري رجب .

ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلب

ثم رحل السلطان مستصحبا أخاه الملك العـادل معـه إلى دمشـق ليأسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابـع والعشرين من شعبان وأعطى أخاه الملك العـادل حلب بعـد مقـامه بدمشق إلى ثاني يوم شهر رمضان ، وكان بهـا ولده الملك الظـاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره ، وابن العميد في البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب الأولاد إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه ، وكان أبر الناس بوالده وأطـوعهم له ، ولكن أخـذ منه حلب لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما دخـل الملك العـادل هـو ويازكج سائرين إلى خدمة السلطان ، فدخل دمشق يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ، فاقام في خدمة أبيه لايظهر له إلا الطاعة والانقياد ، مع إنكسار في باطنه لايخفى عن نظر والده ، وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل ، وكنا قـد تـوسلنا إلى الخليفـة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا إلى السطلان ، فسـيره معنا مـن بغـداد ، وكان عزيز المروءة ، عظيم الحرمة في دولة الخليفـة وفي سـائر البـلاد ، وكانت مـكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام .

ذكر وصولنا إلى خدمتة رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولا وسار منهـا في صحبة القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، وكان بينهم صحبة مـن الصبا ، وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ، ونحن في خدمته ، فلقيه عن بعـد ، وكان دخـولنا إلى دمشق يوم السبت حـادي عشر ذي القعـدة مـن هـذه السنة ، ولقينا مـن السـلطان كل جميل فيمـا يرجـع إلى الاكرام والاحترام ، واقمنا أياما نراجع في فصل حـال فلم يتفـق صـلح في الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السـلطان الى وداع الشيخ إلى القصير ، واجتهـدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شـغل فلم يتفق ، وكان الوقوف من جانب محيي الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين لابد مـن ذكرهمـا في النسـخة فـوقف الحال ، وكان مسيرنا سابع ذي الحجة سنة تسع وسـبعين وفي تلك الدفعـة عرض على السـلطان مـوضع

البهاء الدمشقي بمصر على لسان الشـيخ ، فـاعتذرت ولم أفعـل خوفا من أن يحال بوقف الحال علي ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصل رسول سنجر شـاه صـاحب الجزيرة ، فاستحلفه لنفسه في الانتماء إليه ، ورسول إربـل وحلف لهما وسارا ، ووصل إليه أخوه الملك العـادل يوم الاثنين رابـع ذي الحجة ، فأقام عنده وعيد وتوجه إلى حلب المحروسة .

ذكر غزاة أخرى إلى الكرك

وسير السلطان - قدس الله روحه - إلى العساكر يطلبها ، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، وأصعده إلى القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق في السادس والعشرين منه ، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول قرا أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عين الجر (٢٣) بالبقاع وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل ، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول ، وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قرا أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يلتحقان بالسلطان : ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة ، رحل السلطان الملك الناصر من رأس الماء طالبا الكرك فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل إلى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزانته ، فسيرهم إلى الملك العادل ، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك ، وذلك في رابع جمادى الاولى ، وركب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع ابن قرا أرسلان .

ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر .

ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسير الثقل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو ، وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادي الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم إلى آخر النهار ، ولما رأى قدس الله روحه تصميم الافرنج على الكرك أمر العساكر أن دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ، ولم يبق فيها إلا حصناها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ، واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الأخرى ومعه الملك العادل ونور الدين بن قرا أرسلان فرحا مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع ، فلبسها السلطان ، والبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهم ، وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قرا أرسلان ، وأعطاه دستورا ، وأعطى العساكر دستورا ، وسار ابن قرا أرسلان في تاسع عشر جمادى الآخرة طالبا بلاده .

وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على إربل ، وأنهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم .

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل في الدفعة الثانية

ولما سمع االسلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتي حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة إحدى وثمانين ، وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العساكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر ، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه وأنكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد إليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده وإعادة إلى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ، ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين ، فالتقاهم واحترمهم ، ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعا يعرف بالاسماعيلات قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه فأعطاه دستورا .

ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين توفي شاه أرمن صاحب خلاط ، وولي بعده غلام له يدعى بكتمر ، وهو الذي وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصونا في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه ، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز ، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه واندراجه في جملته وإعطائه مايرضيه ، فطمع السلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجها نحوها وسير إلى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان إصلاحه وزوجه ابنة له ، وولاه وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة ، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها رجل يقال له الأسد وماقصر في حفظها لكن الأقدار لاتغلب ، فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادى ، ولما آيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحر شديدا ، فأقام مدة .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به فأعاده إلى بلده ، ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته ، فرحل طالبا حران وهو مريض ، وكان يتجلد ، ولايركب محفة ، فوصل وهو شديد المرض وبلغ إلى غاية الضعف ، وآيس منه وأرجف بموته ، فوصل إليه أخوه من حلب ومعه أطباؤها .

ذكر صلح المواصلة معه

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتابك ، صاحب الموصل ، سيرني إلى الخليفة يستنجده ، فلم يحصل منه زبدة ، وسير إلى العجم ، فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة آيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا سرعة إنقياده و رقة قلبه في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلي أمر النسخة التي حلف بها ، وقالوا أمضيا مايصل إليه جهدكما وطاقتكما ، فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان ، وكان وصولنا في اوائل ذي الحجة ، فاحترمنا احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من سنجر شاه ، فأعطاها المواصلة ، وحلفته يمينا تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل ـ ومات قدس الله روحه ـ وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه ، وسرنا وهو بحران وقد تماثل ، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص ، وكانت وفاته يوم عرفة ، وجلس الملك العادل للعزاء ، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان مع الأكراد وقتل بينهم خلق عظيم ، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكز ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكانت يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن

شيركوه بتل السلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة ، فمن عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ، ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والأكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقتل من الفئتين خلق عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه ، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان ، وفي سابع عشر وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر ووصول الملك الظاهر إلى حلب

وذلك أن السلطان رأى ذهاب الملك العادل إلى مصر ، فانه كان انس بأحوالها من الملك المظفر ، فما زال يقاوضه بذلك وهو على حران مريض ، وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنه كان يحب الديار المصرية ، فلما عاد السلطان إلى دمشق ، ومن الله بعافيته ، سير يطلب الملك العادل إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة في الرابع والعشرين من ربيع الأول ، وسار حتى أتى دمشق ، فأقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير إلى جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر وتسليم حلب ، وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب ، وكان الملك الظاهر أيده الله ، والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر ، استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز وسلمه ولده إليه يربي أمره ، وسلم الملك العادل حلب إلى الملك الظاهر .

ولقد قال لي الملك العادل : أنه لما استقرت عليه هذه القاعدة ، واجتمعت بخدمة الملك العزيز والظاهر وجلست بينهما ، وقلت للملك العزيز : يامولاي إن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا لايخلون ممن يقول عني مالا يجوز ويخوفونك مني ، فإن كان لك أذن تسمع فقل لي حتى لاأجيء ؟ فقال : لاأسمع ، وكيف يكون ذلك ، ثم التفت وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين ، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير ، ثم إن الملك الظاهر سيره والده إلى حلب وأعادها عليه ليعلمه أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته ، ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب ، ولذا جعلت أعرض عما غيرها من بلاد المشرق ، وأقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد ، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته ، فسار إليها حتى العين المباركة ، وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة ، وواليا عيسى بن بلاشوا ، فنزل بعين المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة تاسع جمادى الأخرى ، وصعد القلعة ضحوة نهار ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، ومد على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وابل فضله .

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرر حالتهما ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز ، وهو صحبة عمه ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة ، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه وفرح بوصوله فرحا شديدا ، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان ، وأعطاه حماه وسار

إليها ، وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ، ودخل بها في السادس والعشرين من شهر رمضان ، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق في منتصف محرم ، فسار حتى نزل برأس الماء منتظرا اجتماع العساكر المصرية والشامية ، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارات على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو ، ووصل قفل مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك المظفر ، وما كان له بالديار المصرية ، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون ، وذلك أنه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك ، وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرته ، وكأن وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سابع عشر المحرم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق فأقام بها إلى ثالث صفر وانتقل إلى دار طمان .

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر إلى محروسة حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلى الشام ، ونزل بعشترا في السابع عشر من ربيع الأول ، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وجميع العساكر .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج

ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم في العشر الأواخر من ربيع الأول ، وتوجه إلى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماردين ، فلقيهم السلطان في العشر الأوسط من ربيع الآخر فاقرهم وأكرمهم ، وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل ، وتقدم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم والى أصحاب الميسرة بذلك وإلى القلب بمثله ــ قدس الله روحه ــ فما كان أحرصه على نصر الاسلام .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وكانت في يوم السبت رابع وعشرين ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وذلك ان السلطان رأى ان نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك ، وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع ، سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب إلى الاجابة ، فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ، وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين، فلما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها ، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها ، ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية ، لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الافرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية

من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين ، وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكي السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية ، وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم في غد زوار القبور ، ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والأمور الجسيمة ، مالم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة ، وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض ، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لاينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين (٢٤) ، (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (٢٥) وكان القومص ذكي القوم ، وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال

المسلمين فلم ينج منها واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وعلى سائر الأنبياء ، فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم : الملك كي ، والبرنس أرناط وأخو الملك جفري ، والبرنس هو صاحب الشوبك ، وابن الهنفري ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار ، وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه .

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم .

فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم ، أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها ، وأما مقدم الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم ، وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم ، وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ، ومن وجدوه من المقدمين ، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك كي ، وأخاه جفري والبرنس

أرناط ، وناول الملك كي شربة من جلاب بثلج فشرب منهـا ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقـال السلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته ، وأمـا أنا فما سقيته ، وكان على جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم ، أن الأسـير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بـذلك ، جـريا على مـكارم الأخلاق ، ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهـم ، فمضـوا وأكلوا شيئا ، ثم عادوا فاستحضرهم ، ولم يبق عنده سـوى بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النمجاة (٢٦) وضربـه بهـا فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وعجـل الله بـروحه إلى النار ، فأخذ ورمي على باب الخيمة ، فلما رآه الملك قد خـرج بـه على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به ، فاستحضره وطيب قلبه ، وقـال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، تـرتفع أصواتهم بـالحمد لله والشـكر له ، والتـكبير والتهليل حتـى طلع الصبح في يوم الأحد ، وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ثم رحل طـالبا عكا وكان نزوله عليهـا يوم الأربعـاء سـلخ ربيع الآخر ، وقـاتلها يوم الخميس مسـتهل جمـادى الأولى فـأخذها واستنقذ من كان فيها من الاسـارى ، وكانوا زهـاء أربعـة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأمـوال والذخـائر ، والبضـائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفـرقت العسـاكر في بـلاد الساحل يأخذون الحصون والقـلاع والأمـاكن المنيعـة ، وأخـذوا نابلس ، وحيفـا وقيسـارية ، وصـفورية ، والناصرة ، وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالقتك والأسر .

ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون أموالها وأساراها ، سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشر جمادى الاولى وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ونصره الله عليهم ، وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى صيدا ، فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها .

ثم سار حتى أتى بيروت ، فنازلها في الثاني والعشرين ، وتسلم أصحابه جبيلا ، وهو على بيروت .

ولما أفرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها ، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا ، وكانوا قد ضرسوا من القتال ، وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل ، فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر ، ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة : كالرملة ، ويبنا ، والدارون ، وأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها سلخ هذا الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه : غزة وبيت جبرين ، والنطرون ، بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان ، وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الاخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره إليه ، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله :« من فتح باب خير فلينتهزه فإنه لايدري متى يغلق دونه » (٢٧) وكان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان ، ثم انتقل رحمه الله لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف للقتال ، وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور ممايلي وادي جهنم في قرنة شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لايندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد ألقي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم ، مقتولون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين

وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القران المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه

وسلم ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحا عظيما ، شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم مايسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلا عظيما ، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل أمراة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيرا ، وفرج الله عمن كان أسيرا من المسلمين ، وكان خلقا عظيما زهاء ثلاثة الاف أسير ، وأقام رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور ، ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

ذكر قصده صور يسر الله فتحها

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائرا إليها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجها إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ونزل قريبا منها ينتظر وصول آلات القتال .

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في الثامن عشر من شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسر بوصوله سرورا عظيما .

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها في الثامن والعشرين ، وضايقها وقاتلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقر قواعده ، فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال ، وسير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال .

ذكر كسرة الأسطول

وذلك أنه قدم على الأسطول إنسان يقال له الفارس بدران ، وكان ناهضا جلدا في البحر ، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن ، وكان قد أكد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة ، فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور ، وكبسوهم ، وأخذوا المقدمين مع خمس قطع، وقتلوا خلقا عظيما من الأسطول الاسلامي ، وذلك في السابع والعشرين من شوال ، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء وتراكمت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جديدا ، فرأى ذلك رأيا ورحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها وأحرق ما لايمكن نقله ، وكان رحيله ثاني ذي القعدة من هذه السنة ففرق العساكر ، وأعطاها دستورا ، وسار

كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين .

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم ، مما يضعف قلوب من في صدور ، وينهي أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل محرم ، وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة ، فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا ، وقتلوا مقدمهم ، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي الجاولي ، وأخذوا أسلحتهم ، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه ، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا وعاد أخوه إلى مصر وولده إلى حلب ، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين ، وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كمشتكين على ضرب الكوس والدبدبة ، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الغزاة ، فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ، ثم حمل إلى منى مجروحا ، ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر ، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودفن بالمعلا ، وهذا من أتم السعادات ، وبلغ ذلك السلطان فشق عليه .

ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته ،

والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة ابـراهيم عليه الصلاة والسلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خـرجت إلى القـدس ، فبلغه خبر وصولي ، فظن أني وصلت من جانب الموصل في حـديث ، فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام والاحترام ، ولما ودعته ذاهبـا إلى القدس خرج لي بعض خواصه وأبلغني تقدمه إلي بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فـظننت أنه يوصـيني بمهـم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس يوم رحـيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصـنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الأول .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إليها عائدا من القـدس ، وأقـام بهـا خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهرا .

وفي اليوم الخامس بلغه خبـر الافـرنج أنهـم قصـدوا جبيلا واغتالوها ، فخرج مسرعا ساعة بلوغ الخبر ، وكان قـد سـير إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيلا ، فلمـا عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ، ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغـزاة ، فسار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني

ذكر دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبلة وغيرهما

ولما كان مستهل ربيع الاخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ، ثـم سير إلى الملك الظاهر ، والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية ليحفظا ذلك الجانب ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه بها على عزم المسـير

إلى الموصل متجهـــزا لذلك ، فلمـــا حضرت عنده فـــرح بـــي واكرمني ، وكنت قد جمعت له كتابا في الجهاد بدمشق مـدة مقـامي فيها يجمع أحكامه وآدابه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته ، ومازلت أطلب دستورا في كل وقت وهـو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقـت ، ويبلغني على ألسـنة الحاضرين ثناءه علي وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته ربيعـا الآخر جميعه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد ، وحـاصره يوم مجيئه بها ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العسـاكر من الجوانب وأغار على بلد طـرابلس في الشـهر دفعتين ، ودخـل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها مـن العسـاكر ، وتقـوية العسـاكر بالغنائم،ثم نادى في الناس في أواخر الشهر ، إنا داخلون الساحل ، وهـو قليل الازواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجـوانب ، فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إلي مع الفقيه عيسى ، وكشـف إلي أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربـع وثمـانين ، وهـو يوم دخـوله الساحل ، وجميع ما حكيته قبل إنما هـو روايتي عمن آثق بـه ممـن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته ، او أخبرني به مـن أثق به خبرا يقارب العيان والله الموفق .

ولما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى رحل السلطان على تعبية لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولا ومقـدمها عمـاد الدين زنكي ، والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ، ومقدمها مظفر الدين ، وسار الثقل في وسط العسكر حتـى أتـى المنزل ، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ، ثم رحل ونزل على العريمة ، فلم يقـاتلها ، ولم يتعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ، ورحـل عنهـا يوم الأحد .

ذكر فتح أنطرطوس

وكان وصوله – رحمه الله إلى انطرطوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجبلة فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو في موضعه وصارت العسكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان ، وركب هو وقارب البلد ، وأمر الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا الامة الحرب والقتال والزحف وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، واخذوها بالسيف ، وغنم العسكر جميع من بها ، وخرج الناس والاسرى واموالهم بأيديهم ، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله نتغدى بانطرطوس إن شاء الله ، وعاد الى خيمته فرحا مسرورا.

وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخراب سور البلد وقسمه على الأمراء ، وشرعوا في إخرابه وأخذوا يحاصرون الآخر ، وكان حصنا منيعا مبنيا بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء وفيه جروخ كثيرة يجرح الناس منها عن بعد ، وليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد في إخراب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة ، وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في آدره وبيوته

والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يخربها إلى الرابع عشر وسار يريد جبلة ، وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة ، فأنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتيزين فحضر وهم بالخدمة .

ذكر فتوحه جبلة واللاذقية

ووصل إلى جبلة في الثامن عشر ، وما استتم نزول العساكر حتى أخذ البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاض يحكم بينهم ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ، وبقيت القلعة ممتنعة ، فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها ، وسلمت بالأمان في التاسع عشر ، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين ، وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور ، وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل محدقا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوي الضجيج إلى آخر اليوم المذكور ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، ففرق بين الناس الليل وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا في أخذ النقوب ، واخذت النقوب من شمالي القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكي لي من ذرعه ستين ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد ، فلما رأى عدو الله ما حل

بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر ، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرر لهم الأمان ، فاجيبوا إلى ذلك .

وكان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به رفقا ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت ، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر ، وآلات السلاح ، والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم ، ورقي عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم ، وأقمنا عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون ، واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا أو أكثر ، وهو نقر في حجر ، ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة ، وكان على قلعتها علم طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الاسلامي شاهدته قد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلموا أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب منجنيقا قريبا من سورها فقطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي إليه منها ، ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات أن تتوالى بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم

الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على الأسوار التي للربض ، واشتد الزحف وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الربض ، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها ، وهم يقاتلون ، وانضم من كان في الربض إلى القلعة وهم يحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة ، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الأمان وأنعم عليهم ، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ، ومن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة ، وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وقلعة الجماهريين وبلاطنس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب ، فإنها كانت تتعلق بصهيون .

ذكر فتوح بكاس

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الاخرى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان المنزل على شاطىء العاصي ، وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى تاسع الشهر ، ويسر الله فتحها عنوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قليعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لاناصر لهم فطلبوا الأمان في الثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية ، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ، ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية ، فقاتلها قتالا شديدا وضايقها مضايقة

عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر ، فاتفقت فتوحات الساحل على جبلة الى سرمانية في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين ، وسعادة السلطان حيث يسر الله لنا الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في تاريخ .

ذكر فتوح برزية

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، تحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا ، وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر ، بحيث لايفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار ، فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقي الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة

وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا الامان وقد تمكنت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا) (٢٨) ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد أوى اليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوما عظيما ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم الى صاحب أنطاكية استمالة فانهم يتعلقون به ومن أهله .

ذكر فتوح دربساك

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية ، فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها ، وتمكن النقب منه حتى وقع ، وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشفون ، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان ، واشترطوا مراجعة انطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ، ورقي عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر ، وسار عنها في الثالث والعشرين منه .

ذكر فتوح بغراس

وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك ، وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر في مرج لها ، وأحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب أنطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يزك الاسلام على باب أنطاكية بحيث لايشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام لرؤية البلد ، وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ، ورقى العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين ، وفي بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله الى المخيم الأكبر وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور ، وعقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الأفرنج لاغير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد الى السلطان ، ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر الا من ناله من نعمته منال ، وأكثر ظني أنه اشفق عليه والده ، وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، واصعده الى قلعة حماه ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جبلة واللاذقية ، وسار على طريق بعلبك حتى أتاها وأقام بمرجها ودخل الى حمامها ، وسار منها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما أمكنه ، وكان قد بقي له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها : كصفد ، وكوكب ، فرأى أن يشغل الوقت بفتح المكانين في الصوم .

ذكر فتح صفد

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ، ولم يلتفت الى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع فيه بأهله ، « اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فأته أجرا عظيما » .

فسار حتى أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحدق العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جده ، ولقد كنت عنده في خدمته ليلة ، وقد عين مواضع خمس مناجيق ، فقال ما ننام حتى تنصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح ، وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :« عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب ذواب صاحبها ، وخلصوه بها من الأسر ، وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ، ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالذوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال .

ذكر فتوح كوكب

ثم سار يريد كوكب فنزل على الجبل ، وجرد العسكر ، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب

العدو ، وبني له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه حتى لايقدر أحد يقف على باب خيمة الا إن كان ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة ، والوحول عظيمة ، وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وقتل وجرح جماعة ، ولم يزل راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو المخذول أنه مأخوذ طلب الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم ، وتسلمها في منتصف ذي القعدة ، ونزل على الفور إلى الثقل ، وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال شخصية حتى هل هلال ذي الحجة ، واعطى دستورا وسار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه فإنه كان عائدا الى مصر ، فوصلا اليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وصلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد ، وسار حادي عشر طالبا عسقلان لينظر في حالها ، فأقام بها أياما يلم شعثها ويصلح أحوالها ، فودع أخاه ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ، ويمر على البلاد يتفقد أحوالها ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فأقام بها معظم محرم سنة خمس وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بصدد حفظها ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

ذكر توجهه الى شقيف أرذون
وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الأول ثلاثة أيام ، ووصله في أثناء ربيع الأول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد ، فخطب له .

وجدد عزمه على قصد شقيف ارذون ، وهو موضع حصين قريب من بانياس ، وكان تبريزه في الثالث ، فسار حتى نزل في مرج فلوس ، وأصبح يوم السبت راحلا حتى أتى مرج برغوت فنزل به ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتابع الى حادي عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ، ثم رحل منها حتى اتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به ، وهو قريب من شقيف أرذون ، بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة ، فرأى إن اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته ، فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الأفرنجية وعقلائها ، وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على كل شيء من التواريخ ، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وكان عنده ثان ، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر له أنه مملوكه وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان اليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، واقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ، فأجيب الى ذلك كله ، وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل

وقت ، ويناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه ، وكان حسـن المحـاورة ومتادبا في كلامـه ، وفي أثناء ربيع الأول وصـل الخبـر بتسـليم الشوبك ، وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مـدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالأمان .

ذكر اجتماع الأفرنج لقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمـر الملك من بها بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحـن على حصـن الأكراد مـن أنطرطوس ، واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفا أبـدا ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبدا ، فنكث لعنه الله ، فجمع جموعا وأتـى صور يطلب الدخول إليها ، فخيم على بـابها يراجـع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت ، وكان المركيس اللعين رجلا عظيمـا ذا رأي وبأس شديد في دينه ، وصرامة عظيمـة ، فقـال : إنني نائب للملوك الذين وراء البحـر ، ومـا أذنوا لي في تسـليمها اليك ، وطـالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهمـا على أن يتفقـوا جميعـا على المسلمين ، وتجمع العساكر بصـور وغيرهـا مـن الافـرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور .

ذكر الواقعة التـي اسـتشهد فيهـا أيبـك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السـنة المذكورة ، بلغ السلطان من اليزك ان الأفـرنج قـد قـطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وبقيت الأرض التـي نحـن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاووش فركب العسـكر يريدون نحو اليزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة ، وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليزك الاسـلامي ، وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالا شديدا ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ونصر الله الاسلام ، وأهله ولم يقتل من المسـلمين الا مملوك للسـلطان يعـرف بـأيبك الأخرس ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعا باسلا مجـربا

في الحرب فارسا ، تقنطر به فرسه فلجا الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان الى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين

وأقام في تلك الخيم الى عشر من جمادى المذكور ، وركب يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة ، وحرص في ردهم ، فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم ، فلم يفعلوا وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الأفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان ، فإنه كان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، وإنما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ، ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الأمر قد فرط ، والأفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة ، وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا ، وقتل أيضا من الأفرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانية ، وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصار وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه ، وهذه الوقعة لم يتفق للأفرنج مثلها في هذه الوقائع التي

حضرتها وشاهدتها ، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة .

ذكر مسيره جريدة الى عكا وسبب ذلك

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقدر معهم أنه يهجم على الأفرنج ، ويعبر الجسر ويقتلهم ، ويستاصل شافتهم ، وكان الأفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما صمم العزم على ذلك ، أصبح يوم الخميس سابع عشر ، وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائدا وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا أن الأفرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها معتصمين بقربها ، وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي ، فمضى الى عكا ورتب أحوالها ، وأمر بتتمة عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد الى العسكر المنصور إلى مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله .

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتطبون ، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم وياخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراءهم أيضا خيلا تحفظهم ، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ، ثم انفذ إلى

عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرجالة ، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم ، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة ، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو ، حتى إذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم ، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجردين ليس معهم خيمة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين ، ورتب العسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان الجياد الخيل وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك ، وكان قد بلغهم الخبر ، وتعبوا تعبية القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد ، والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين ايديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جرى ، واتصل الخبر بالسلطان في اواخر الامر وقد هجم الليل فبعث إليهم بعوثا كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الأمر ، ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكانت القتلى من الافرنج على ما ذكر من حضر — فإني لم أكن حاضرها — زهاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة أنفار ، إثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الأمير زامل ، وكان شابا تاما حسن الشباب مقدم عشيرته ، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به ايضا واسر هو وثلاثة من أهله ، ولما بصر الافرنج بالمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة ، ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكا من مماليك السلطان أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما ، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة ، الى صبيحة يوم الثلاثاء ، ففقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من

يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هذه الحالة ، فحملوه ونقلوه إلى المخيم على تلك الحال وعافاه الله ، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصورا ، فرحا مسرورا .

ذكر أخذ صاحب الشقيف وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد فيه تدفع الزمان ، وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الأبواب ، وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة إليه ، وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر ، وقد مضى من الليل ربعه ، فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة وبقي بعض العسكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة ، حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة ، وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم ، فنزل إلى الخدمة ، وعرض المكان ، وقال : المدة لم يبق منها إلا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غدا ، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور ، وأنهم على الخروج منها في هذه الأيام ، وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئا ، وأجراه على عادته ومقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان ، وسال منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فماطله وما أيسه ، وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، وما ينفصل الحال عليه نعرفك ، وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرسا لايشعر بهم ، وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة

والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الأيام ، وطولب بتسليم المكان فكشف له إنك أضمرت الغدر ، وجددت في المكان عمائر ، وحملت اليه ذخائر ، فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا ، فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدد بابا للسور لم يكن ، فأقيم الحرس الشديد عليه وأظهر ذلك ومنع الدخول الى الخدمة ، وقيل له قد انقضت المدة ولابد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ، ويدافع عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الأخرة ، وفيه اعترف بانتهاء المدة ، قال : أنا أمضي وأسلم المكان ، وسار معه جمع كثير من الامراء والأجناد حتى أتى الشقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، فخرج إليه قسيس وحدثه بلسانه ، ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس إليهم فظن أنه أكد الوصية على القسيس في الامتناع ، وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يلتفتوا وأعيد إلى المخيم المنصور وسير من ليلته إلى بانياس وأحيط عليه بقلعتها ، فأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقام صاحب الشقيف ببانياس الى سادس رجب ، واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئا ، فاحضر إلى المخيم وهدده ليلة وصوله بأمور عظيمة ، فلم يفعل ، وأصبح السلطان ثامن رجب ورقي إلى سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم ، وكان قد تغير مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك إن الافرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو الذواقير يريدون جهة عكا ، وان بعضهم نزل بالاسكندرونة ، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون نفرا يسيرا وأقاموا هناك .

ذكر واقعة عكا

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف ، لاقصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال إلى ثاني عشر رجب ، فوصل قاصده وأخبر إن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم ذلك عنده ، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدم الى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم المحروس ، وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائرا إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ، ويواصلون باخباره ، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صباح الرابع عشر ، وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر ، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه .

وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان وأعدهم إليه ، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير ، وعدد وافر ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية ، وكان اخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت

العساكر الاسلامية ، واجتمعت ، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو ، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد الا ويجرح أو يقتل .

وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا ، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريبا من باب البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، ومارأيت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لاينقطع ، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل ، والملوك والأمراء من الاقطار تتتابع ، فاول من وصل الأمير الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه ، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الأخلاطي ، وأسف المسلمون عليه أسفا شديدا فإنه كان شجاعا دينا .

ثم إن الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ رجب ، ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الراي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح الباب والطريق الى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان ، وسار مع العسكر وقد رتبه للقتال ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة ، وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة ، واتصل الحرب الى إن حال بين الفئتين هجوم الليل .

وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح ، تحرس كل

طائفة نفسها من الطائفة الأخرى إلى أن أصبح صباح السبت ثـاني شعبان

ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السـبت أصـبح الناس على القتـال ، وانفـذ السلطان طائفة من شجعان المسـلمين إلى البحـر مـن شـمالي عكا ، ولم يكن هناك للعدو خيم ، لكن العسكر كان قد امتد جـريدة إلى البحـر ، فحملوا عليهـم فـانكسروا بين أيديهـم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعـا كثيرا ، وانكف السـالمون منهـم إلى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، ووقف اليزك الاسلامي مانعا من أن يخرج من عسـكرهم خـارج أو يدخـل إليه داخل ، وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعـة الملك إلى باب قراقوش ، الذي جدده ، وصار الطـريق مهيعـا يمـر فيه السوقي ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحـد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ، ودخـل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا ورقي على السور ، ونظر إلى عسكر العدو تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ، وخـرج العسـكر الذي كان بها في خدمة السلطان ، واستدار العسكر الاسلامي حـول العسكر الافرنجي وأحدقوا بهم من كل جانب .

ولما استقر به ذلك تراجع عن القتال وذلك بعد الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظا مـن الراحـة عادوا الى القتال لمناجزة القوم ، وضـاق الوقـت وأخـذ الضـجر والتعب مـن الناس فلم يرجعـوا الى القتـال في ذلك اليوم ، وبـات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال رجـاء المناجـزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الأمراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه ، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تاخير ذلك إلى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو ومن ورائه ، وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ويكافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات.، وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه ، وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو ، وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس والنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

ذكر تاخر الناس عن تل العياضية

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول ، وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم ، حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا خيام اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم ، شدوا وتنازعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان بالعساكر الاسلامية : ياللاسلام ، فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على

العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبية والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح ، والعاطب طريح مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ، ولاتلوي الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم واذكفوا عن القتال أياما ، وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم ، واستقر فتح طريق عكا ، والمسلمون يترددون إليها ، وكنت ممن دخل ورقي على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ، ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان ، ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو ، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من الشجعان ، ودفن في سفح هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لخفتهم على خيلهم ، وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوسا عديدة بين يديه ، فخلع عليهم وأحسن اليهم ، وكان ذلك في يوم السبت السادس عشر من شعبان ، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم ، قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفئتين ، وما يخلو يوم من قتل وجرح وسبي ونهب ، وأنس البعض بالبعض بحيث أن كان الطائفتين تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص

البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا : إلى كم تقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم ، فأخرج صبيان من البلد ، إلى صبيين من الأفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين الى أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، فاشتراه بعض الأفرنج بدينارين وقالوا : هو أسيرك حقا ، فأخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه نادرة غريبة ، ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ، ووقع في البحر ومازال يسبح ، وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون .

ذكر المصاف الأعظم على عكا

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الأفرنج حركة لم يكن لهم بمثلها عادة : فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك ، وبين يديه الأنجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدي الملك ، وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها إلى آخرها ، وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الاسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أن نادي في الناس : ياللاسلام ، وعساكر الموحدين ، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدي خيامهم ، وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضا ، وكان رحمه الله قد أنزل

الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبية الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب ، وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين ابن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر ، وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه ، هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم في نصر دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى فيه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفا ، وأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ، ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ، وهم يسبقون حينا ، وجاءت الحملة على الديار البكرية ، كما شاء الله تعالى ، وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي

العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية فأنهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله.

وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها ، وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد ، وينادي فيهم : باللاسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ، ويخرق الصفوف ويأوي إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم الى الاقحوانة قاطع جسر طبرية ، وأم منهم قوم محروسة دمشق ، فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم الى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين الى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فإن السوق كان عظيما ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لاتتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان فأنه كان واقفا تحت التل ، ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأوا الأفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فامرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس ، فحملوا عليهم

فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم ، فلما رأوهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وأنهم إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال ، وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ونصر الايمان ، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون الى عسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب ، كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ، ودمائهم إلى خيامهم فرحين مسرورين ، وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ، ولقد رأيته وهو جالس يضحك ، والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ، ويقول هذا يوم الهناء لايوم العزاء ، وكان قد وقع عن فرسه وأركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي ، هذا الذي قتل من المسلمين .

وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطيء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم ، ورأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم ، فان العسكر انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا ، فظنوا أن الكسرة تتم ، وأن العدو ينهب جميع ما في الخيام ، فوضعوا أيديهم في

الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة ، سارع إلى الكتب والرسل في رد المنهزمين ، وتتبع من شذ من العسكر ، والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ، وأخذوهم بالكرة إلى عسكر المسلمين ، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا ، وحلف عليه يسلم إليه ، وهو يلقى هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه منبسط ، ورأي مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصرة دين الله .

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم ، وطرحت مقدموهم ، وفقدت ملوكهم ، فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطا ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة ، فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور ، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم ، فانه ولي أمرهم غيره ، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم ، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة ، وأعادها إلى أصحابها ، وأقام المناداة في العساكر ، وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف

الآخر ، وأقـام مـن ينادي على مـن ضـاع منه شيء ، فحضر الخلق ، وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف وأخذه من الحبل والمخلات إلى الهميان والجـوهر ، ولقـي مـن ذلك مشـقة عظيمة ، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ، ويسابق بيد القبول اليها .

ولقد حضرت يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للعـدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعـة الثـالث والعشرين من شعبان ، وعند انقضـاء هـذه الواقعـة وسـكون ثائرتها ، أمر السلطان بالثقل حتـى تـراجع إلى مـوضع يقـال له الخروبة ، خشية على العسكر من روائح القتلى ، وآثار الوخم مـن الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعـد عنهـا مـن المكان الذي كان نازلا فيه بقليل ، وذلك في التـاسع والعشرين ، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قـال بسم الله ، والحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلمـوا أن هـذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلادنا ، وقد وطيء أرض الاسلام ، وقـد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمـام بقلعـه ، والله قـد أوجـب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجـدة ننتـظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقي وطال أمـره إلى أن يفتـح البحـر جـاءه مـدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك ، وكان ذلك في ثـالث تشرين من الشهور الشمسية ، وامتخضت الآراء ، وجرى تجـاذب في أطراف الكلام ، وانفصـلت آراؤهـم على أن المصـلحة تـأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقي العسكر أياما حتى يسـتجم مـن حمل السلاح ، وترجع النفوس إليهم ، فقد أخـذ التعـب منهـم ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف مـا تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يومـا تحـت السـلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها

ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصـل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ، وسنعيد من شذ من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجـالة ، وكان بـالسلطان التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه ومـا عاناه مـن التعـب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام فوقع به ما قالوه ورأوه مصلحة ، وكان انتقال العسكر الى الثقل ثالث رمضان ، وانتقال السلطان تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر وينتـظر أخـاه الى عاشر رمضان .

ذكر وصول خبر الألمان

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر ، عز نصره ، يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل مائتا الف ، وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية ، فاشتد ذلك على السلطان ، وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد وأعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستدعاني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة ، وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول الى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم ، فأجابوا بنفوسهم ، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة ، وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر عسكره ، وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره ، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره ، وحضرت الديوان السعيد ببغداد ، وأنهيت الحال كما رسم ، ووعد بكل جميل ، وعدت الى خدمته رحمة الله عليه ، وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين ، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وباهتمامهم بالمسير ، فسر بذلك وفرح فرحا شديدا .

ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامي ، فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم وجرت مقتلة عظيمة ، قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ، ولم يقتل من معروفي المسلمين إلا مملوك للسلطان يقال له أرغش ، وكان رجلا صالحا استشهد في ذلك اليوم ، وبلغ الخبر إلى السلطان فعاد منزعجا فوجد الحرب قد انفصل ، وعاد كل فريق إلى حزبه ، وعاد العدو خائبا خاسرا ولله الحمد والمنة ، وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافرا ، وما مضى من هذه الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي معرفة خاصة في هذه الأمور .

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا كان للسلطان يدعي قره سنقر ، وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما ، وفتك فيهم ، فأخذوا قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، فوثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه فإنه كان قتل له أقرباء ، فوقعت الضربة في يد الممسك بشعره ، فقطعت يده وخلى سبيله فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عدوا خلفه لم يلحقه منهم احد ، وعاد سالما (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (٢٩)

ذكر وفاة الفقيه عيسى

وهي مما بلغني ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مـرض مـرضا كان يتعاهده وهو ضعيف النفس ، وعرض له إسهال أضعفه ، فلم يقطع صلاته ، ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، وكان رحمـه الله كريمـا شجاعا ، حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ، تـوفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة ، مـن شـهور سـنة خمس وثمانين .

ذكر تسليم الشقيف سنة ست وثمانين

ولما كان يوم الأحـد خـامس عشر ربيع الأول علم الافـرنج المستحفظون بالشقيف إنهم لا عاصم لهم من أمـر الله ، وأنهـم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم ، فطلبوا الأمـان ، وجـرت مـراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قـد عذب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ، ويترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر ، فتسلم في التاريخ المذكور ، وكان الحديث قد جرى مرارا حتى استقرت القاعدة في التـاريخ المتقـدم ، وعاد صـاحب صـيدا والأفرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور ، ولما رأى السلطان مـن اهتمام الافرنج من أقطار بـلادهم بـالمكان وتصـويب عزائهـم نحوه ، اغتنم الشتاء وانقطاع البحـر ، وجعـل في عكا مـن الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعـالى ، وتقدم الى النواب بمصر أن عمروا لها اسطولا عظيما يحمـل خلقـا كثيرا ، وسار حتى دخل عكا مكابرة للعدو ومـراغمه له ، وأعطـى العساكر دستورا طول الشتاء يستجمون ويستريحون ، وأقام هـو

مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شـدة الوحـول وتعذر بذلك وصول بعضهم إلى بعض .

طريفة

كان لما بلغ خبر العدو ، وقصده عكا ، جمع الأمراء وأصـحاب الرأي بمـرج عيون وشـاورهم فيمـا يصـنع ، وكان رأيه أن قال : المصلحة مناجزة القوم ومنعهـم مـن النزول الى البلد ، وإلا فإن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم ، وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم ، وخيف على البلد منهم ، وكانت إشـارة الجمـاعة انهم اذا نزلوا واجتمعت العسـاكر قلعناهـم في يوم واحـد ، وكان الأمر كما قال السلطان ، والله لقد سمعت هذا القـول ، وشـاهدت الفعل كما قال السلطان ، وهـو يوافـق معنى قـوله صـلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي لمحدثين ومكلمين وإن عمر لمنهم » .

ذكر وصول رسول الخليفة

ولم يزل السلطان مجدا في الانفاذ الى عكا بالميرة والعدد والأسلحة والرجال ، حتى انقضى الشتاء وانفتـح البحـر وحـان زمـان القتال ، فكتب الى العساكر يستدعيها من الأطراف ، ولما تـواصل أوائل العساكر ، وقوي جيش الاسـلام رحـل السـلطان نحـو العدو ، ونزل على تل كيسان ، وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ، ورتب العسكر قلبا وميمنه وميسرة ، وأخـذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر ، فوصل رسـول الخليفـة وهـو شاب شريف ، ووصل معه حملان من النفط ، وجمـاعة مـن النفاطين والزراقين ، ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجـده

الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار يذفقها في الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتذقيل بها .

وفي ذلك اليوم بلغ السلطان إن الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد ، وقاتلهم قتالا شديدا الى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى أصحابه ، ورأى السلطان قوة العساكر الاسلامية ، وبعد المكان عن العدو ، فخاف أن يهجم البلد ويتم عليه أمر ، فرأى الانتقال الى تل العجول بالكلية ، فانتقل بالعسكر والثقل في الخامس والعشرين ، وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدو بعض الخندق ، وقوي عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول ، وعبى العسكر تعبية القتال ، وزحف الى العدو ليشغله عن ذلك.

ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب جريدة الى خدمته معاجلة للبر ، وترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه ، وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين ، وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفلة ، وقد اظهروا الزينة ، ولبسوا لأمة الحرب ونشرت الأعلام والبيارق ، وضربت الكوسات ، ونعقت البوقات ، وعرض بين يدي والده ، وكان قد ركب الى لقائه في المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ،وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم ، وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا مسارعة للخدمة ، ثم عاد الى عسكره في لأمة الحرب ، فعرضهم السلطان حتي وقف بهم على العدو ، وكان ما يقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو ، وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام وينعم

عليهم بما يطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب ، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر ، بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على سور البلد ، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين ، وأودعها من الخوف مالا يمكن شرحه ، وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان فرغ من عملها ولم يبق الا جرها الى قريب السور ، وكان السلطان قد أعمل فكره في أحراقها واهلاكها ، وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وحثهم على الاجتهاد في إحراقها ، ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، وضاقت حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه أن له صناعة في إحراقها وأنه إن مكن من الدخول الى عكا وحصلت له الأدوية التي يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ماطلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحدا بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار ، طالعة ذؤابته نحو السماء ، واستغاث المسلمون بالتهليل ، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية ، فما كان الا أن وصلت اليه واشتغلت كالتي قبلها ، فاشتد ضجيج الفئتين

وانعقدت الأصوات إلى السماء ، ومـا كان إلا سـاعة حتـى ضرب الثالث ، فالتهب ، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حـرك ذوي الأحلام والنهى منهم حركة الشـباب الرعناء ، وركبـت العسـاكر ميمنة وميسرة وقلبا ،وكان أواخر النهار وسار حتى أتـى عسـكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجـزهم عمـلا بقـوله صـلى الله عليه وسلم : « من فتح له بابا من الخير فلينتهزه » ، فلم يظهر العدو من خيامهـم ، وحـال بين الطـائفتين الليل ، وعاد كل فـريق الى حزبه ، ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ، واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك بيمن صلاح سريرته ، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم وهـم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الاسـلامية تتـواتر وتتواصل

ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي ابن مودود صاحب سنجار ، يجر عسكره ،ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ، ولقيه السـلطان بـالاحترام والتعـظيم ، ورتـب له العسكر في لقائه ، وكان أول من لقيه من العسكر المنصـور قضـاته وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم صـار بـه حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه الى خيمتـه وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم ، فحضر هـو وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف والطائف ما لايقدر غيره عليه ، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مسـتقلة الى جـانبه ، وبسـط له ثـوب أطلس عند دخوله ، وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهـر ، ولما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ، ووصل في عسكر

حسن ، فلقيه السلطان واحترمه وأكرمه وأنزله في خيمته وأمر أن تضرب خيمته إلى جانب عماد الدين ، وفي تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدما على عسكره ففرح السلطان بقدومه فرحا شديدا ، وتلقاه عن بعد هو وأهله ، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمة ، وقدم له تحفا حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته وجها مضيئا

ولما كانت ظهيرة ذلك اليوم ظهرت في البحر قلوع كثيرة ، وكان رحمه الله في نظره وصول الأسطول من مصر ، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، فركب السلطان وركب الناس في خدمته ، وتعبى تعبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول ، ولما علم العدو وصول الأسطول استعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا ، وخرج أسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وايناسا لرجاله ، والتقى الأسطولان في البحر ، والعسكران في البر ، واضطرمت نيران الحرب ، واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، ورجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية .

وجرى بين الأسطولين قتال شديد انقشع عن نصرة الأسطول الاسلامي ، وأخذ من العدو شيني وقتل من به ونهب جميع ما فيه ، وظفر من العدو بمركب أيضا واصلا من قسطنطينية ، ودخل الأسطول المنصور الى عكا ، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير ونخائر ، وطابت قلوب أهل البلد وانشرحت صدورهم ، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم ، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق الى خيامه ، وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم ، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم

عن الأسطول أيضا ، والأسطولان يتقاتلان ، والعسكر يقاتلهم من البر ، وكان النصر للمسلمين في الأماكن كلها .

ثم كان وصول زين الدين صاحب إربل في العشر الأواخر من جمادى الأولى ، وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين ، قدم بعسكر حسن ، وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان ، وأكرمه وأنزله في خيمته ، وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب أخيه مظفر الدين .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواترت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه ، وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم ، وكان قليج أرسلان أظهر شقاقه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون ، وأنفذ معه أدلاء ، واعتراهم في الطريق جوع عظيم حتى ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عددا كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدرا واحدا ، وأضرموا فيها النار لتتلف ، ولا ينتفع بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك تلا من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى أتوا إلى بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأما ملكهم فعن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله .

ولما رأى ما حل به أوصى الى ابنه الذي كان في صحبته ، ولما مات

أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل ، وجمعوا عظامه في كيس على أن يحملوه إلى القــــدس الشريف حـــــــرسه الله ، ويدفنوه في القدس ، وترتب ابنه مــكانه على خلف مــن أصــحابه ، فــان ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده ، وكان جمــاعة مــن أصــحابه يميلون إليه ، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمة العسكر .

ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل ، وما حل بهم مــن الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ، رأى أن لايلقي بنفســه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر ، وهم أفرنج وهو أرمني ، فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة .

صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان كتــاب مــن الكاغيكوس ، وهــو مقــــدم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات ، نســخة هذه ترجمتها : كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس ما أطلع بــه علم مولانا ، ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلمة الايمان ، رافع علم العدل والاحســان ، صــلاح الدنيا والدين ، ســـلطان الاســـلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف إجــلاله ، وصــان مهجتــه وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جــرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ودخــل بــلاد الهنذكر غصبا ، غصب ملك الهنذكر بالاذعان والدخول تحت طاعته ، وأخــذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه دخــل أرض مقــدم الروم وفتــح البلاد ونهبها وأقام بها وأحــوج ملك الروم الى أن أطــاعه وأخــذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه ، وأخذ منه خمســين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارا فضــة ، وثياب أطلس بمبلغ عظيم ، واغتصب المراكب ، وعدى بها الى هذا الجانب وصــحبته الرهــائن

إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، ورد الرهائن وبقي سائرا ثلاثة أيام وتركمان الأوج (٣٠) يلقونه بالأغنام والبقر والخيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر ، وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين ، وهجم على قونية بالسيف ، وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الأمان ، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل ، وقبل منه ، وقبل وصوله الى هذه الديار نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد يجتاز هذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم (٣١) وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه ، وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير ، وأعادوا عليه الجواب عرفوه الأحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهار وأكل خبزا ، ونام وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك ، وخرج ، وكان أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات ، أما ابن لاون فإنه كان سائرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا لجرى ، هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه في الحال ، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك ، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه هرب رسل ابن لاون ، فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال أن أبي كان شيخا كبيرا وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا بدات قصد

دياره ، واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة ، وبالجملة فهو في عدد كثير .

ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفا (٣٢) ، وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أجناس متفاوتة وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم ، وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموا ما حل ، ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء ، والذل والتعب في حال عظيم .

طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى ، هذا كتاب الكاغيكوس ، ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسمه بركري كوربن باسيل .

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد في طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد ابن لاون ، وقربه إلى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته ، وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر بعضه يسير إلى البلاد

المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور ، وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقي الدين ، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما ، ثم مجد الدين صاحب بعلبك ، ثم صاحب شيزر سابق الدين ، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ، ثم عسكر حماه ، وسار ولده الملك الأفضل مع مرض عرض له ، ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضا ، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب لابانة الطريق وكشفا لأخباره ، وحفظا لما يليه من البلاد ، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدبير أمر العدو المجتاز ، وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع من جمادى من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة .

ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فإن معظم من سار منها ، فأمر رحمه الله الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ، ومرض بعده الملك الظافر ، وشفي ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن المرض كان سليما بحمد الله ، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ، وكان مقرونا بموتان عظيم ، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدو .

ذكر تمام خبر ملك الألمان

وذلك أن ولده الذي قام مقامه مرض مرضا عظيما ، أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داويا ، وجهز عسكره نحو إنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كند عظيم عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ

منهم مئتي رجل قهرا ونهبا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات ، ولما اتصل هذا الخبر بالذواب في البلاد الشامية ، أنفذوا إليهم عسكرا يكشف أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كاغيكوس بين يدي السلطان ، وهو يذكر خبرهم ، ويقول : هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة ، وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة ، قال : ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولارمحا إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم اياما فقل زادنا واحطابنا ، وأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب ، وأما الكند الذي وصل إلى أنطاكية في مقدمة العسكر ، فإنه مات ، وذكر أن ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى أنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه ، وان البرنس صاحب أنطاكية لما أحس منهم بذلك ارسل الى ملك الألمان التقطه إلى أنطاكية طمعا في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر .

ذكر الوقعة العادلية

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت ، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ،

وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار وامتــدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانبثوا في الأرض ، وكانوا عددا عظيما ، واســتخفوا طــرف الميمنة ، وكان فيها مخيم الملك العادل ، فلما بصر الناس بهــم قــد خرجوا في تعبية القتال ، صاح صائحهم ، وخــرجوا مــن خيامهــم كأســـــود مـــــن آجــــامها ، وركب الســـــلطان ، ونادى مناديه : ياللاسلام ، وركبــت الجيوش وطلبــت الأطــلاب ، وكان رحمة الله عليه ، أول راكب ، ولقد رأيته رحمــه الله قــد ركب مــن خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهــو كالفاقدة ولدها ، الثــاكلة واحــدها ، ثــم ضرب الكوس واجـــابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الافرنج فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتــى وصــلوا الى خيمة الملك العادل ، ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا الى خيمة الخــاص ، وأخذوا من شراب خاناتها شيئا .

وأما الملك العادل فانه لما علم بــذلك ركب وخــرج مــن خيمتــه ، واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي ، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ، ووقف وقوف مخادع حتــى يوغل بهــم طمعهم في الخيم ، ويشتغلوا في النهب وكان كما ظــن فإنهــم عاثــت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والمطاعم ، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين ، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصــل الأمــر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمــة الأسود على فريستها ، وأمكنهم الله منهم ، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرؤوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس .

ولما بصر السلطان باصطلاء الحــرب قــد ارتفــع ممــايلي خيام

أخيه ، ثارت في قلبه نار الاشفاق ، وحركت الحمية إخوته ، وأنهضت الرغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته ، وصاح صائحه في الناس : ياللاسلام وإبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه ، فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، ووقف هو رحمه الله في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضا ، فتواصلت العساكر ، واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم (صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٣٢) وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم ، أولهم في الخيم الاسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ، وصرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر منهم حتى شبعت ، وأظهر الله كلمته ، وحقق لعبده نصرته ، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخا وربما زاد على ذلك ، ولم ينج من القوم الا النادر ، ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت في أن اعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان ، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير ، فإن السلطان كان أمر الناس أن لايستبقوا أحدا ، هذا كله في الميمنة ، وبعض القلب ، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الأمر ، وقضى القضاء على العدو ما بين الظهر والعصر ، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل ، ثم إنه – رحمة الله عليه – أمر الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الربح ، حيث قتل من العدو ، ما قتل من هذا الخلق العظيم ، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين .

ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الوقعة ، فإنهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالي السور ، خرجوا إلى مخيم العدو المخذول من البلد ، وجرت بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصرة للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من الذسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام ، و وصل كتاب من المدينة يخبر بذلك ، (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٣٣) ، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف ، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو ، ولقد لقيت إنسانا جنديا عاقلا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له : كم عددت ؟ فقال لي : هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا ، وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقي ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام .

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادى المذكور ، ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ، ونهض العسكر الاسلامي من حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، ولم ينج منهم إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربت البشائر ، ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة ، وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحراني ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم ، ولم يزل عدو الله في حينه مكسور الجناح من الجانبين ، حتى وصلهم كند يقال له كند هري .

ذكر وصول الكند هري

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه من الأموال والذخائر والميرة والأسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوي بوصوله عزمهم واشتد أزرهم ، وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستامنين والجواسيس ، فجمع السلطان الأمراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه ، فيمكن الله منهم ، ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله في قلبه ، فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأخرى ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو .

هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده ، وما قد عراهم من الموت والمرض ، وأنهم قد اجتمعوا بأنطاكية ، وأنهم قد بقوا رجالة ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ، ومن يخرج منهم .

ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه ، بعد تقرير القواعد وإقامة قاذون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول والقى الخطبة ولقى احتراما عظيما

وإكراما زائدا ، وكان قد أنفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء ، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقي الخطيب المنبر ، واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة ، ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان عنه ، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكره والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل الى ملك قسطنطينية خبر وفاته ، فانفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك ، وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ، ووصفه أنه كان كتابا مدرجا عرضا ، وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وضع فيها الختم ، والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع ، على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر دينارا ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته :

من إيساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله ، المتوج من الله المنصور العالي أبدا ، أففقوس المدبر من الله القاهر الذي لايغلب ، ضابط الروم بذاته أنكلوس ، الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين ، فهذا : صورة ماكتب عليه من الترجمة باطنا وظاهرا ، وأما مافسر من الكتاب فهذا : المحبة والمودة ، قد وصل حظ نسبتك الذي انفذت إلى ملكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي ، وحزنا عليه حيث أنه توفي في بلد غريب وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي وأمره أن يتحدث به مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولابد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسولي المتوفي والقماش الذي خلفه ويوجد بعد موته نعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمع من نسبتك أخبارا ردية ، وأنه قد سافر في بلادي الألمان ، ولاعجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا

أكثر مما أوذي فلاحوا بلادك ، وقد خسروا كثيرا مــن المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفـوا وبـالشدة قـد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث إنهم لايصـلون إلى بلادك ، وإن وصلوا ، كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة ، لايقـدرون يدفعون جنسهم ولايضرون نسبتك ، وبعد ذلك كيف نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت لملكي شيئا من المقاصد والمهمات ؟

ماربح ملكي من محبتك إلا عداوة الأفرنج وجنسهم ، ولابد لنسـبتك كما قد كتبت لملكي في كتابك الذي نفذت إلينا من إنفاذ رسـول حتـى يعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم مــن الحـديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولاتحمل على قلبـك مــن مجـيء الأعداء الذين قـد سمعت بهم ، فإن ادبارهم على قدر نيتهم وآرائهم ، وكتـب في أيام سنة الف وواحد وخمسمائة .

فوقف ــ رحمة الله عليه ــ وكرم الرسول ، وأحسن مثـواه ، وكان شيخا حسـن الخلق مهيبـا ، عارفـا بـالعربية والرومية والأفرنجية .

ثم أن الأفرنج اشتدوا في حصار البلد وضايقوه ، لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهري ، فإنه وصل على مـا ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلتهم نجدة أخـرى في البحـر قـويت بهـا قلوبهم ، ونازلوا البلد بالقتال

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسـبب تـوالي النجـدات عليهم اشتد طمعهم في البلد ، وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميهـا ليلا ولانهـارا ، وذلك في أثناء رجب .

ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو ، وتعلق طمعهم بهم ، وحركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ : أمـا والي البلد وحارسه فالأمير الكبير بهـاء الدين قـراقوش ، وأمـا مقـدم العسكر فالأمير الكبير الاسفهسلار حسـام الدين أبـو الهيجـاء ، وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته ، ومضاء في عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهـم على غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك وفتحت الأبواب وخرجوا دفعة واحـدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسـيف فيهـم حـاكم عادل ، وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل ، وهجم الاسلام على الكفـر في منازله ، وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون لخيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها وحراستها ، وحفـظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقذوفة ، وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة ، فلم تكن إلا ساعة حتى اضـطرمت فيهـا النيران ، وتحرقت منها بيدها مـا شيده الأعداء في المدة الطـويلة في أقرب آن ، وقتل من العدو سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة الأسرى رجل مذكور منهم ظفر به واحد مـن آحـاد الناس ولم يعلم بمكانته ، ولما انفصل الحرب سأل الافرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سـؤالهم أنه رجـل كبير فيهـم ، وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصـانعة أو على وجـه مـن الوجوه فسارع وقتله ، وبذل الافرنج فيه أمـوالا كثيرة ، ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رميت اليهم جثته ، فضربـوا بنفوسهم الأرض ، وحثوا على رؤوسهم التـراب ، ووقعـت عليهـم بسبب ذلك خمدة عظيمة ، وكتموا أمـره ، ولم يظهـروا مـن كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العـرب مـن كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون الى ليلة نصف شعبان ، وكان الكندهري قد انفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس والمستامنون الفا وخمسمائة دينار ، وأعده ليقـدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه في ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد لم يقدم بعد إليه ، ولما كانت الليلة المباركة المذكورة خـرج الزراقـون والمقـاتلة تحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الليل

حتى أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرموا فيه النار فاحترق من ساعته ، ووقع الصياح من الطائفتين ، وذهل العدو فإنه كان بعيدا من البلد ، وخافوا أن يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب ، وكان نصرا من عند الله ، وأحرق بلهيبه منجنيقا لطيفا إلى جانبه .

ذكر الحيلة في إدخال بطسه بيروت إلى البلد

وذلك أنه ـ رحمة الله عليه ـ كان قد أعد ببيروت بطسه ، وعمرها ، وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ، ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة .

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن تدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزي الأفرنج ، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم : نراكم قاصدين البلد ، واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟

فقالوا : لم نأخذ البلد بعد ، فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائنا فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها ينذرونها ، فاشتدت البطسة الاسلامية في المسير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيما ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب .

ذكر قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ، أن عواما مسلما يقال له عيسى ، وصل الى البلد بالكتب والذفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام في البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيرا عرفنا بوصوله ، فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه ، ولما كان بعد أيام بعد بينا الناس على طرف البحر في البلد إذا هو قذف شيئا غريقا ، فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب ، وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته ، وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضا .

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة ، حاكمة على السور ، وأن حجارتها تواترت حتى أثرت في السور أثرا بينا ، وخيف من غائلاتها ، فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم ، فأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، واجتهد العدو في إطفائهما فلم يقدر على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته ، واشتد ناراهما بحيث لم يقدر احد أن يقرب من مكانهما ليحتال في أطفائهما ، وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين ، وساءت عاقبة الكافرين .

ذكر تمام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها المركيس

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قـدمه في أنطـاكية ـ يسر الله فتحها ـ أخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره ، فأخذ قلعتها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزائنه ، وسـار عنها في الخامس والعشرين من رجب متوجها نحـو عكا في جيوشـه وجموعه على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس ، وكان قـد سـار إليه من معسكر الأفرنج يلتقيه المركيس صاحب صـور ، وكان مـن أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع مـن وراء البحر

وذلك أنه صور القدس في ورقة ، وصور فيه صورة القمامة التـي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيه قبة قبر المسيح الذي دفـن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هـو أصـل حجهـم ، وهـو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهـم ، وصـور على القبر فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقـد وطـىء قبـر المسيح ، وبال الفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحـر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونهـا ورؤوسـهم مـكشوفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهـم فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلق لايحصى عددهـم إلا الله ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقيهـم المركيس لكونه أصـلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصـل بـه قـوى قلبـه ونصره بالطرق ، وسلك به الساحل خوفا مـن أنه إذا أتـى على بـلاد حلب وحماة ثار بهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمـة الحـق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فإن الملك المظفر قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا ، وهجم عليهم هجوما عظيما أخذ فيه من أطراف عسـاكره ، وكان قـد لحقهـم بـأوائل

عسكره ، ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن (لكل أجل كتاب) (٣٤) واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب ، فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف ، بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر ، فانظرإلى صنع الله مع أعدائه ، ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت ، وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع ، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا واسرا حتى أتوا طرابلس ، ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لايرده ذلك عن حراسة عكا ، والحماية لها ، ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات عليها ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضا أمره الى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلا ببره من يفد إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء ، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه وأجد منه من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري ، وأتيقن معه نصرة الاسلام وأهله .

ذكر وصول البطس من مصر

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الأسطول والحاجب لؤلؤ يذكران السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي الى ليلة النصف من شعبان لاغير (فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) (٣٥) لخاص ولا لعام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، فتضعف به قلوب المسلمين ، وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت في

البحر تتوخى الذوتية بها الريح ، حتى ساروا بالريح التي تحملها الى نحو عكا ، ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد فني الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى في القضاء بتسليمها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ، ويدعو ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره ، ما في قلبه ، والله يثبته ، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها ، والريح يشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا سالمين الى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل عكا ، تلقي الأمطار عن جدب ، وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها عصر يوم الاثنين رابع عشر شعبان المذكور ، من السنة المذكورة .

ذكر محاصرة برج الذبان

ما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر ، على باب ميناء عكا ، يحرس به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء .

من البطس ، فتقطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صواري البطس برجا وملأوه حطبا على أنهم يسيرون البطس ، فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري والصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البطسه وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبوا بطسه ثانية وملأوها حطبا ووقود على

أنهم يدفعون بها الى أن تدخل بين البطس الاسلامية ، ثم يلهبوها فتحرق البطس الاسلامية ، ويهلك ما فيها من الميرة ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمذوا وقدموا البطس نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعدا لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بها من على برج الذبان ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد واشتعلت البطسة التي كان بها بأسرها واجتهدوا في إطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة إلا من شاء الله ، واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فأخذوها اليهم ، وأما البطسة التي كانت فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع ، واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما ، فانقلبت وهلك جميع من كان بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله ، وأندر العجائب في نصرة دين الله ، وكان يوما مشهودا

ذكر وصول الألمان الى عسكرهم المخذول

عدنا الى حديث ملك الألمان ، وذلك أنه أقام بطرابلس حتى استجم عسكره ، وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم ، وقد حموا من ذلك لأن المركيس صاحب صور هو رب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالعسكر وهو الذي يرجع اليه في الأمور فعلم أنه مع قدوم الألماني لا يبقى له حكم ، ولما كان العشر الآخر من شعبان أزمع رأيه على المسير في البحر لعلمه أنه إن لم يركب البحر نكب ، وأخذت عليه الطريق ، والمضايق ، فأعدوا المراكب وأنفذت إليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم ، وساروا يريدون العسكر

فلم تمض إلا ساعة من النهار حتي قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة ، وعاد الباقون يرصدون هواء طيبا فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح ، وصاروا حتى أتوا صور ، فأقام المركيس والألماني بها وأنفذوا بقية العساكر الى المعسكر النازل في عكا ، وأقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان ، وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، ولقد كان لقدومه وقع عظيم من الطائفتين ، وأقام أياما ، وأراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه أن يضرب مصاف مع المسلمين ، فخوفوه من الاقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال لابد من الخروج على اليزك ليذوق قتال القوم ، ويعرف مراسهم ، ويتبصر بأمرهم فليس الخبر كالعيان ، فخرج على اليزك الاسلامي ، واتبعه معظم الأفرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوطأة التي بين تلهم وتل العياضية ، وعلى تل العياضية خيم اليزك ، وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم وقاتلوهم واذاقوهم طعم الموت ، وعرف السلطان ذلك ، فركب من خيمه بجحفلة وسار حتى أتى تل كيسان ، فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم ، عاد ناكصا على عقبه ، وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم ، وهم هاربون حتى وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين اثنان ، وجرح جماعة كثيرة ، وكانت الكسرة على اعداء الله ، ولما عرف ملك الألمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر ، وهو جزؤ من كل رأى أن يرجع الى قتال البلد ، ويشتغل بمضايقته ، فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه ، فأحدثوا آلة عظيمة

تسمى دبابة يدخل تحتها من المقــاتلة خلق عظيم ملبســة بصــفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها من المقــاتلة حتى ينطح بها السور ، ولهــا رأس عظيم بــرقبة شــــديدة مــــن حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجــال يسحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التـي يحــرث بها ، ورأس البرج مدور وهــذا يهــدم بثقله وتلك تهــدم بحـــدتها وثقلها ، وهي تسمى سنورا ، ومــن الســتائر والســلالم الكبــار الهائلة ،وأعدوا في البحر بطسة هــائلة وضـــعوا فيهــا بـــرجا بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه ، تمشي عليه المقــاتلة ، وعزمـــوا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به .

ذكر حريق برج الكبش وغيره من آلات

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت ، شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله وقويت قلوبهم على المصــابرة ، ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ، وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام .

ذكر قدوم الملك الظاهر

فقدم الملك الظاهر ولده -صاحب حلب المحروسة - بجحفله وعسكره ، وهو من كبار أولاده ومقدميهم ومهذبيهم ، وهو يعتمــد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثــابرة على خدمة والده ومعاجل في أمره ، ثم كر عاد حتى لقي عسكره ، وقدم

معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلابه ويهذبها ، ففرح بمقدمه وسر به سرورا عظيما ، رضاء عنه بما رتب وجمع من العساكر والجحافل ، وقدم في ذلك اليوم سابق الدين - صاحب شيزر - وعز الدين بن المقدم ، ومجد الدين - صاحب بعلبك - وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زي وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة في ذلك اليوم .

وكان السلطان الناث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب في ذلك اليوم ، وكان عيدا من وجوه متعددة ، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذووا الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين حتى نشبت مخاليب أطماعهم في البلد ، وسحبوا الاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروخ وأحجار المنجنيق وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأعطى ظهره الهزيمة وأخذوا مشتتين هاربين ، على أعقابهم ناكصين ، يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيه السيف وعجل الله بأرواحهم الى النار .

ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقا شنيعا ، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر للقوي الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها الى السنور فاحترق ، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ألقى

الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام ، وبلغنا من اليزك أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربع رطل ، ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته ، وشكله على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل إنه ينطح به فيهدم ما يلاقيه ، وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ، ووقع على العدو خذلان عظيم ، ورفعوا ما سلم من آلاتهم ، وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستبشر السلطان بغرة ولده واستبرك بها حيث وجد النصر مقرونا بقدومه مرة أخرى ، وثانية بعد أولى

ولما كان يوم الأربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو ، وضربوا البطسة المعدة لأخذ برج الذبان بقوارير نفط فاحترقت ، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعا عظيما ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتكبير وكف الله شرها (ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (٣٦) وحزن الألمان كذلك حزنا شديدا ، وغشيتهم كآبة عظيمة ، ووقع عليهم خذلان عميم .

ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه ، قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه أن البرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية التي تليه لشن الغارات عليها ، فبصرت به العساكر ، وذواب الملك الظاهر ، فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم ، فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا ، وأسر خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيحا ، حتى اندفعوا وسار الى بلده .

وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة ، قاصدين نحو العدو

فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد ، فأخذوه فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحيا لذلك وجابرا لها ، ولم تزل الأخبار بعد تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين أن العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة ، والتاث مزاج السلطان بحمى صفراوية ، فاقتضى الحال تأخر العسكر الى جبل شفرعم ، وكان انتقاله تاسع عشر رمضان ، فنزل السلطان على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل ، وفي ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضا شديد بحمتين مختلفتي الأوقات ، واستأذن في الرواح ، فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال الى الناصرة ، فأذن له في ذلك اليوم وأقام بالناصرة أياما عديدة يمرض نفسه فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال وضم اليه بلد شهر زور أيضا واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه ، جابرا لخلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين .

ذكر قصة معز الدين

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي ، وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر للجهاد ، وقد ذكرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسامة والقلق بحيث ترددت رسله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور ، والسلطان يعتذر اليه بأن رسل العدو متكررة في معنى

الصلح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألوا جهدا في طلب الدستور الى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، وحضر سحر ذلك اليوم في باب الخيمة السلطانية ، فاستأذن في الدخول ، فاعتذر اليه بالتياث كان قد عرى مزاج السلطان ، فلم يقبل العذر ، وكرر الاستئذان ، فأذن له في الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شفاها ، فذكر له السلطان العذر بذلك ، وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها ، فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا القدور فيها الطعام ، وقلعوا الخيم وتبعوه ، فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها: « إنك أنت قصدت الانتماء إلي ابتداء ، وراجعتني في ذلك مرارا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك ، فقبلتك وآويتك ونصرتك ، وبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فأنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته ، واتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدة المديدة ، وقلقت هذا القلق فانظر لنفسك وابصر من تنتمي اليه غيري ، واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك التفات » وسلم الكتاب الى نجاب ، فلحقه قريبا من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه ، وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعي الى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين ، على ما سبق شرحه ، فلقيه في الطريق في موضع يسمي عقبة فيق ، فرآه محثا ولم ير عليه امارات حسنة ، وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له ، ففهم الملك المظفر انفصاله من غيردستورمن السلطان وأنه على خلاف اختياره ، فقال له المصلحة لك أن ترجع الى الخدمة وتلازم الى أن يأذن لك ، وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الأمر ، فقال : ما يمكني الرجوع ، فقال : ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا ، فأصر على الرواح فخشي عليه ، وقال : ترجع من غير اختيارك ، وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الأمور ليس في عينه من أحد شيء ، فلما علم أنه

قابضه إن لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر ، فوجدناه معه فدخلا به على السلطان وسألاه الصفح عنه ، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه ، فأذن له فأقام في جواره الى حين ذهابه .

ذكر طلب عماد الدين الدستور

وذلك أن عماد الدين زنكي عم المذكور ألح في طلب الدستور ، وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسلطان يعتذر اليه بأن الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح ، وربما انتظم فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأي مشترك ، وأستأذن في أن يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل ، وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى ، والسلطان يكرر الاعتذار ، ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك ، وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف ، وعند السلطان من إمساكه الى أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد ، وآل الأمر الى ان يكتب عماد الدين بخطه ، ويطلب فيه الأذن في الرواح وتلين فيها وتخشن ، فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة : من ضيع مثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ، فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية .

ذكر خروج العدو الى رأس الماء

وتواترت الأخبار بضعف العدو ، ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين دينار صورية ، ولا يزدهم ذلك الا صبرا وإصرارا وعنادا ، ولما

ضاق بهم الأمر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض السلطان ، فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين أزوادا وخياما الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام ، فأخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك ان يتراجع من بين أيديهم الى تل كيسان ، وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان قد أمر الثقل في أول الليل أن يسيروا الى الناصرة والقيمون ، فرحل الثقل ، وبقي الناس ، وكنت في جملة من أقام في خدمته ، وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال ، وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا ، وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة ، وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر ، فكان في الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق ، وولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وولده الظافر صاحب بصرى ، وولد عز الدين صاحب الموصل ، والطواشي قايماز النجمي ، وعز الدين جرديك النوري ، وحسام الدين بشاره صاحب بانياس ، وبدر الدين دلدرم ، وجمع كثير من الأمراء ، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، وابن اخيه معز الدين صاحب الجزيرة ، وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه ، وكان عماد الدين زنكي غائبا مع الثقل لمرض كان ألم به ، وبقي عسكره ، وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب ، وجميع المهرانية والهكارية ، وخشترين وغيرهم من الأمراء الأكراد ، وفي القلب الحلقة السلطانية ، وتقدم السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، وأن يدوروا حول العسكر واليزك معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التل ، عساهم أن يجدوا غرة من العدو ، ولم يزل عدو الله يسير ، والناس من جميع

جوانيه ، وهو سائر على شاطىء النهر من الجانب الشرقي حتي رأس العين ، وداروا حوله ، حتى عبروا الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلاقف منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه الى النهر ، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضا جماعة ، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه ، وهم سائرون حتي لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة ، ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان الى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم بقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلا ، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال ، وسار هو رحمه الله ونحن في خدمته الى رأس جبل الخروبة ، فنزل في خيمة لطيفة ، والناس حوله في خيم لطاف بمرأى من العدو ، واخبار العدو تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح ، ولما كان الصبح في يوم الأربعاء ثالث عشر شوال ، وصل من أخبر أنهم تحركوا الركوب فركب هو ورتب الأطلاب ، وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد أحوالهم ، وكان رحمه الله ملتاث المزاج ضعيف القوى ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الى أن تضاحى النهار ، وسار العدو إلى شاطىء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب فإنه كان يطير إليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم ، بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلا ، والكوسات تخفق والبوقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير تعلو ، هذا والسلطان يمد الجاليش بالأطلاب ، والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ، ونحن نشاهد الأحوال ، وعلم العدو مرتفع

على عجلة هو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال ، وهم يذبون عن العلم ، وهو عال جدا كالمنارة خرقته بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق ، وقد ألجمهم العطش ، وأخذ منهم التعب ، وأثخنتهم الجراح ، واشتد الأمر بهم من شدة الحر ، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحاقة ، وهم لايظهرون من رجالتهم ولا يحملون وكان الفعل معظمه للحقلة في ذلك اليوم ، فإنهم أذاقوهم طعم الموت ، وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فإنه قام في تلك الحرب العظيمة اعظم مقام ، وجرح جراحات متعددة ، وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ، ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق ، وقطعوا الجسر ، وأخربوه خوفا من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطان الى تل الخروبة وأقام عليهم يزكا يحرسهم ، وأخبارهم تتواتر حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب ، ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل ، فركب السلطان ورتب الأطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى خيمه ، وكان ممن خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخاف ابن ملك الألمان في الخيم مع جمع كثير منهم .

ولما دخل العدو الى خيمهم كان لهم فيها أطلاب ، مستريحة ، فخرجت الى اليزك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل من

العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره ، وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع إليهم جثته ، وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه ، وأعاد الثقل إلى مكانه وعاد كل قوم إلى منزلتهم ، وعاد عماد الدين ، وقد أقلعت حماه ، وبقي التياث مزاج السلطان ، وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيته وهو يبكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ، ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمكافحة الأمر ، ومخالطة الحرب ، ولقد سمعت منه وقائل يقول : إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين ، ينشد متمثلا .

أقتلاني ومالكا

واقتلا مالكا معي

يريد بذلك أنني قد رضيت أن أتلف إذا تلف أعداء الله ، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

ذكر وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى السلطان أن يضع للعدو كمينا ، وقوي عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا من كماة العساكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا في الليل ويكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو ، وعنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة إليه ، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير ، وأن يقصدوه في خيمه ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ، ففعلوا

ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه ، ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، وساروا حتى اتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخى لهم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا إليهم شاكي السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل ، وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتلون حتى اتوا الكمين فثارت عند وصولهم الأبطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها ، فثبتوا وصبروا بالسيف حتى أفنوا منهم جمعا عظيما واستسلم الباقون للأسر ، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم ، وجاء البشير الى العسكر الاسلامي ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان ، فلقينا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو يعتبر الأسرى ويتصفح أحوالهم ، وكان ممن أسر مقدم عسكر الأفرنسيس ، فإنه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله ، وأسر خازن الملك أيضا ، وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة الى مخيمه فرحا مسرورا ، وأحضر الأسرى عنده ، وأمر مناديا ينادي من أسر أسيرا فليحضره ، فأحضر الناس أسراهم ، وكنت حاضرا ذلك المجلس ، ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الأفرنسيس فروة خاص ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديدا وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى دمشق فحملوا مكرمين ، وأذن لهم في أن يراسلوا صاحبهم وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك ، وساروا الى دمشق .

ذكر عود العساكر عن الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن العدو أن يضرب مصاف وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها ، أذن السلطان للعساكر في العود الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة ، وتجم خيولهم الى وقت العمل ، وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور ، وكان مسيره خامس عشري شوال ، وسار عقبيه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفا مكرما معه التحف والطرائف ، وتأخر الملك المظفر الى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر إيضا الملك الظاهر ، وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك المظفر في ثالث صفر ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفندار فتلقاه وأكرم مثواه ، ووضع له طعاما يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور ، فوقع بإعادتها الى يده واجراء الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة ، وخلع عليه وشرفه ، وسار فرحا مسرورا شاكرا لأياديه

ذكر ارتحال السلطان لادخال البدل الى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ورفع ما كان له من الشواني في البحر الى البر اشتغل السلطان في إدخال البدل الى عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدد إليها وإخراج من كان بها من

الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء الأمير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل من دخل أن يصحب ميرة لسنة ، وانتقل الملك العادل بعسكره الى حيفا على شاطيء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب فتدخل الى البلد ، وإذا خرجت تخرج اليه ، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يعترضها ، وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر وذفقات كانت وصلت من مصر محملة ، وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة ، وكان دخولها ثاني ذي الحجة من السنة الخالية ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء ، فانقلب كل من البلد من المقاتلة لتلقي البطس ، ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الى البلد في جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها ، قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم وأحرج السلطان بذلك حرجا عظيما ، فاستخلف ذلك في سبيل الله تعالى (وما عند الله خير وأبقى)(٣٨) وكان ذلك أول علامات أخذ البلد والظفر به .

ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر أن وقع من السور قطعة عظيمة فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، وهي العلامة الثانية ، وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف هياجا عظيما وجاؤوا

الى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب ، فتحـايا الناس في البلد وثارت هممهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيمـا وقـاتلوهـم قتالا شديدا حتى ضرسوا وأيسـوا مـن أن ينالوا خيرا ، فـوقفوا كالاسد في موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا جميع مـن في البلد مـن البنائيين والصناع ، ووضعوهـم في ذلك الموضع ، وحموهـم بالنشاب والجروخ والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن مما كان وأقوى وأتقن ، والحمد لله .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم ، اخرجهم الجـوع إلينا وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العـدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين ، فـأذن لهـم في ذلك وأعطـاهـم بركوسا ، وهـو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو ،وهي قاصدة الى عسكرهـم وبضـائعهم معـظمها فضـة مصوغة وغير مصوغة ، فوقع عليهـا البـركوس وقـاتلوهـم حتـى أخذوهـم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهـم ، وأحضروهـم بين يدي السلطان ، وذلك في ثـالث عشر ذي الحجـة مـن السـنة المذكورة ، ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة مـن فضـة ، فـأعطاهـم السـلطان الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفـرح المسـلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان

وذلك أن العدو لما دخـل الشـتاء عليهـم ، وتـواترت الأنداء ، واختلفت الأهواء وخم المرج وخما عظيمـا ، وقـع فيهـم

بسبب ذلك موتان عظيم ، وانضم الى ذلك الغلاء الزائد ، وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمائتان على ما قيل وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الألمان مرضا عظيما ، وعرض له مع ذلك مرض الجوف ، فهلك به في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين ، وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما ، وأشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا وأشعلت فيها النارا ن والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نار ، وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده ، وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ، ومرض الكندهري وأشرف على الهلاك ، وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا ، وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع ما فيه ، وكان من جملة ما فيه ماوطة مكللة باللؤلؤ وهي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته وأخذ أيضا .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين ، هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الافرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له إن افرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قد قرر مع عسكره قصدهم ، فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومئة من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد الى البلد ، ولم يفقد من أصحابه أحد ، ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين .

وفي ليلة هـذا اليوم ألقـت الريح مـركبا للعـدو على النيب فـكسرته ، وكان فيه خلق عظيم فبصر بهـم أصـحابنا ، فـوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرت ، وقـد عرض منهـم على السلطان رحمة الله عليه ، خمسة عشر نفرا ، وليلة هلال ربيع الأول من هذه السنة خـرج أصـحابنا مـن البلد ، وهـجمـوا على العدو ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعـا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ماقيل .

ذكر وقائع عدة في هذه السنة

وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السـلطانية ، وخـرج مـن العدو اليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قتل فيها مـن العدو جماعة وقتل منهم رجـل كبير على مـاقيل ، ولم يفقـد مـن المسلمين الا خادم للسلطان يسمي قراقوش ، وكان شجاعا عظيمـا له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم ، وفي تاسع الشهر بلغ السلطان إن العدو يخرج منه طائفة يتفسحون لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخـاه الملك العـادل ، وفي خـدمته خلق عظيم ، مـن العساكر الاسلامية ، وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به ، فسار هـو وجمـع كان مـن كبـراء أهله واصحابه ، فكمن وراء تل العياضية ، وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفـر تقـي الدين ، وابنه ناصر الدين محمـد ، والملك الأفضل ولده ، ومعـه صـغار أولاده الملك الاشرف محمـد ، والملك المعظم تورانشاه والملك الصـالح اسـماعيل ، وكان مـن المعممين القاضي الفاضل والديوان ، وكنت في الصـحبة في ذلك اليوم ، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشـوا العـدو ، فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكان قـد وشي اليهـم بجلية الأمـر إلا أن ذلك اليوم لم يذفك إلا بنوع نصر ، فإنه وصل في أثنائه خمسة وأربعـون نفرا من الافـرنج ، كانوا قـد أخـذوا في بيروت وسـيروا الى السلطان ، ووصلوا في ذلك اليوم الى ذلك المكان ، ولقد شاهدت منه

رقة قلب لم ير أعظم منها وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير ، فقال للترجمان:قل له : ما الذي حملك على المجيء ، وأنت في هذا السن ، وكم من ههنا الى بلادك ؟ فقال : بلادي بيني وبينها عدة أشهر ، وأما مجيئي فإنما كان للحج الى القمامة ، فرق له السلطان ، ومن عليه ، وأطلقه وأعاده راكبا على فرس الى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يفعله فسألته عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم بما طلبوه ، فقال : لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر ولا يخفي ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين ـ رأف الله به ورحمه ـ ولما أيس من خروج العدو عاد الى المخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحا مسرورا .

ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر ، وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر الى الجهاد من الطائفتين ، فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر ، من أمراء الملك الظاهر ، وكان شيخا كبيرا مذكورا له وقائع ، ذا رأي حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قدم صحبة ، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه وهو صاحب بعلبك ، وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب ، وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم الملك الفرنسيس ، وكان عظيما عندهم ، مقدما محترما من كبار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطس تحمله تحمل ميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

نادرة وبشارة

وكان صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس ما رأيت بازا أحسن منه ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان ،وقد كان لقدومه روعة عظيمة وا ستبشار عظيم بالظفر به ، فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الأفرنج فيه ألف دينار ، فلم يجابوا ، وقدم بعد ذلك كند فرند ، وكان مقدما عظيما عندهم مذكورا ، فذكروا أنه حاصر حماه وحارم في عام الرملة ، ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن كان جماعة من المتسأمنين قد أعطوا براكيس ليكسبوا عليها في البحر من العدو فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وانهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من في البيعة من الرجال والنساء وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحملوهم وألقوهم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية ، وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة ، وأموال عظيمة فتقسموها فوصل الى كل واحد على ماقيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة ، وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر ، وهجم أصحابنا على غنم العدو ، فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا فركب في طلبها الراجل والفارس فلم يظفروا منها بشيء .

ذكر ملك الانكتار

وهذا ملك الانكتار شديد الباس بينهم عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون

الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة ، وكان من خبره أنه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما وقاتلهم قتالا شديدا ، فأنفذ الانكتار الى عكا يستنجد منهم الجماعة ، ليعينوه على مقصوده ، فأنفذ إليه الملك كي أخاه ومعه مائة وستون فارسا ليعينوه على مقصوده ، وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين ، وفي سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة ، فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فارسا ، وكان ذلك فتحا عظيما استبشر به المسلمون ، وفي رابع جمادى الأولى زحف العدو الى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو وعنهم ، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو ومقاربته ، وأصبح على أهبة المسير الى العدو ، ورتب العساكر ، ثم أنفذ من كشف حال العدو ، وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الى خنادقهم ، وصعد جبلا يعرف بتل الفضول قريبا من العدو مشرفا على خيمهم ، وشاهد المنجنيقات ، ومايعمل منها وماهو بطال ، ثم عاد الى مخيمه وأنا في خدمته ، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة .

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان ، وعرضوه عليه ، وكان كل مايأخذونه

يعرضونه عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ماأخذوه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثه بالويل والثبور طول الليل ، وحتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا : انه رحيم القلب ، وقد أذنا لك بالخروج فاخرجي ، واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث إلى اليزك ، فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها فأخبروه ، فرق لها ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها ، فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم أنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاكرام ، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم شعر :

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من مذكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري ، وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ، ولما عاد السلطان الى مخيمه لم يلبث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد ، وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين .

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغ السلطان ان

الافرنج قد ضايقوا البلد ، وركبوا المناجيق ، فأمر الجاويش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد ، فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدو إلى خيمه وقد آيس من أمر البلد وعاد السلطان الى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل فيها من الشمس فنزل لها لصلاة الظهر ، والاستراحة ساعة ، وقوى اليزك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيم ، لأخذ جزء من الراحة ، وكنت في خدمته ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا الى الزحف لما احسوا بانصرافه عنهم ، أشد ما كانوا أولا ، فأمر من نبه الناس ، وأمر بالعود فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابا ، وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب ، وأقام هو وهناك على عزم المبيت ، وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء ، وعدت الى الخيم ، وبات هو وجميع العسكر على تعبية القتال طول الليل ، وأصر طائفة منهم بمضايقة العدو ، ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر الشهر إلى تل العياضية قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي لكن جرائد ، مع بقاء الثقل على الخروبة ، ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب المبرح المتواتر الذي لايفتر شغلا لهم عن الزحف على البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنفسه ـ رحمه الله ـ يدور بين الأطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد ، ولما رأى العدو تلك المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم في خيمهم ، فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم ، ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة إذا رجعوا الى الزحف ، كل ذلك والعدو على إصراره في مضايقة البلد والزحف عليه .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الأمر الى أن كانوا يلقون فيه موتاهم ، وكانوا إذا جرح منهم أحد جراحة مؤلة مثخنة ألقوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد ، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساما ، قسم ينزلون في الخندق يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جلد ، وكانوا يصبرون (والله مع الصابرين) (٣٩) هذا والسلطان لايقطع الزحف عنهم والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا ، حتى يشغلهم عن البلد ، وصوبوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلا ونهارا ، حتى أثرت فيه الأثر البين ، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد هو في قتالهم ، وكبس خنادقهم والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال :إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا فأما نحن فليس لنا إليكم حاجة ولا شغل ، ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكتار .

ذكر وصول الانكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر ، قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص ، والاستيلاء عليها ، وكان لقدومه روعة عظيمة ، ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال

والسلاح والعدد ، واظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم ، ولقد كانت مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون أن يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٤٠) .

ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال المقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعيينها وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فأغرقها الانكتار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهوا ، فقاتلوها قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأغرقوا العدو شانيا كبيرا فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ، وأنهم لابد وأن يقتلوا قال والله لانقتل إلا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبوابا فامتلأت ماء ، فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدو منها بشيء ، وكان اسم المقدم المذكور يعقوب ، من رجال

حلب ، وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الى الشـواني مـن البحر ، وخلصوه مـن الغـرق ، وانفـذوه الى البلد ليخبـرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، والسلطان يتلقـى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله ، والصبر على بلائه و (الله لا يضيع أجـر المحسنين) (٤١) .

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو كان قد اصطنع دبـابة عظيمـة هـائلة ، أربـع طبقات : الطبقة الأولى مـن الخشـب ، والثـانية مـن الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة مـن النحـاس ، وكانت تعلو على السور ، وكان يركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسـة أذرع على ما يشاهد برأي العين ، وأخذ أهل البلد في تولية ضربهـا بالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعـالى حـرقها واشـتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحـو السـماء ، فـاشتدت الأصـوات بالتهليل والتكبير ورأى الناس فيها لما ظهرت لها تلـك النيران جبرا من ذلك الوهن ، ومحوا لذلك الأثر ، ونعمة بعد نقمة وإيناسـا بعـد يأس ، وكان ذلك في يوم غرق البطسة ، فوقع من المسـلمين مـوقعا عظيما ، وكان مسليا لحزنهم وكآبتهم .

ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، زحف العـدو على البلد زحفا عظيما وضايقوه مضـايقة شـنيعة ، وكان قـد اسـتقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم ، فضربوا بكوسهم

فأجابت كوس السلطان ، وركبت العساكر ، وضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتــــى هجــــم المســــلمون عليهـــــم في خيامهم ، فجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور ومــا فيهــا ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان ، وأنا حاضر ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ فتــراجعوا عن قتال البلد وشرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشي الناس مــن الحــر أمــر عظيم من الجانبين ، وتراجعت الطائفتان إلى خيامـــهم وقــد أخــذ منهم التعب والحر وانفض القتال في ذلك اليوم.

ولما كان يوم الاثنين الثــالث والعشرين دق كوس البلد فجـــاوبه كوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ، ولج العدى في مضــايقة البلد ظنا منه أن الناس لا يهجمـــون على خيمهـــم وأنهـــــــم يهابونها ، فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضا ونهبوا منها ، فتراجع العدو الى قتالهم ، ووقع الصياح فيهم فلحقوا مــن المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهــم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرح جمــاعة ، وقتــل جماعة من العدو ، وأعجب ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في هــذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل مــازندران يريد الغــزاة ، فــوصل والحرب قائمة فلقي السلطان ، فاستأذنه في الجهاد ، وحمــل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة ، ولما رأى العدو دخــول المســلمين الى خنادقهم ، وتــوغلهم الى داخـــل اســـوارهم ، داخلتهــــم الحمية ، وبعثتهم النخـــوة ، فـــركب فـــــارسهم صــــحبة راجلهم ، وخرجوا الى ظاهر أســوارهم ، وحملوا على المســلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحــركوا من أماكنهم ، والتحم القتال من الجــانبين ، واشــتد الضرب مــن الطائفتين ، وصــبر المســلمون صــبر الكرام ، ودخلوا في الحــرب بالتحام ، فلما رأى العدو ذلك الصــبر المعجــب ، والاقــدام المزعج أنفذوا رســـولا في غضـــون ذلك ، يســـتأذنون بـــــالرسول في الوصـــــول ، فـــــأذن له فـــــوصل الرســـــول أولا الى الملك

العادل ، فاستصحبه ووصل به إلى الخدمة السلطانية ، ومعه أيضا الملك الافضل فأدى الرسالة ، وكان حاصلها أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكر ولا ترو بأن قال : إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن بيننا ذلك الترجمان ، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى

ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد ، وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر ، وانتشب القتال بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين بدوي وكردي ، وقتل من العدو جماعة وأسروا واحدا بسلاحه وفرسه ، ومثل بين يدي السلطان ، ولم يزل القتال يعمل حتى طال الليل بين الطائفتين

ولما كان الأحد التاسع والعشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه ، وأسر المسلمون منهم واحدا فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوى من ملازمته قتالهم ليلا ونهارا ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكتار ، ثم مرض مرضا شديدا أشفى فيه على الهلاك ، وجرح الفرنسيس ولم يزدهم ذلك إلا إصرارا وعتوا .

وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان في الباطن ، كانا في خدمتها في صقليه ، وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات

ومر اخوها بالبلد اخذها وأصحابها معه إلى العسكر ولما وصل الخادمان الى العسكر ، وقارب المسلمين ، هربا إلى العسكر الاسلامي ، فقبلهما السلطان ، وأنعم عليهما إنعاما عظيما .

ذكر هرب المركيس الى صور

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى قوي استشعار المركيس أنه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صور للملك القديم الذي كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح ، ولما صح ذلك عنده هرب إلى صور ، فأنفذوا خلفه قسوسا ليردوه فلم يفعل ، وسار في البحر حتى أتى صور، وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فإنه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة .

ذكر وصول بقية عساكر الاسلام

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين يرنقش ، فلقيه السلطان واحترمه ، وكان دينا عاقلا محبا للغزو ، فأنزله السلطان في الميسرة بعد أن أكرمه وأنزله في خيمته ،وفرح بقدومه فرحا شديدا في ذلك الوقت ، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر ، كعلم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة كثيرة ، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل وعسكره ، فلقيه السلطان بالخروبة ونزلوا هناك الى بكرة اليوم الثاني من جمادى الآخرة ، وأصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، وعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان في خيمته ، وحمل له من التحف ، وقدم له من الطائف ما يليق بكرمه ، وأنزله في الميمنة ، وفي يوم الجمعة الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا ، واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الأفرنج شدته عن الزحف ، وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فإن

البلد كان قد ضعف ضعفا عظيما ، وضاق بهم الخناق ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا واللصوص يدخلون الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ، ويأخذون الرجال في غفلة بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظوه ، ويقولوا له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ، ويحملوه ويخرجوا به إلى العسكر ، وجرى ذلك مرارا ، وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها

ذكر وصول رسولهم الى السلطان

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان ، وانقطع الرسول ، وعاد معاودا في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل ، ثم هو يلقيه الى السلطان ، واستقر أنه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان ، فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لاتظن تأخري بسبب ما قيل فإن زمام قيادي مفوض الي ، وأنا أحكم ولا يحكم علي ، غير أني في هذه الأيام اعترى مزاجي التياث منعني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير ، وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا ، وعندي ما يصلح للسلطان ، وأنا استخرج الأذن في إيصاله إليه ، فقال له الملك العادل ، قد اذن لك في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية ، فرضي الرسول بذلك ، وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر ، وقد ضعف فيحسن أن يحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل ، وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث

الرسالة في الآخر على ان قال الرسول : من الذي أردتم منا إن كان لكم حديث ، فتحدثوا به حتى نسمع ، فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع ، وانقطع حديث الرسالة إلى سادس جمادى الآخرة ، فخرج رسول الانكتار إلى السلطان ومعه إنسان مغربي قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان ، فقبله وأحسن إليه وأعاده مشرفا مكرما إلى صاحبه ، وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا .

ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم ، وكثرة الأعمال ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ، وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ، ولما أحس العدو بذلك ، وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه ، شرعوا في الزحف من كل جانب واقتسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح ، وقام غيره مقامه ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهارا .

ولما علم السلطان ذلك بإخبار من يشاهده ، وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكوس ركب وركب العسكر إليهم ، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب الى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا

أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطـوف بين الأطـلاب بنفسـه وينادي : يا للاسـلام ، وعيناه تـذرفان بالدموع ، وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشـتد في الزحـف والحـث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البته ، وإنمـا شرب أقـداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، وتأخرت عن حضور هذا الزحـف لالمام مرض شوش مـزاجي لما عراني ، فـكنت في الخيمـة في تـل العياضية ، وأنا اشاهد الجميع ، ولما هجم الليل عاد رحمه الله الى الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو .

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوس أن دقت ، وركب العسـاكر من كل جـانب ، وأصـبحوا على مـا أمسـوا عليه ، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها :إنا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشتري مجرد رقـابنا ، وكان هذا أعظم خبـر ورد على المسـلمين ، وأنكى في قلوبهـم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشـق وحلب ومصر ، وجميع البلاد الاسلامية ، واحتوت على كبار مـن أمـراء العسكر وشجعان الاسلام ، كسيف الدين المشطوب ، وبهـاء الدين قراقوش ، وغيرهما ، وكان قراقوش ملتـزما بحـراستها منذ نزل العدو عليها ، وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله ، وخيف على مزاجه التشويش ، وهو لا يقطع ذكر الله ، والرجـوع إليه في جميع ذلك صابرا ، محتسبا ملازما مجتهـدا ، و (الله لا يضـيع اجـر المحسنين) فرأى الدخـول على القـوم ومهـاجمتهم ، فصـاح في العساكر الصائح ، وركبت الأبطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحـف ولم يسـاعده العسـكر في ذلك اليوم على الهجـوم على العدو ، فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب ، من وراء اسوارهم ، وهجـم عليهـم بعض الناس مـن بعض أطارفهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ، ولقد حكى بعض من دخـل

عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد أفرنجي صعد سور خندقهم ، واستدبر المسلمين ، والى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق ، وقال:إنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا ، ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه ، ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل ، قال:وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناه الى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ، ولم يزل يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح ، حتى فصل بينهما الليل .

ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والأفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليها من كل جانب ، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع ، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها ، وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفرا وصاعدا ، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الأفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى ، وفي الغد نادى الأفرنج احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الأفرنج لذلك حزنا عظيما وأبطلوا الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه الى ملك الفرنسيس

بالأمان وقال له قد أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا سألونا الأمان فأعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا ، فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا ، وأنتم أيضا مماليكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي ، وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول ، وقال أقاويل كغيره في ذلك المقام منها : إنا لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يقتل منا واحدا حتى يقتل خمسون نفسا من كباركم وانصرف عنه .

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد ، فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم أرسك وابن الجاولي وسنقر الوشاقي ، فأما أرسك وسنقر فأنهما تغيبا في العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان ، وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانة .

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعرا أنه يواصل كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك .

وفي ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة ، وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح ، غير أن السلطان أكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

وفي ذلك اليوم تقدم الى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ، ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار ، ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك

الذوري ، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا ، واجتهد الناس اجتهادا عظيما .

وفي العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم ، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين عسى أن يمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من الافرنج فيكسروهم ، ويخرجوا يحمي بعضهم بعضا ، ويخرج العساكر يجاريهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبروا العدو بذلك ، فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة .

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك وتحادثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا ولم ينفصل الحال ، وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة بحيث أنهم اعتقدوا ربما كان مصاف ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكروا أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان ، فحضر العدل وجرى مبادي أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا ، واشتطوا في ذلك اشتطاطا عظيما ، وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها : إنا قد

تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ، ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتليذوا لهم ، فإنا نحن قد فات أمرنا ، وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الأفرنج أن عسكرا عظيما عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : وجاء إنسان افرنجي فوقف تحت السور وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له بحق دينك الا ما أخبرني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة ، يعني ليلة السبت ، وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال له ألف فارس ، فقال لا ، لكنه دون ذلك ، أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا .

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام بعد أن كان قد اشرف البلد على الأخذ ، فقدم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابق الدين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء خامس عشرة بدر الدين دلدرم ، ومعه تركمان كثير ، وكان قد أنفذ إليه السلطان رحمه الله ـ ذهبا أنفق فيهم ، ويوم الخميس سادس عشرة أسد الدين ، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه ، واشتد ثبات الافرنج على أنهم لايصالحون ، ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسارى الذين في أيدي المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم ، وبذل لهم تسليم البلد ، وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا ، وبذل لهم أيضا مع ذلك صليب الصلبوت ، فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . (٤٢)

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، خرج العوام

من الثغر ، ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وكثرت الصعوبات وعجزوا عن الحفظ والدفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أخذت البلدة عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومئتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلبوت ، ويخرجون بأنفسهم سالمين ، ومامعهم من الأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيس عشرة الاف دينار لأنه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك .

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها ، أنكر ذلك إنكارا عظيما ، وعظم عليه هذا الأمر وجمع أرباب المشورة ، وشاورهم فيما يصنع ، واضطرب الأمراء وتقسم فكره وتشوش ، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصاح الافرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين ، وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة (إنا لله وإنا اليه راجعون) (٤٣) وغشي الناس بغته عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر ايمانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته ، وانقشعت الحال على أنه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الافرنج على ذلك الحال المتقدم ، وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك

فنصب علما على القلعة ،وعلما على مأذنة الجامع في يوم الجمعة ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه ، ومثلت في خدمة السلطان ، وهو اشد حالة من الوالدة الثكلى ، والمولهة الحراء ، فسليته بما تيسر من التسلية ، واذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية ، والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وذلك ليلة السبت الثامن عشر ، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق في المضايقة معنى ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التي كان عليها أولا بشفر عم ، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو ، وحال أهل البلد ، وأقام هو راضيا راجيا من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه ، فينال منهم غرضا ويلقي نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئا من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكن منه ، فأقام الى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل الى الثقل ، وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش ، وكان رجلا عاقلا ، مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى في الحادي والعشرين ، وانفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر ، شمالي البلد ، وانتشروا انتشارا عظيما راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلابا للقتال ، فأخبر اليزك بذلك السلطان ، فدق الكؤوس

وركب ، وأنفذ إلى اليزك وقواه ، برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك ، وكان اليزك قد قوي بما أنفذ إليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانهزمت الخيالة ، وسلمت الرجالة ، وظنوا أن وراء اليزك كمينا فارتدوا نحو خيامهم ، ووقع اليزك في الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفرا ، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم

وفي ذلك اليوم وصل الافرنج الذين ساروا الى دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ، ووصل معهم من مميزي أسراهم أربعة نفر ، ووصل في عشيته أيضا رسل السلطان في تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب

خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من اصحاب الانكتار ، فأخبر أن الملك افرنسيس سار إلى صور ، وذكروا في تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وأنه في العسكر أو حمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم ، ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار إليه إلى صور بهدايا سنية ، وطيب كثير وثياب جميلة .

وفي صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه

إلى تل ملاصق لشفرعم ، ونزلت العساكر في منازلهـا على حـالهم قريبا من منزلته الأولى ليس بينهما إلا الوادي ، ولم تـزل الرسـل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى و المال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ومـائة ألف دينار وستمائة أسير وأنفـذوا ثقلهـم وشـاهدوا الجميع مـا عدا الأسارى المعينين من جـانبهم فإنهـم لم يكونوا فـرغوا مـن تعيينهم ، ولم يكملوهم ، حتـي يحصـلوا ، ولم يزالوا يطـاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ، ثـم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان إمـا أن تنفـذوا إلينا أصحابنا وتستلموا الذي عين لكم من هذ الترم ونعطيكم رهائن على الباقي تصل إليكم في ترومكم الباقية ، وأما أن تعطونا رهـائن على ما نسلم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابنا ؟ فقـالوا لا نفعـل شيئا من ذلك ، بل تسلمون إلينا ما يقتضيه هـذا التـرم وتقنعـون بأيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصـحابنا عندهـم لا يؤمـن غدرهم ، ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد ينجبر .

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السـلطان ببـذل المال والأسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين ، وكان قد صالحهم ، وتسـلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر اطلاقهم بأموالهم ونسائهم وإن امتنع مـن ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى ، فغدرهم الملعون ، وأظهـر ماكان أبطن ، وفعل ماأراد أن يفعله بعـد أخـذ المال والأسرى على ماأخبر به عنه أهل ملته فيما بعـد ، وركب هـو وجميع العسـكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتـراكبلي في وقـت العصر مـن يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتـى الآبـار التـي تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى تـوسطوا

المرج بين تل كيسان وبين العياضية ، ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، فغشي المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديد ، ولم يبقوا الا رجلا معروفا مقداما أو قوي يد لعمائرهم ، وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم ، وقيل إن الانكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى طرف البحر من جانب الغرب

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الافرنج بأسرهم ، وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي ، وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطيء البحر ، وأمر الانكتار باقي الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ماانهدم منه ، وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار ، وجمع عظيم من الرجالة والخيالة .

ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو في سحر ذلك

اليوم ، وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل اشعلوا نيرانهم ، وأخبر اليزك بحركتهم ، فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوقة ، ولم يكن معهم خيل ولاظهر يحمل جميع ماعندهم ، لأن كل انسان كان يحصل مايحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السوقة عنده مايندفد من منزل الى منزل في مرار متعددة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم .

ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا كثيرة كل قطعة تحمي عن نفسها ، وقوى السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا ، وأنفذ ولده الملك الافضل يخبر أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ، ولقد نازلناهم بالقتال ، ولو قوينا لأخذناهم ، فسير السلطان خلقا عظيما من العسكر ، وسار هو بنفسه ، وأنا في خدمته حتى أتى أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم عبروا نهر حيفا ، وقد نزلوا والباقون قد لحقوا بهم ، وليس للمسير وراءهم حاصل إلا إتعاب العسكر ، وضياع النشاب لاغير ، فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم ، ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطماعة ، وسار هو حتى وصل الى القيمون عصر ذلك النهار فنزل ، وضرب له الدهليز وشقة دائرة حوله لاغير واستحضر الجماعة فأكلوا شيئا واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني : اتفق راي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد ، هذا وقد رتب حول الافرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره ، ولما كان صبح ثاني شعبان رحل السلطان الثقل ، وأقام هو بترصد أخبار العدو ، فلم يصله منهم شيء إلى أن علا النهار ، فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها

الصباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبـار العـدو ، وكان قـد خلف جرديك قريب العدو ، وبعث خلقا عظيما باتوا قـريب العـدو ، فلم يصله خبر أصلا ، فسار حتى أتى الثقل في منزلة يقـال لهـا عيون الأساود ، ولما بلغنا المنزل رأى خياما فسأل عنها ، فقيل أنها خيام الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، فـأقام عنده سـاعة ، ثـم أتـى خيمته ، وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية ، وغلا الشعير حتـى بلغ درهما ، وبلغ رطل البقسماط درهمين ، ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى موضع يسـمى الملاحـة ، يكون منزلا للعدو إذا رحلوا من حيفا ، وكان قد سبق ليتفقد المكان هـل يصـلح المصاف أم لا ، ويتفقد اراضي قيسارية بأسرها الى الشعراء وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشـاء الآخـرة وقـد أخـذ منه التعب ، وسألته عما بلغه من خبر العدو ، فقـال وصـل إلينا مـن أخبرنا أنه مارحل مـن حيفـا إلى عصر يومنا هـذا ، يعني ثـاني شعبان ، وها نحن مقيمـون مـرتقبون أخبـارهم ، ويكون العمـل بمقتضاها ، وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيمـا بتـل الزلزلة ينتـظر العدو ، ونادى الجاويش بـالعسكر للعـرض ، فـركب الناس على ترتيب المصاف وأهبته ، ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ، ومثـول جمـاعة مـن الأمـراء إلى خدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهـر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة ، من مائة دينار إلى مائة وخمسين دينارا وزائد وناقص ، فما رأيت أفسـح صـدرا منه ، ولاأبسط وجها في العطاء ، واتفق الرأي على رحيل الثقـل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا .

المنزل الثالث : وأقام هو جـريدة بـالمنزل إلى الصـباح رابـع الشهر ، وركب وسار في رأس الشهر الجـاري إلى قيسـارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربـع دراهـم وربـع الشـعير درهمين ونصفا ، والخبز لم يوجد أصلا ، ونزل في خيمتة وأكل خبزا وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو لتجديد ارتياده في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخـذ جـزءا مـن

الراحة ، ثم عاد وركب ، وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر النهار .

المنزل الرابع : وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضا ، فنزل هناك الثقل وعاد هو من ركوبه بعيد المغرب ، وفي ذلك المنزل أتي باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فأمر بضرب رقابهم فقتلا ، وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفيا ، ثم بات هناك وأصبح مقيما بالمنزلة لانه لم يصح عن العدو رحيل ، وأنفذ إلى الثقل حتى يعود إليه في تلك الليلة ، مما طرأ على الناس من الضيق في المأكل والقضم ، وركب في وقت عادته الى جهة العدو ، وأشرف على قيسارية وعاد الى الثقل قريب الظهر ، وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحة ، وأحضر عنده اثنان أيضا قد أخذا من أطراف العدو فقتلا شر قتلة ، وكان في حدة الغيظة لما جرى على أسرى عكا ، ثم أخذ جزءا من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور قد أخذ وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ، فأحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وسأله كيف يسوى الطعام عندكم ؟ فقال : أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس ، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس ، وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل؟ فقال : لانتظار المراكب بالرجال والميرة ، فسأل عن القتلى والجرحى في رحيلهم ، فقال : كثير فسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم ، فقال مقدار أربعمائة فرس ، فأمر بضرب عنقه ، ونهى عن التمثيل به ، فسأل الترجمان عما قال السلطان ، فأخبره بما قال ، فتغير تغيرا عظيما وقال : أنا أخلص لكم أسيرا من عكا ، فقال رحمه الله بل أميرا ؟ فقال : لاأقدر على خلاص أمير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه ، فإني مارأيت أتم خلقا منه مع ترف في الأطراف ورفاهية ، فأمر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصفده وعاتبه على مابدا منهم من الغدر وقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده ، وركب السلطان بعد صلاة

العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفـارس المذكور ، وأتـي بعده بإثنين فأمر بقتلهمـا وبـات في ذلك المنزل المذكور ، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم ، فـرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

المنزل الخامس : فرحل ورحل الناس إلى قـريب التـل الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضربت الخيام ، ومضى هـو يرتـاد الأراضي الكائنة في طريق العدو ، ولينظر أيها أصلح للمصاف ، ونزل قـريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزءا من الراحة ، وأذن الظهـر فصـلى وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره ، وأتاه اثنان من الأفرنج قد نهبا ، فأمر بقتلهما فقتلا ، ثم أتى باثنين آخرين فقتـلا أيضا ، وجيء في أواخر النهار بـاثنين فقتـلا أيضـا ، وعاد مـن الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته ، واسـتدعى أخـاه وصرف الناس وخلى به إلى هزيع من الليل ، ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لاغير ، وركب إلى جهة العدو ووقـف على تلول مشرفة على قيسارية ، وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة سادس شعبان ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب الى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهـر، وأخـذ جزءا من الراحلة ، وجلس وأتي بأربعة عشر من الأفـرنج وامـرأة أفرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنت الفارس المذكور ومعهـا أسـيرة مسلمة قد اخذتها ، فأطلقت المسلمة ، ورفـع البـاقون إلى الزرد خانة ، وهؤلاء أتي بهم من بيروت أخذوا في مـركب مـن جملة عدة كثيرة ، فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر ، وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه إذا رحل .

المنزل السـادس : ولما كان صـبيحة يوم الأحـد الثـامن ركب السلطان على عادته ، ثم نزل و وصله من أخيه أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بمد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا

فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس معــه ، وســار وسرت في خدمته حتى أتى العدو، وصـــف الأطـــلاب حـــوله وأمـــــرهم بقتالهم ، وأخرج الجاليش فكان النشــاب بينهــم كالمطــر ، وكان عسكر العدو قد ـتب فكانت الرجالة حوله كالسور ، وعليهم اللبــود الثخينة والزرديات السابغة المحــكمة ، بحيث يقــع فيهــم النشاب ولايتأثرون ، وهم يرموننا بــالزنبورك ، فيجــرح خيل المســلمين وخيالتهم ، ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحــد منهــم النشــابة والعشر ، وهـو يسير على هيئة من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهــم ، فــاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهـــم الجـــراح قـــام مقــــامهم المستريح ، واستراح القسم المقــاتل ، هــذا والخيالة في وســطهم لايخرجون عن الرجالة إلا في وقــت الحملة لاغير ، وقــد انقســموا أيضا ثلاثة أقسام ، القسم الأول الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكتار والفــرنسيس معــه في الوســط ، وأولاد الست أصحاب طبرية ، وطائفة أخرى في الساقة ، وفي وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على مــا وصفته مــن قبــل أيضــــا كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خــرج منهــم مــن الأسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثال وسوق الحــرب قــائمة بين الطائفتين والمســـــلمون يرمـــــونهم بـــــالنشاب مــــــن جوانبهم ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيرا رفيقا ، ومراكبهم تســير في مقــابلتهم في البحــــر الى أن أتـــوا منازلهم ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهـم ، فانظر إلى صبر هـؤلاء القوم على الأعمال الشــاقة عن غير دين ولانفــع ، وكانت منزلهــم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها .

المنزل السابع : ولما كانت صبيحة التاسع وصل مــن أخبــر أن

العدو قد ركب سائرا فركب السلطان أول الصبح ، وطلب الأطلاب ، وأخرج من كل جانب جاليشا ، فسار يطلب القوم فأتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ، ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيته ، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه ، وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال بينهم شديد ، والسلطان يقرب الأطلاب ، ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يجاوزه ، وليس معه إلا صبيان بجنبيه لاغير ، وهو يسير من طلب إلى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوس تدق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو ، هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم ولايتغيرون ولاينزعجون ، وجرت حالات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب ، ولم نزل حواليهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين أيدينا ويفرون إلى أن أتوا نهرا يقال له نهر القصب ونزلوا عليه ، وقد قامت الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانه أياز الطويل بعض مماليك السلطان ، وكان قد فتك فيهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الأوائل وصار بحيث إذا عرفه الأفرنج في موضع يخافونه ، تقنطرت به فرسه واستشهد ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، ودفن على تل مشرف على البركة وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام في تلك المنزلة إلى مابعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزا واستراحوا ساعة ، وثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه أيضا ، فشرب منه قليلا من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة ، وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم ، والخبز موجود كثيرا ، وسعره بالرطل

بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الافرنج حتى يرحل في مقابلتهم، فباتوا وبتنا أيضا .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا يتشوفون على العدو ، فصادفوا جماعة منهم يتشوفون أيضا على العسكر الاسلامي ، فظفروا بهم وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، وأحس بهم عسكر العدو فثار إليهم منهم جماعة ، واتصل الحرب وقتل أيضا من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الأحوال فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامي ، وذلك الذي أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالامس - يعني يوم الاثنين - رأى من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وأنه جرح زهاء ألف نفر ، وقتل جماعة وأن ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ماأصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما ، وأقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن : ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، فدق الكوس ورحل الناس ، ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب ، فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا في الشعراء وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك .

ومن إخبار العدو في تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك

اليوم أيضا ، وأنه لحقته نجدة من عكا في ثمان بطس كبار ، واليزك الاسلامي حوله يواصلون الأخبار المستجدة بهم ، وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين .

ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من سمع كلامهم ، وكان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ومضى وبات تلك الليلة في اليزك وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم أنه قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين الرجال الأبطال ، وإنا نحن جئنا في نصرة أفرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه ، وكتب السلطان إلى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها :« إن قدرت أن تطاول الافرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا » .

ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار

ولما علم الانكتار وصول الملك العادل إلى اليزك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، فاجتمعا بفرقة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهم ابن الهنفري ، وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ، ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه محلوق اللحية على ما هو شعارهم .

وكان الحديث بينهما أن الانكتار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : أنتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم

فيه ، حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان ، فقال له الانكتار: القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم .

ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ، ووقف هو وعبى الناس تعبية القتال ، ووقف يتنسم مايرد إليه من أخبار العدو ، وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان بعودهم إليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبط الناس تلك الليلة تخبطا عظيما واستدعى أخاه ليعرفه ماجرى بينه وبين الملك ، وخلا به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر .

وأما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة ايضا ، يشرف على البحر ، وأصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعا إلى أخبار العدو ، فأحضر عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما اليزك ، فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك ، فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان في هذا الأمر ، ومايصنع مع العدو ، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

ذكر وقعة أرسوف وهي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو أرسوف ، فركب ورتب الأطلاب للقتال ، وعزم على مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم ، وأخرج الجاليش من كل طلب ، وسار العدو حتى قارب شعراء أرسوف وبساتينها فأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزمهم الأطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون ردأ ، ويضايق العدو مضايقة عظيمة ، والتحم القتال واضطرمت ناره من الجاليش ، وقتل منهم وجرح ، فاشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا ، واشتد بهم الأمر ، وضاق بهم الخناق ، والسلطان يطوف من الميمنة إلى

الميسرة يحث الناس على الجهاد ، ولقيته مرارا ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الأمر يشتد بالطمع بالعدو ، وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الى بساتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخيالةوتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لاينجيهم إلا الحملة .

ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رجالتهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين ايديهم ، واتفق أني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التحيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إلي ووصلتها وقد اذكسرت كسرة عظيمة ، وفرت أشد فرارا من الكل ، فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان ردأ الأطلاب كلها كما جرت العادة ، ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لاغير ، وأخذ الباقون إلى القتال ، لكن الأعلام كلها باقية ثابتة والكوس تدق لاتفتر ، وأما السلطان فأنه لما رأى مانزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى الى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليل ، فوقف فيه والناس يذفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق بحيث لايفترون ، وكلما رأى فارا يأمر من يحضره عنده ، وفي الجملة ماقصر الناس بفرارهم فإن العدو حمل حملة ففروا ، ثم وقف خوفا من الكمين ، فوقفوا وقاتلوا ، ثم حمل حملة ثانية ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ، ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ إلى رؤوس رواب هناك ، وأعالي تلول ، ففروا إلى أن وقف العدو فوقفوا ، وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس تدق يستحيي أن يجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب

فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي ، والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها ، وخاف العدو أن يكون في الشعراء

كمين فتراجعوا يطلبـون المنزلة ، وعاد السـلطان إلى تـل في أوائل الشعراء ونزل عليه في خيمته ، ولقد كنت في خدمته أسليه وهو لايقبل السلو وظلل عليه بمنديل ، وسألناه أن يطعم شيئا ، فأحضر له شيء لطيف ، فتناول شيئا يسيرا وبعـث الناس للسـقي فإن المكان كان بعيدا ، وجلس ينتظر الناس من العود مـن السـقي ، والجـرحى يحضرون بين يديه ، وهو يتقدم بمداواتهم ، وحملهم وقتـل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين ، وكان ممـن ثبـت الملك العادل والطواشي أيماز النجمي والملك الأفضل ولده ، وصدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه وسـال منه دم كثير على وجهـه وهو صابر محتسب في ذلك كله ، وثبت أيضا طلب الموصل ومقـدمه علاء الدين ، وشكره السـلطان على ذلك ، وتفقـد الناس بعضـهم بعضا فوجدوا أن قد استشهد جمـاعة مـن العسـكر عرف منهـم شـخصان أمير كبير مملوك وكان شـجاعا معـروفا ، وقـايماز العادلي ، وكان مذكورا ، واقوش وكان شجاعا وجـرح خلق كثير وخيول كثيرة ، وقتل من العدو جماعة ، وأسر واحد وأحضر فـأمر بضرب عنقه ، وأخذت منهم خيول أربعة ، وكان قد تقدم رحمـه الله إلى الثقـل أن يسـير إلى العـوجاء ، وذكر إن المنزل يكون على العوجاء ، فاستأذنته وتقدمت إلى المنزل ، وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر ومايرد من أخبار العدو ، وكان العدو قد نزل على أرسوف قبليها .

المنزل التاسع : وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل ، وقـد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ، ووصل السلطان قـاطع المنزلة أواخـر النهـار ، وازدحـم الناس على القنطرة فنزل على تـل مشرف على النهـر ولم يعـد إلى الخيمة ، وأمر الجاويش أن ينادي في العسكر بـالعبور إليه ، وكان في قلبه من الوقعة أمر لايعلمه إلا الله تعـالى ، والناس بين جـريح الجسد ، وجريح القلب ، وأقام السلطان إلى سحر الخـامس عشر ودق الكوس وركب الناس ، وسار راجعا إلى جهة العدو حتى وصل إلى قريب أرسوف وصف الأطلاب للقتال رجاء خروج العـدو

ومسيره حتى يصاف ، فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، وأقام قبالتهم إلى آخر النهار وعاد إلى منزلته التي بات فيها .

ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكوس وركب الناس وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالبا جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ماكاد يسد الأفق وقاتلت قلوبهم قتال الحنق ، وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ، ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتو نهر العوجاء ، وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه ، فنزل في أسفله وعبر بعضهم إلى غربي النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقي ، فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السلطان إلى الثقل ونزل في خيمته ، وأطعم الطعام وأتي بأربعة من الأفرنج قد أخذتهم العرب ، ومعهم امرأة فرفعوا إلى الزردخانات ، وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبر أنه قتل من العدو يوم أرسوف خيول كثيرة ، وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال ، وتقدمت إلى الرملة وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير ، وسار يريد الرملة ، وأتي باثنين من الأفرنج فضرب أعناقهم ، ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا ، وسار السلطان الى أن أتى الرملة ، وأتي باثنين من الأفرنج أيضا فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما ، وفي أنفسهم عمارتها ، وشحنها بالرجال والعدد ، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان ، وأنها هل تخرب أو تبقى ، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه

طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم وإيصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولي عليها الافرنج ، وهي عامرة ، فيقتلوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر ، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا ، وماجرى على من كان مقيما بها ، ويخيفوا الناس عن الدخول إلى عسقلان ، فادخرت القوة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان ، فسار الثقل والجمال من أول الليل ، وتقدم إلى ولده الملك الافضل ، أن سار عقيب نصف الليل ، وسار هو وأنا في خدمته سحر الأربعاء .

المنزل الحادي عشر : وهو على عسقلان ، ولما كان يوم الاربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان إلى يبنا ، فنزل بها ضحى ، وأخذ الناس راحة ، وسار حتى أتى ارض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهموما بسبب الخراب ، وما نام الا قليلا ، ولقد دعاني في خدمته سحرا ، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى ، ولقد قال لي : والله لان أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ، ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها ، فاستحضر الوالي قيصر بها ، وهو من كبار مماليكه ، وذوي الآراء منهم فأمره بجمع المال فيها ، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من الناس والعسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما ، يخربونه ، ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء ، وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع مالايمكن حمله ، فبيع مايساوي عشرة دراهم بدرهم

واحد ، واختبط البلد ، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج ، وبذلوا في الكراء أضعاف مايساوي ، قوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام وقوم يمشون إذ لم يقع لهم كراء ، وجرت أمور عظيمة ، وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا ، وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية أن يسمع العدو فيحضر ولايمكن خرابها ، وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب ، وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الافرنج تحدثوا معه في الصلح وأنه خرج إليه ابن الهنفري وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد الساحلية ، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة ، لما رأى في أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة ، وكثرة ماعلاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح في الحديث في ذلك وفوض أمر ذلك إلى رأيه ، وأصبح في العشرين على الاصرار على الخراب واستعمل الناس فيه وحثهم عليه ، وأباحهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الافرنج ، وأمر بحريق البلد فأضرمت النار في بيوته ودوره ورفض أهله بواقي الأقمشة للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا ، وكتب الملك العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وأنه سوف القوم ، وطول الحديث ، لعلنا نتمكن من الخراب ، وأمر بحشو أبراج البلد بالاحطاب وان تحرق واصبح الحادي والعشرون فركب يحث الناس ، ودام يستعملهم على التخريب ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين ، وأخبار العدو تتواصل إليه في كل وقت ، ويجري بينهم وبين اليزك والعسكر وقعات وقلبات ، وهو يواظب على الحث على الخراب ، ونقل الثقل إلى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم في ذلك ، فخرب من السور معظمه ، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع ، وذكربعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض السور الذي ينقبون فيه مقدار رمح ، ولم يزل

التخريب والحريق في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها ، فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم ، فعزم على الرحيل ، وعلى أن يخاف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضونهم في الخراب ، ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء يقرب من لاتعمل فيه المعاول ، وإنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه ، وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه في البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت فيه النار فاشتعل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ، ولم يركب السلطان في ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لي أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، ولقد تردد إلى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم ، فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته .

ذكر رحيله الى الرملة

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ، ووصل يبنا ضحوة النهار ونزل خيمة أخيه ، واستعلم منه أخبارهم ساعة ، ثم ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا إلى جهة الرملة فسار حتى أتاها ضحوة النهار ، ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وأطعم الناس الطعام وأخذ جزءا من الراحة ، وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار إلى لد ورآها

ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم ، وفـرق الناس فـرقا لتخـريب المكانين ، وأباح ما فيها مـن التبـن والشـعير في الأهـراء السلطانية ، وأصر من كان فيها من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة وما كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، وظل الناس يخربون إلى أن أمسى المساء ثم عاد إلى خيمته وأصبح رابع رمضان فأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم مـن يسـتنجزهم في ذلك ، وهـو يتردد عليهم في الأصائل حتى جاء وقت المغرب فمد الطعام ، وأفـطر الناس وانفصلوا إلى خيمتهم ، ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس ، فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف أخاه في العسكر يحث الناس على الخراب ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجـاله وغير ذلك ،وظفر في ذلك غلمان الطـواشي قـايماز بنفـر مـن النصارى ، ومعهم كتب قد كتبها الوالي إلى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها أعواز البلد الغلة والعدة والرجـال ، فـوقف على الكتـب وضربت رقاب كل من كان معهـم ، ومـازال يتصـفح أحـوال المكان ، ويأمر بسد خلله إلى الثامن ، وخرج سـائرا إلى العسـكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة ، وفي هذا اليوم وصـل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه مستنصرا به على أخوته وأبيه فإنهم كانوا يقصـدون أخـذ بلده منه ، فلقيه الملك العادل قاطع لد فاحترمه وأكرمه ، ثم لقيه الملك الأفضل ، وضربـت خيمته قريبا من لد .

وفي ذلك اليوم خرج من العـدو الحشـاشة فحمـل عليهـم اليزك ، ووصل الخبـر إلى معسـكرهم فخـرج إلى نصرتهـم خيالة ، وجرى بينهـم وبين اليزك قتـال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكتار وإن مسلما قصد طعنه فحال بينه وبينه أفـرنجي فقتل الافرنجي وجرح هو ، هكذا ذكروا والله أعلم .

ولما كان التاسع وصل رحمه الله إلى المعسكر ، ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته ، وأقام يحث الناس على التخريب وتتواصل اخبار العدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، ويسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم .

ذكر وصول رسول المركيس

وفي غضون ذلك وصل رسول يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، وعلى أن يجاهر الأفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ، ويأخذها منهم واشترط أن يبذل السلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب ، وحمله الاجابة إلى ملتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثا ملعونا ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهي صور ، فانحاز عنهم ، واستعصم بصور ، وهي منيعة ، فقال ذلك القول لهذا السبب .

وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر ، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها وإطلاق من بها وبصور من الأسرى ، وعند ذلك يسلم إليه الموضعان .

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسل ملك الانكتار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح .

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان أن يتأخر العسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإنا كنا على الرملة قريبين من العدو ، ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة ، فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير ، وجميع العساكر ما عدا اليزك على العادة ، وذلك بعد خراب الرملة ولد ، ولما نزل هناك دار حول النطرون ، وأمر

بخرابها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في خرابها .

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك العادل وأخلد اليه ، وخرج في عشرة أنفس إلى اليزك فأخبروه بأخبار طيبة وكتب بها إلى السلطان في السابع عشر ، وكان مما أخبره به أخوه أن الملك أفرنسيس مات وكان موته بأنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكتار عاد إلى عكا ، وكان سبب عوده أنه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان ، وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا ، فعاد هو إلى عكا لفسخ هذه المصالح واسترجاع المركيس إليه ، فركب السلطان إلى اليزك واجتمع بأخيه في لد ، وسأله عن الأخبار ، وعاد إلى المخيم وقت العصر ، وأتي باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فأخبروه بصحة موت الافرنسي ، وعود الانكتار إلى عكا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته ، وكان الملك العادل قد عاد من اليزك ، وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأى أن يكون هو الذي يسير ، فسار في هذا اليوم لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصبا للسلطان طغريل ، وجرى بسبب قتله خبط عظيم في بلاد العجم ، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة .

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس ، وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية ببكتمر ، ويشفه في حسن بن قفجاق ، والتقدم بإطلاقه وكان قد قبض عليه مضفر الدين بن زين الدين باربل ، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال وفصل أمر ، وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه ، ويكتب إلى تقي الدين

ذكر اخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان الثاني والعشرون احضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهما منهم وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال أحيانا ، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولايتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم ، ويؤخذ أسيرا ، وتكلم منهم جماعة فنحروا ، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم ، واختاروا الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح .

وفي تاريخ اليوم وصل من اليزك المرتب على عكا في موضع يقال له الزيب ، خبر أسارى مع رسول من اليزك أخبر أنهم خرجوا من عكا يتفسحون ، وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم إحدى وعشرين نفسا ، وأن الأسرى أخبروهم بصحة عود الانكتار إلى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم .

وفي هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل أنها وصلت من

عكا ، وأن فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويعمرها ، وقيل ليقصد القدس والله أعلم .

ولما كان الرابع والعشرون وصل الأسرى المذكورون من الزيب ، وكان وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير ، وفيه وصل رسول من الانكتار معه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه ، وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه ، فصعب على السلطان موته وشق عليه ، وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيها أن البرنس أغار على جبلة واللاذقية ، وأنه كسر كسرة عظية وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية

ذكر رسول الملك العادل إلى الانكتار

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للعادل ، فطلب الانكتار رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة وهو كاتبه ، وكان شابا حسنا فوصل إليه وهو في يازور قد خرج في جمع كثير من الرجالة انبثوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسار معه زمنا طويلا وحادثه في معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث به مع أخي وصديقي ، يعني العادل ، وذكر له كلاما ، وعاد وأخبر به ، فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها إلى السلطان ، وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له إن المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ، ما ، ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحد ، وأما البلاد فيعاد ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب .

ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب ، والذي رآه السلطان أن قال القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما ، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها ، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل .

ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيرا

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك أنه كان ادخر له حبلا في مخدته ، وكان الأمير حسن بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سليما ، فرآه وقد تغير من الوقعة ، فكلمه فلم يجبه ، وحركه فلم يتحرك ، فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر ، فعلم أنه إذا أقام عنده أخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى تل العياضية ، وقد طلع الصبح ، فأكمن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ، ومثل بخدمة السلطان ، وكان من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع على نفسه قطيعة

عظيمة من خيل وبغال وأنواع الأموال ، وأن الملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشة ، ولم يبق له منها شيئا ، وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مددا عظيما ، وأن طغرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه .

ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته وأحضر جماعة من الأمراء : علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وشرح لنا ماعاد به رسوله من الانكتار من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار ، وكان قد استصحبها معه من صقلية ، فإنها كانت زوجة صاحبها ، وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس ، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك ، ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافا الى ماقي يده من البلاد والاقطاع وأنه يسلم إليه صليب الصلبوت ، وتكون القرى للداوية والاسبتار ، والحصون لهما ، واسرانا تفك ، وكذلك أسراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ، ويرحل الانكتار طالبا بلاده في البحر ، وينفصل الأمر ، هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار ، ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده ، وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان ، وجعلني المتكلم فيها ، والجماعة يسمعون ، ونعرض عليه هذا الحديث ، فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالأذن في ذلك والرضا به ، وأن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى ابطاله فلما مثلنا

بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث ، وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقدا أن الانكتار لايوافق على ذلك أصلا فإن هذه منه مكر وهزل ، فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات ، وهو يقول : نعم ويفرح ، ويشهد على نفسه به ، فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرفناه بما قال · وعرفه الجماعة أني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصر على الأذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه .

ذكر عود الرسول الى الانكتار
بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان ثاني شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ، ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل الى مخيم العدو ، وأنفذ من عرف الملك بقدومه ، أنفذ إليه من قال له : إن الملكة عرض عليها أخوها النكاح ، فسخطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وانكرت ذلك انكارا عظيما ، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لاتفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها : إن الملك العادل يتنصر ، وأنا أتم ذلك ، وترك باب الكلام مفتوحا ، فكتب الملك العادل إلى السلطان رحمه الله وعرفه ذلك .

ولما كان خامس شوال وصل الخبر أن الأسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج ، وفيها مركب يعرف بالمسطح قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خلق عظيم ، واستبقي منهم أربعة مذكورين ، وسر المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر ، فلله الحمد والمنة .

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد

تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامي ، فانفصل الرأي بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرج الافرنج كانوا على لقائهم .

وفي عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكرا أنهم لايعرفون قصدهم ، وهرب اسير مسلم من جانبهم ، وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه

ولما تحقق السلطان أمر الجاويش أن ينادى في العسكر حتى يتجهز جريدة ، وشدت الرايات وحقق عزمه واتفق على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار في يوم الاثنين السابع مؤيدا منصورا حتى أتى قبلي كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلته .

ذكر خروج الأفرنج من يافا

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الاطلاب للقتال ، وسلم اليزك للملك العادل ، وتبعه من يريد من الغزاة ، وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم وأنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكبهم ، ورموا عليهم النشاب ، فرآهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا بإقدامهم ووافقوهم في فعلهم وقاربوا عسكر العدو ، فلما رأى الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ، ثارت هممهم وحركتهم نخوتهم ، فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا في جمع كثير فنجا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته ، وظفروا بجماعة ، فقتل منهم ثلاثة

ذفر ، ونقلوا خيامهم الى يازور ، وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزله إلى الصباح .

ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فأشرف عليهم ، ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخيه بأن يحضر معه علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين ابن المقدم ، فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادما أن يخلي المكان عن غير الحاضرين ، وكنت في جملتهم ، وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ، ماهو ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر ، فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ، ثم ذكرته الله تعالى وإمضاء قضائه وقدره ، فقال استغفر الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قال المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله ، ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة ، وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه ، وهو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعية في طي كتاب وصل من النائب بها ، وكانت وفاته بطريق خلاط عائدا إلى ميافارقين . فحمل ميتا إلى ميافارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحمل إليها وزرت ضريحه ، وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان الثاني عشر من شوال من السنة ، وصل من دمشق كتاب من الذواب بها ، في طية كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي

مجده الله ، يتضمن فصولا ثلاثة الأول الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر ، وبولغ فيه ، حتى قيل إن الديوان العزيز لايسلمه ، والفصل الثاني يتضمن الانكار على مظفر الدين في امساك حسن بن قفجاق ، والأمر بإعادته إلى الكرخاني ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها وكانت قصة حسن بن قفجان أنه قصد أرمية إلى السلطان طغريل ، فإنه كان قد نزل به في معونته لما هرب من ديار العجم ، واستنصر به وتزوج أخته ، ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ويملك به البلاد ، فقصد أرمية فقتل أهلها على ماقيل ، وسبي نساءهم وذراريهم ، وتعرض للقوافل ، وكانت معقلة الكرخاني ، فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه ، وعاد إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الأرض والتعرض للقوافل على ماقيل ، فاستعطفه مظفر الدين صاحب إربل حتى عاد إليه ، وانخرط في سلك أصحابه ، وقبض عليه ، وانفذ إلى الديوان العزيز ذلك في معناه لاستيلاء مظفر الدين على بلاده ، ولعله تشفع إلى الديوان ، فاقتضت عاطفته ذلك في حقه ، وأما الفصل الثالث : فكان يتضمن التقدم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولا لتقرر معه قواعد وتكشف إليه أسباب ، هكذا كان مضمون الكتاب .

وأما الجواب عنه فإن السلطان أجاب عن الفصل الأول بأنا لم نأمره بشيء ، من ذلك ، وإنما عبر لجمع العساكر ، ويعود إلى الجهاد ، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعود عنه ، وأما الفصل الثاني فأجاب عنه بأنه عرفهم حال ابن قفجاق وماتصدى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام فيقطعه فيه ، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفصل الثالث فأنه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق ، فهذا كان حاصل الجواب .

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الأفرنج ونصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك ، بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخي الملك كي ، وفتح ذكاحها بأمر اقتضاه دينهم ، فاضربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور ، وأخلد إلى السلطان والاعتضاد به، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الأفرنج ، فإنه كان أشدهم بأسا ، وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم في التدبير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان ، أمر بإجلاله واحترامه ، فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش مايليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه إياس المهراني

ولما كان سادس عشر شوال من السنة أمر السلطان الحلقة ان كمنت للعدو في بطون أودية هناك ، واستصحبوا جماعة من العرب ، وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه فبصر العرب بهم ، فضربوا عليهم ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب ، فانهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، والعدو يتبعهم طمعا حتى قاربوا الكمين، فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا من بين أيديهم

نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقتل جمع من الطائفتين ، وأسر وجرح جمع من العدو ، وأخذ منهم خيل كثيرة ، وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة ، فأنفذ أمراء أخر : أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراهما ردءا المسلمين ، وقال إذا رأيتم الغلبة على الكمين فأظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الأطلاب الاسلامية قد صوبت نحوه أعنه خيلها ، ولوا الأدبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر ، وكان السلطان قد ركب متشوفا أخبار الكمين ، وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ، ومعهم خمس رؤوس من الخيل قد أخذوها ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب ومازالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة منهم إياز المهراني ، وكان شجاعا معروفا وجاولي غلام الغيدي وكما صرع إياز المعظمي وجرح عدة جرائح ، وحمل إلى المسلمين وأسر من العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما ، وعاد السلطان إلى خيمته فرحا مسرورا معوضا من قتل فرسه ، متلطفا بالجريح مترحما على الشهيد .

وفي بقية هذا اليوم وصل رسولا الانكتار إلى الملك العادل يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به.

ذكر ماجرى للملك العادل والانكتار واجتماعها

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل إلى اليزك ، وضربت له فيه نوبتيه عظيمة ، وسار ومعه من الأطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ماجرت العادة أن يحمل من ملك إلى ملك ، وهو إذا تجمل في ذلك لايغلب ، وسار الانكتار إلى خيمته وحضر عنده على

ماقيل ، فاحترمه احتراما عظيما ، ووصل مع الانكتار إلى خيمتـه وأحضر شيئا من طعامهم الذي يختصون به فأتحف به الملك العـادل على وجه المطايبة ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العـادل وقـدم إليه مـاكان حمـل إليه ، وتحادثا معظم ذلك النهـار ، وتفـاصلا على تـواد ومحبـة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار إلى السلطان

وفي ذلك اليوم سأل الانكتار الملك العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماع به ، والمثول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسـالة شـاور السلطان الجماعة في الجواب فمـامنهم مـن وقـع له مـاوقع للسلطان ، وذلك أنه قال الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهـم المخـاصمة بعد ذلك ، فاذا انتظم أمر حسن الاجتماع ، والاجتمـاع لايكون إلا لمفاوضة في مهـم ، وأنا لاأفهـم بلسـانك ، وأنت لاتفهـم بلساني ، ولابد من تـرجمان بيننا نثـق أنا وأنت بـه ، فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قـاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبـة ، قـال الرسـول ولما سـمع الانكتار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لايقـدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضي السلطانية .

ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السـلطان وأداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت التاسع عشر من شوال من السـنة المذكورة جلس السلطان واسـتحضر صـاحب صـيدا لسـماع رسالته ، وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معـه ، وكنت حاضرا المجلس ، فأكرمه إكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم

ماجرت به العادة ، ولما فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا ، وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته ، وكان من شروط الصلح معه إظهار عداوة الافرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السلطان الموافقة على شروط ، قصد بها الايقاع بينهم ، وأن يقتل بعضهم بعضا ، فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

ذكر وصول رسول الانكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهمفري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، ووصل رسولا وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه ، وكانت رسالته أن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك ، وأنك قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لايكون عليه لوم من المسلمين ولاعلي لوم من الافرنجية ، فأجابه في الحال بوعد جميل ، ثم أذن له في العود في الحال ، وتأثر بذلك تأثرا عظيما

وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح فقالوا : ان كان صلح فعلى الجميع ، وأن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء ، وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح فإنه التفت إلي في آخر المجلس بعد انفصالهم ، وقال : متى ماصالحناهم لاتؤمن غائلتهم ، فإنني لو حدث بي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الافرنج

فالمصلحة أن لانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت ، هذا كان رأيه قدس الله روحه ، وانما غلب على الصلح .

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس

ولما كان حادي عشر شوال ، جمع السلطان الأمراء والأكابر ، وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس وا ستقر الأمر من جانبه عليها ، وهي أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الأفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان، وذكر ماالتمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضيع معينة ، وتكون لنا الجبليات بأسرها أو تكون القرى كلها مناصفة ، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه ، وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للأمراء ، وا ستنبط آراءهم في ترجيح أحد الجانبين : الانكتار والمركيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مصافات الافرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غير مأمونة الغائلة ، وأنفض الناس ، وبقي الحديث مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة أن الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما ، فأما الافرنجية فلها من جانب أخيها ، والاسلامية له من جانب السلطان ، وكان أخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال : إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علي ، وضع أختي تحت مسلم ، بدون مشاورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ، ومقدمه ، وها أنا أسير إليه رسولا يعود في ستة

أشهر ، فإن أذن فيها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنه أخي ، وما أحتاج إلى إذنه في ذلك .

وهذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازم ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، ويشرف على الافرنج ، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوال من السنة المذكورة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى تل الجزر

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثه وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان ابن الهمفري يترجم بينه وبين البحريين ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ، ومن جانب العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به ، وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد تم ، وإن لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك ، وهي بكر ، وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إذنه في تزويج الثيب من بنات الملوك ، وأما الابكار فيزوجها أهلها ، وانفصل الحال على ذلك ، وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ، ليجهز رسول السلطان ، ويلحقه ، ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير ، وخرجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة ، وسار رحمة الله عليه إلى تل الجزر لارتياد اليزك ، وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ونزلنا بتل الجزر ولما عرف الافرنج بعود السلطان ، رحلوا عائثين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم رحل

إلى جهة القدس الشريف ، ورحل الأفرنج إلى جهة بلادهم ، واشتد الشتاء ، وعظمت الأمطار ، وسار السلطان إلى القدس الشريف ، وأعطى العسكر دستوراً ، وأقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد العدو إلى بلاده ووصل الانكتار وعساكره إلى يافا ، وعاد إلى عكا ينظر في أحوالها ، فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول إني أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين ، فقد بلغني أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل ، فاتفق الرأي في مضي الملك العادل ، على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي ، ويحدثه ويقول له : إن الحديث جرى بيننا مرارا ، وماأسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلاحاجة إلى الحديث ، وأن كان الغرض بت حال ، فقارب الحال ، وأنا لاأجتمع بك إلا أن أرى مايقارب فصل الحال ، وقرر مع الملك العادل أن رأى مايمكن معه فصل الحال وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف. فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء مايفصل الحال عليه ، فكتب تذكرة فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها ، وأن نعطي صليب الصلبوت ، ويكون لهم في القمامة قس ، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لايحملوا السلاح ، وكان الحامل على ذلك ماأخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة ، وكثرة الديون والبعد عن الأوطان ، فإن من الناس من كان لايفارق السلطان ، ولايمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم وصل كتابه من بيسان يخبر أنه لقيه إبن الهمفري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكتار يقول : إنا قد وافقنا على قسمة البلاد ، وأن كل من في يده شيء فهو

له ، فإن كان مافي أيدينا زائدا أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا ، وإن كان مافي أيديكم أكثـر فعلنا كذلك ، ويكون القـدس لنا ، ولكم فيه الصخرة هـكذا كان مضـمون الكتـاب ، فـأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأوا مـن حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل ، وهو مصلحة ، وسـار الجواب إلى الملك العادل في ذلك .

ولما كان حادي عشر ربيع الأول وصل الحاجب أبو بكر ، صاحب الملك العادل ، يخبر أن الانكتار سار إلى يافا مـن عكا ، وأن الملك العادل مارأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جـرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حـاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا ، والبـاقي مناصـفة ، وأن لايكون في البلد منهم مذكور ، وأن تـكون قـرى القـدس وبـاطنه مناصفة ، ثم قـدم الملك العـادل في سـادس عشر ربيع الأول مـن الغور ، ولقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر .

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبـر أن الافـرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأنهم أخذوا منهم زهاءألف رأس غنم ، فعظم ذلك على السـلطان ، وشـق عليه فسير جماعة فلم تلحقه .

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسـولا مـن جـانب المركيس ، يلتمس الصلح من المسلمين ، فاشترط رحمـة الله عليه شروطا منها أن يقاتل جذسه ويباينهم ، ومنها أن مايأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له ، وماناخذه نحن بـانفرادنا يكون لنا ، وماتتفق نحـن وهـو على أخـذه تـكون له نفس البلد ، ويكون لنا مـافيه مـن أسرى المسـلمين وغير ذلك مـن

الأموال ، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته ، ومنها إن فوض الانكتار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ماا ستقر بيننا وبين الانكتار ، وماعدا عسقلان ومابعدها فإنه لايدخل في الصلح .

وتكون الساحليات له ، وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط مناصفة ، وسار رسوله على هذه القاعدة ، ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الأول ، وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، ووصل جريدة مقدما على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، دخل على السلطان بغتة ، وعنده أخوه الملك العادل ، فنهض له واعتنقه، وسر به سرورا عظيما ، وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو ، وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكتار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل أن يسير الى قاطع الفرات ، ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، ودخل في إمرة الملك العادل وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث في أمره ، وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظا عظيما ، وكيف يكون هذا الأمر من أهله ، ولم يكن أحد من أهله خاف منه ، ولاطلب يمينه ، وهذا كان السبب في توقف الانكتار في الصلح فإنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الغزاة ويحوجه إلى الموافقة على مايرضاه ، فأنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة أن أخاه إن احتاج إلى معونة عاونة ، وجهزه بحملة كبيرة ، وسار

باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب ، وأكرمه أخـوه الملك الظـاهر إكراما عظيما وعمل له ضـيافة تـامة ، وقـدم بين يديه تقـدمة سنية ، وعدنا إلى حديث العدو .

ذكر عود رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر مـن سـنة ثمـان وثمـانين وخمسمائة ، وصل يوسف مـن جـانب المركيس يجـدد حـديث الصلح ، ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الافرنجية فإن نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيسية في البحر ، وأن تـأخر بـطل الحديث في الصلح بالكلية فرأى السـلطان الصـلح مـع المركيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصـل ابـن تقي الدين ببكتمر فيحـدث مـن ذلك مـايشغل الخـاطر عن الجهاد ، فأجاب إلى ملتمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ماتقدم وسار يوسف الرسول تاسع ربيع الآخر .

ذكر قتل المركيس

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من العدل الرسول المنفذ إلى المركيس كتاب ، أن المركيس قتـل ، وعجـل الله بـروحه إلى النار ، وكانت صـورة قتله أنه تقـدم يوم الثـلاثاء ثـالث عشر عند الأسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان مـن أصـحابه بـالسكاكين وكان خفيفا من الرجال ، فمازالا يضربانه حتـى عجـل الله بـروحه إلى النار ، وأمسك الشخصان وسئلا عن هـذا الأمـر ومـن حضـهما عليه ، فقالا : إن الانكتار حملنا عليه وقـام بـالأمر اثنان فحفـظا القلعة إلى إن اتصل الخبر بالملوك ، وانعقد الأمر وتدبر المكان .

ذكر تتمة خبر الملك المنصور وماجرى له

وذلك أنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أنفذ إلى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ، ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط ، وإما حماة ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة أخوته ، فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه إلى شيء عن ذلك ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت شجرة رأفته فرجع إلى خلقه النبوي ، وحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات اعطي المواضع التي اقترحها ، ويكفل أخوته ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ، ودخلت تحت ضمان الملك العادل ، ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانيا ، ولج عليه ، فمزق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر ، وانفصل الحال ، وانقطع الحديث ، وكنت المتردد بينهما في ذلك ، وأخذ الغيظ السلطان ، كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب أولاد أولاده .

ذكر قدوم رسول ملك الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتقي بالاحترام والاكرام ، ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر ، وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها صليب الصلبوت ، ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس ، ومنها أن يكون الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه ، وأن يوافق على قصد جزيرة قبرص ، فأقام عنده يومين ، ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية ، وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل إن

الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي ألف دينار ، فلم يجب الى ذلك .

ذكر ماجرى للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل ، رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين ، وقد كثر الحديث في معناه ، وأذنني السلطان لمشاورة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعتهم في خدمته فذكرت لهم ماأرسلني فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء الجواب ، وقال : نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي ، وربما حمله خوفه أن انضاف إلى جانب آخر ، ونحن لانقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أراد أننا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا إلى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه ، وأن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم ، وهذا كان جواب الجميع ، فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين ، وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة .

ثم أن الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد استقلاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر مااستقر أنه يسلم تلك البلاد ، وينزل عن كل ماهو شامي الفرات وماقطعها ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الى القدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضا ، وأخذ خط السلطان بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادى الأولى .

ذكر استيلاء الفرنج على الدارون

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر دستورا ، وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه ، وكان بيد علم الدين قيصر ، وفيه نوابه ، ولما كان يوم تاسع جمادى الأولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارسا ، وكان الانكتار قد استنقذ من نوبة عكا نقابين جبليين ، فتمكنوا من نقب المكان ، وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان ، فلم يمهلوهم واشتدوا في القتال عليه ، فأخذوه عنوة ، واستشهد فيه من قدر الله له ذلك ، وأسر من قدر له ذلك ، وكان ذلك (قدرا مقدورا) (٤٤)

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا بعد أن قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي ، وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جمادي الأولى ، فأقاموا عليه ، ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة ، وخلفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر اسلامي ، فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كند مذكور ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، كان سبب قتله أنه وقع رمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب ، وانضم إليهم من عكا خمسون ، وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، وقتل من العدو خمسة عشر نفرا ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين ولله الحمد .

ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد

ولما رأى السلطان ماجرى من العدو من التبسط ، سير إلى العساكر من سائر الأطراف أن يسابقوا إلى الحضور ، وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان ، فلقيه السلطان واحترمه ، ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادى الأولى بعسكر حسن وآلات جميلة ، ففرح به السلطان .

وأما العدو فإنه رحل من الحسي ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان ، وطريق إلى بيت جبرين وإلى غير ذلك من الحصون الاسلامية ، ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء السمين ، وبدر الدين دلدرم ، وابن المقدم ، وتتابعت العساكر وتخلف هو في القدس لنوع التياث كان عرض له ، فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر الاسلامية عاد خائبا خاسرا ناكصا على عقبيه ، ووصلت الكتب من الأمراء مخبرين برحيل العدو إلى عسقلان .

ذكر تعبية العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، وصل قاصد من العسكر يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم ، وخيم على تل الصافية ، فسير السلطان إلى العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها ، واستدعى الأمراء جريدة إليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية إلى جانب النطرون فنزل شماليه ، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الأولى ، وكانت قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، وصلوا إلى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وتواترت الأخبار من جانب العدو أنه مقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم مايحتاجون إليه ، قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم تحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح .

ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين جبال يبنا بينه وبين القدس مرحلة

رحل العدو من النطرون يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الأولى ونزلوا ببيت نوبة ، ولما عرف السلطان ذلك استحضر الأمراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي ان تقسم الاسوار على الأمراء ، ويخرج ببقية العسكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا ، فان دعت

الحاجة إليهم خـرجوا وإن دعت الحـاجة إلى مـلازمة مـواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء .

وكانت طريق يافا سـابلة لمن ينقـل الميرة إلى العـدو ، فـأمر السلطان من في اليزك أن يعمل معهم مايمكنه ، وكان في اليزك بـدر الدين دلدرم ، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة ، فمر بهم جمع خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهـم ، فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل منهـم ثلاثون نفرا وأسر جماعة ووصل الأسارى في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى القدس وكان لدخـولهم وقـع عظيم وجـرى على العدو من ذلك وهن كبير ، وقويت قلوب اليزكية ، وانبعثت هـممهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا إلى أطراف الخيم ولله الحمد .

ولما علم المسلمون أن القوافل لاتنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرة وكمنوا كمينا واجتـازت القـافلة ومعهـا جمـاعة كثيرة ، فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فـانحدروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتـراك عليهـم فـأخذوا منهم وقتلوا ، وجرح من الأتـراك جمـاعة وذلك في ثـالث جمـادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى

وذلك أنه كان قد تقدم إلى عسـكر مصر بـالمسير ، وأوصـاهـم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهـم بالعدو ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يترقب أخبـارهـم ، ويتـوصل إليهـا بـالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجـل بـالاحتياط

والتحفظ ، وسار حتى دنا من تل الصافية ، فبات ثم سار حتى أتى تل الصافية ثم علق على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال له الحسي ، واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فأنفذ بنذير للقافلة ، وكان المندوب لذلك الأمير أخر أسلم ، والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالقافلة في البرية ، ويتباعدوا من العدو ماأمكن ، فاتفق أن العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو إليه فلم يقيموا عليه ، وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصري ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بأنهم لم يجدوا فيه ذاعرا ، ولاأحسوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قرب الطريق ، وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا إلى ماء يقال له الخويلفة ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسي فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل ، لأمه فأشار أسلم بالمسير ليلا قطعا للطريق واستظهارا بالصعود الجبل ، فخاف فلك الدين أنه إن رحل بالليل جرى أمر على القافلة لتبددها فنادى في الناس أن لايرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكتار فبلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدقه ، وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبغت الناس ، ووقع عليهم بخيله ورجله ، وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانهزم الناس إلى جهة القفل .

والعدو يتلوهم ، فلما رأوا القفل أعرضوا عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة اقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة العرب أيضا ، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ماكان معهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة .

وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي ، وفلك الدين ، وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين ، وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير ، فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى ، وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ماأمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال ، وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ، ثم سار حتى أتى الحسي ، ولقد حكى لي من كان أسيرا معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن عسكر السلطان قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة ، وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ، ولما انكشف لهم إن العسكر لم يلحقهم عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين ، وكان الحاكي منهم ، فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثة آلاف ، والأسارى خمسمائة ، وتقرب من ذلك عدة الخيل .

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ، ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة ، وكنت جالسا في خدمته ، وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية ، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ، ولاأكثر تشويشا لباطنه ، وأخذت في تسكينه وتسليته ، وهو لايكاد يقبل التسلية .

وكان أصل هذه القضية أن الأمير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا الجبل فلم يفعلوا ، فصعد هو وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم يصل إليه أحد من العدو ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة الافرنج ، وأقام الرجالة منهم يستولون على ماتخلف من المسلمين من الأقمشة ، ولما تحقق الأمير

أسلم أن الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل إليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد .

ثم سار العدو يطلب خيامه ، فكان وصوله إلى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرى ، وكان يوما عظيما عندهم ، وأظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطأة على بيت نوبة ، وصح عزمهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة ، وأنفذوا الكند هري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس ، ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد إلى الأسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه بظاهر القدس ، وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا ، وأطنب في ذلك أطنابا عظيما ، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر بها فيها ماء معين لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب ، وسير إلى العساكر يطلبها من النواحي والبلاد .

ذكر قدوم الملك الأفضل وأمره بالعود عن تلك البلاد وكان قد وصل إلى حلب المحروسة

ولما وصل أمر السلطان إليه بالعود عاد مع إنكسار في قلبه وتشويش في باطنه ، فوصل إلى دمشق مستغتبا ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر ، فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق ، وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى

الأخرى ، ولقيه السلطان قريبا من العازريه ، فترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لأمره ، وسار في خدمته أخوه الملك الظافر ، وقطب الدين إلى ظاهر القدس.

ذكر عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى استحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت مايسره الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والاسلام »

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله لايرجع أحد

منا عن نصرتك إلى أن نموت فقال : الجماعة مثل ماقال ، فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا ، وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام ، حتى كانت العشاء الآخرة ، وجميعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضى من الليلة هزيع وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء ، وكانت العشاء هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني فلما جلست في خدمته ، قال لي علمت مالذي تجدد ؟ قلت : لا ، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إلي اليوم وقال : إنه اجتمع عنده جماعة من المماليك وأنكروا علينا موافقتنا على الحصار ، وقالوا لامصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحضر ويجري علينا مثل ماجرى على عكا ، وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي أن نلقى مصاف ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى يسلم العسكر ويمض القدس ، وقد حفظ الاسلام بعساكره مدة بغير القدس ،

وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة وأقمت تلك الليلة في خدمته ، وهي من الليالي التي أحييتها في سبيل الله .

وكان مما قالوه في الرسالة : إن أردت أن نقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك ، وإلا فالأكراد لايدينون للأتراك ، والاتراك كذلك ، فانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فروخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ، ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام ، فلما أن قارب الصبح ، وأشفقت عليه ، خاطبته في أن يستريح ساعة ، وانصرفت عنه ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له : قد وقع لي واقع أعرضه ، قال : وماهو ؟ قلت : من كثر اهتمامه بما قد حمل على

نفسه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، ينبغي له أن يرجع إلى الله ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أبرك أيام الاسبوع فيه دعوة مستجابة ، ونحن في أبرك موضع ، فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لايشعر أحد أنها منه ، ويصلي بين الأذان والاقامة ركعتين يناجي فيهما ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف بالعجز عما تصدى له ، فلعل الله يرحمه ، ويستجيب دعاءه ، وكان حسن العقيدة تام الايمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد .

ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، فصلى ركعتين ، ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاة ، ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك ، وكان في اليزك ، وكان جملة ما فيها : أن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا على التل وقت الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم .

ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى ، يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا ، وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل إلى بلادهم فذهبت الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكتار : إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب ؟ فقالوا له : نشرب من نهر نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال : كيف نذهب إلى السقي ؟ فقالوا : ننقسم قسمين قسم يركب إلى السقي ، وقسم يبقى على البلد في المنازلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة ، فقال الانكتار : إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية .

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم

الثلاثمائة أثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهـم ، وقـد باتوا على حكم الثلاثة ، فما أمروا به فعلوه ، فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم يمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحـادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكسين ، ولله الحمد ، ومضى عسكرهم شـاكيا السـلاح ، ولم يبـق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا الرملة ، وتـواترت الأخبـار بـذلك ، فـركب السلطان ، وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح ، ولكن السلطان ـ قدس الله روحه ـ خاف على مصر المحروسة ، لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكتار مثـل هـذا الحـديث مرارا .

ذكر رسالة الكندهري

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهري يقول إن الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية ، وهـي الآن لي فـأعد علي بلادي حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك ، فغضب السـلطان لذلك غضبا عظيما بحيث أنه كاد يبطش به ، فأقيم من بين يديه ، فسـأل أن يمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك فقال : نقول إن البـلاد في يدك فما الذي تعطيني منها ؟ فانتهره وأقامه .

ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول ، وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ماكان مع المركيس ، ثم وصل بعد ذلك إلى الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الأفرنج وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له : قل لصاحبك إنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ولا ينبغـي أن تعتقد أن ذلك لضعف مني ، بل للمصلحة ، ولاتغتر بتـأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح ، وأن يكون هو الواسطة بينهـم وبين السلطان ، وأنفذ مع الحـاجب شـخصين يسـمعان الكلام مـن المشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام في إطلاق بهاء الدين قـراقوش

وباطنه في معنى آخر ، وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا ، وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر ، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب إلى الكندهري : أن نعطي عكا ، ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد .

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكرا خشية خروج العدو إلى النواحي التي تليها ، فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على مايليها من البلاد والرساتيق ، فثارت عليهم الكمينات من الجوانب ، وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم ، فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ولله الحمد .

ذكر عود رسولهم في معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب ، وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهي أن ملك الانكتار يقول : إني راغب في مودتك وصداقتك ، وأنه لايريد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولايظن ذلك فيك ، ولايجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولايجوز لي أن أهلك الافرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشذق سمعوا وأطاعوا ، ويقول : إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني قرية أو خربة قبلتها .

فلما سمع السلطان هذه الرسالة ، جمع أرباب الرأي وأصحاب

مشورته ، وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة ، فما منهـم إلا من أشار بالمحاسنة ، وعقد الصلح لما كان قد أخـذ المسـلمون مـن الضجر والتعب وعلاهم مـن الديون ، واسـتقر الحـال على هـذا الجواب :

إنك إذ دخلت معنا هذا الدخـول فمـا (جـزاء الاحسـان إلا الاحسـان (٤٥)) إن ابـن أختـك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ماأفعل معه ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهـي القمامة، وأما بقية البلاد فنقسمها : فالساحلية التـي بيدك تـكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، ومابين العملين يكون مناصـفة ، وعسـقلان ومـاوراءها يكون خـرابا لالنا ولالكم ، وإن أردتم قـراها كانت لكم ، والذي كنت أكرهـه حـديث عسقلان .

وانفصل الرسول طيب النفس ، في ثاني يوم قدومه ، وهو الثامن والعشرون ، واتصل الخبر بعد وصول الرسول إليهم أنهـم راحلون إلى عسقلان ، طالبون جهة مصر ، ووصل رسول من جانب قـطب الدين بن قليج أرسلان أن البابا قد وصـل إلى القسـطنينية في خلق لايعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقال الرسول : إني قتلت في الطـريق اثني عشر فارسا ، ويقول تقدم إلى من يستلم بلادي مني فإني قـد عجزت عن حفظها ، فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به .

ذكر عود رسول الأفرنج ثالثا

ولما كان التـاسع والعشرون ، وصـل الحـاجب صـاحب المشطوب ، ومعه جفري رسول الملك ، فقال إن الملك شـكر إنعـام السلطان وقال : إن الذي أطلبه منك أن يكون لنا في القدس عشرون رجلا ، وأن من سكن من النصارى والأفرنج لايتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم .

وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ، ماعدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح وأن الانكتار لابد له من الرواح إلى بلده ، وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان .

فاستحضر الأمراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة ، وانفصل الحال على هذا الجواب ، وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، فقال الرسول : وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم ؟ فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد كعسقلان وماوراءها فلا بد من خرابه ، فقال الرسول : قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فقال المشطوب للسلطان : المصلحة أن تجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها ، فأجاب : وأن الدارون وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة ، وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة ، هكذا جواب رسالته ، وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ، ومعه الحاجب يوسف ، وكان قد طلب رسولا مذكورا يحلفه إن استقرت القاعدة ، فأخر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هدية في مقابل هديتهم ، وماكان يغلب في الهدايا .

ذكر عود الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب ، فحضر الحاجب ليلا ، وأخبر السلطان الخبر ، وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة ، وهي : إن الملك يسأل ويخضع لك ان تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها في ملكك وعظمتك ؟ وما من سبب لاصراره عليها إلا إن الافرنج لم يسمحوا بها ، وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولاقسوس إلا في القمامة وحدها ، فأنت تترك هذه البلاد ، ويكون

الصلح عاما ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الدارون إلى أنطاكية ، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، وإن لم ينتظم الصلح فالأفرنج لايمكنونه من الرواح ، ولايمكنه مخالفتهم ، فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى ، وكان لعنه الله مضطرا إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطراره ، والله الولي في أن يقي المسلمين شره ، فما بلونا أعظم حيلة ، ولاأشد اقداما منه .

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الأمراء ، وأرباب الرأي من دولته ، وسألهم عن الجواب مايكون فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، وهو :« إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ، ورسلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه وان كانت لاقدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ماخسر عليه لدا في الوطأة » وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب . .

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره ، وكان كثير المحبة له والايثار لجانبه ، لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك ، فخرج السلطان إلى لقائه فلقيه من قاطع العازرية ، ونزل له عند لقائه ، واحترمه وأكرمه وضمه إليه وقبله بين عينيه ، ونزل في دار الاسبتار .

ولما إن كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : لايمكن أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ولامناكرة فيها ، وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وأظهر القوة ، وشدة العزم على اللقاء .

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان أن الأفرنج رحلوا طالبين نحو بيرت فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الحادي عشر ، فدخل الصخرة وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان ، ثم إن السلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، وبعث إلى العسكر في القدس يحثهم على الخروج واللحاق به ، ولحقت السلطان في بيت نوبة فإني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل في يوم الأحد الثالث عشر إلى الرملة ضحوة نهار على تلال بين الرملة ولد ، فأقام بها بقية الأحد ، ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جبرين ، فأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا ، واتفق الرأي على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا ، فخيم عليها ضحوة النهار ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان طرف الميمنة على البحر ، وطرف الميسرة على البحر ، والسلطان في الوسط ، وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره ، وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما .

ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس إليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ، ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب

الشرقي ، وشرع النقابون في السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف ، فأخذ النقابون النقب من شمالي الباب الشرقي إلى الزاوية بطول البدنة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول وبناه الأفرنج ، وتمكن النقابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم ، هذا وأمر العدو في ازدياد ، وكان الملك قد توجه من عكا الى بيروت ، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ، ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ماأضعف قلوب الناس ، هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم ، فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم فخسفوه في مواضع عدة ، وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان في تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل ثلثه ، وعاد إلى الثقل ، وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالته ، وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار ، وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس إلا الفتور ، بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم أن المنجنيق لايعمل إلا بعد أيام ، ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف ، فالتحم القتال واشتد الأمر ، وأذاقوا العدو مر الحرب ، فأشرف البلد على الأخذ وأيقنت النفوس به وطمعت في ذلك طمعا شديدا ، وضعف العدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد ، فمنهم : الحاجب أبو بكر ، وختلخ — والي بعلبك — وأصيب بعينه وطغرل الساجي ، وقد استقر في وجهه ، وهما من مقربي المماليك وأناز جركس في يده ، وهو من كبارهم .

ولما رأى العدو المخذول ماقد حل به أرسل رسولين نصرانيا

وأفرنجيا يطلبان الصلح ، ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم النجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الإنظار ، فعاد الرسول ، ثم رجعوا يسألونه الإنظار ، فأبى ذلك ، وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا إلى الدعة على جاري العادة ، فأمر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ، ففعلوا ذلك ، ووضعت النار فيه فوقع نصف البدنة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار في النقب ، وعلم إن ذلك المكان يقع فعمد إلى أخشاب عظيمة وهيأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فمنعت من الدخول إلى الثلمة ، ثم أمر السلطان الناس فزحفوا ، وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، فلله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لهم بابا ، ولم يزالوا يقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين ، ولم نقدر على البلد في ذلك اليوم حتى بعد حرق النقوب في باقي البدنة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجبهم إلى الصلح، وبات تلك الليلة في المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، تضرب بعضها البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وماجرى فيه من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأودية والأماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك المكان ، وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عز نصره زحفا شديد ، وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة ، فإنه كان مريضا وارتفت الأصوات وضربت الكوسات ، ونعقت البوقات ، ورمت المنجنيقات ، وأحاط بهم

الويل ، وا شتد عزم النقابين في إيقـاد النار فمـا مضى مـن النهـار ساعتان إلا ووقعت البدنة ، وكان وقعهـا كوقـع الواقعـة ، ونادى الناس ألا أن البدنة قد وقعـت فلم يبـق مـن له أدنى إيمـان إلا وزحف ، ولاقلب من العدو إلا أرعد ورجف ، هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم ، وذلك أنها لما وقعـت علالها دخان وغبار ، وأظلم الأفق وعميت عين النهار ، ومـاتجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار ، فلمـا اذكشـفت الظلمـة ظهرت اسنة قد نابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة حتـى غيبت نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما مـن صـبر القـوم وثباتهم ، وسداد حـركاتهم وسـكناتهم ، ولقـد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق عليه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصـديا لمثل مالحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون ، بحيث لم يفـرق بينهما فارق .

ولما رأى العدو ما آل الأمر إليه سـيروا رسـولين إلى السـلطان يلتمسون الأمان فقال رحمه الله الفـارس بـالفارس ، والتـركبلي بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز على قطيعه القـدس ، فنظـر الرسول فرأى القتال على الثلمة اشـد مـن إضرام النار ، فسـأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعـود ، فقـال : لاأقـدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن أدخل إلى أصحابك فقل لهم يتجـاوزوا إلى القلعة ويتركوا الناس يشـتغلون بـالبلد ، فمـا بقـي دونه مانع ، فعاد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العدو إلى قلعة يافا بعـد أن قتل منهم جماعة عظيمة ، ودخل البلد عنوة ونهبـوا منه أقمشـة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش ، مما نهب من القافلة المصرية ، واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان .

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قـايماز النجمي ، وكان في طرف العدو لحمايته مـن عسـكر العـدو الذي في

عكا ، يخبر فيه أن الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغنم بوثبهم عليه ، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على إخراج العدو من القلعة ، وتسلمها خوفا من لحوق النجدة ، وكان السلطان يشتهي خروجه غير أن الناس قد اقعدهم التعب عن إتمام الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار ، بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان يحثهم إلى هوي من الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار إلى خيمته إلى الثقل وسار الناس إلى خدمته ، ثم نزل في خيمته ، وعدت إلى خيمتي ، وعندي من الخوف ماأقلقني عن النوم .

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الأفرنج قد نعق ، فعلمنا بوصول النجدة ، قد وصلت في البحر ، فاستدعاني السلطان من وقته ، وقال : لا شك إن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم من النزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر ، وتقول له أن يقف بظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجوا القوم وتستولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها إلي وسير معي لتقوية اليد على ذلك عز الدين جرديك ، وعلم الدين قيصر ، ودرباس المهراني ، فسرت من ساعتي ، ومعي شمس الدين عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر ، وهو نائم على شقته على تل قريب البحر في اليزك ، وعليه كراغندة ، وهو بلأمة حربة ، فلاضيع الله صنعهم في نصرة الاسلام ، فأيقظته فقام والنوم في عينيه ، وسرت في خدمته ، وهو يستفهم مني رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ، ودخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة ، وأمرنا الأفرنج بالخروج فأجابوا إلى ذلك وتهيأوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ذلك في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين .

ولما أجابوا إلى الخروج قال عز الدين جرديك لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفهم الناس ، وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد ، وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار وأنا الومه وهو لايرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت الوقت كاد يفوت قلت له : إن النجدة قد وصلت ، والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، والسلطان قد أوصاني بذلك ، فلما عرف السبب في حرصي أجاب إلى إخراجهم ، ومضينا إلى باب القلعة القريب من الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا تسعة وأربعين نفرا بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون وحدثتهم نفوسهم بالعصيان ، وكان سبب خروج من خرجوا انهم استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكتار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم أمارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجذويات وعلوا على الأسوار ، وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفا عليه ، وهو ملاصق لباب القلعة ، وقلت لعز الدين جرديك ، وهو مع عسكره في الأسفل مع جمع من الأجناد : خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر إلا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد وأخرجوا من كان في البلد من

الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ، وسيرني الملك الظاهر إلى والده السلطان أعرفه بالحال ، فأمر الجاويش أن ينادي في العسكر ، وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة ، فأيقنوا بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان (٤٦) وكان ذا خلقة هائلة رسولين إلى السلطان يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى فخرجا إلى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ، ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فإنها بلغت نيفا وخمسين مركبا ، منها خمسة عشر شانيا فيها شاني الملك علموا أن النجدة ظنت أن البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكانت رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر، فخرج له شاني وأخذه إلى شاني الملك فحدثه بالحديث ، فلما شعر الانكتار أن القلعة مع أصحابه ، اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه ، وكان أحمر ورقبته حمراء ، وبيرقه أحمر ، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحتي فرس فسقته إلى السلطان وأخبرته الخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان فعرفته في إذنه ماجرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح في الناس ، فركبوا وقبض على الرسولين ، وأمر بترحيل الثقل والأسواق إلى يازور ، فرحل الناس ، وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من

يافا لم يقدوا على نقله ، ورحل الثقل ، وبقي السلطان جريدة في الليل ، وبات ليلته هناك ، وخرج الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه معظم سواده ، فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة .

ذكر حديث الصلح

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وحضر عندهم أيبك العزيزي ، وسنقر المشطوبي وغيرهم ، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة، وكان قد صادق من الأمراء كبدر الدين دلدرم وغيره ، فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ، ومن جملة ماقاله هذا السلطان عظيم ، ومافي هذه الأرض للاسلام أكبر ولاأعظم منه ، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي ، والله مالبست لأمة حرب ، ولاتأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر فكيف تأخر ؟! ثم قال والله العظيم الكريم ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين ، ثم قال لأبي بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادي وراء البحر ، ومافي دوام هذا مصلحة لالنا ولالكم .

ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان ، وعرفه ماقاله ، وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب ، فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب هو :« إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور إلى قيسارية » فمضى إليه وعرفه ماقال فرده إليه ومعه رسول أفرنجي وقال يقول : « ان قاعدة الافرنج أنه إذا

أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلي وصلت اليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي » فكان جواب السلطان : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك بأن نجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وماوراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها » ثم سار الرسولان ورحل السلطان إلى الثقل ، وكان المخيم بيازور ورتب النقابين لذلك واليزك عندهم ، وسار حتى أتى الرملة فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر ، فأمر بإكرامه والاحسان إليه ، وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا ، وتجديد السؤال في عسقلان ويقول : إنه إن وقع الصلح في هذه الايام سار إلى بلاده ، ولايحتاج أن يشتي هاهنا ، فأجابه السلطان في الحال بقوله :« أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيته هاهنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضا إذا أقام إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل علي أن اشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي ، ويأتي إلي ماأريد ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني ، والعسكر الذين يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف ، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات ، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء »

فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأذن له في ذلك فسار إليه مع جماعة ، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا للانجاد ، فجمع أرباب الرأي ، وعقد مشورة في قصدهم ، فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل إلى الجبل ويقصدونهم جريدة ، فان لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا عنهم ، وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر

العدو ، ونرحل إلى الجبل في صورة منهزمين ، وأما إذا وصلنا الآن ففي صورة طالبين ، فأمر السلطان الثقل أن يسير إلى الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب ، وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء ، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه إن الانكتار ، قد نزل خارج يافا في نفر يسير بخيم قليلة ، فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضا ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق إلى أن أتى في الصباح الى خيام العدو فوجدها تقريبا عشر خيم ، فداخله الطمع ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب فارتاعوا فوجموا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة ،

ولقد حكى لي بعض الحاضرين ، فإني كنت تأخرت مع الثقل ، ولم أحضر هذه الوقعة لالتياث مزاجي ، أن عدة الخيل كان يحرزها المقل سبعة عشر ، والمكاثر تسعة عشر ، والرجال دون الألف فمن قائل ثلاثمائة ، ومن قائل أكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الأطلاب يحثها ، فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان في قلوب العسكر من صلح يافا غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة ، وماكان كان وجرى ماجرى وأثر هذا الأثر .

فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة في حقه ، وقد بلغني إن الانكتار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له أحد ، فغضب السلطان ، ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور كالمغضب ، ونزل وذلك في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب ، وبات العسكر باليزك ، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون ونزل به ، وأنفذ إلى العسكر فأحضره

عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس الرابـع والعشرين ، فبـات به ، ثم أصبح يوم الجمعة فسار إلى أخيه العادل يفتقـده ، ودخـل القدس ، وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم العساكر

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصـل ، وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين مـن رجـب ، فلقيه السلطان عن بعد ، واحترمه وأكرمه وانزله عنده في الخيمة ، وعمل همة حسنة ، وقدم له تقدمة جميلة ، ثم سار إلى خيمته

وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم ، فـان الملك العـادل قـد حمله رسالة مشافهة إلى الملك ، وعاد مع الحـاجب أبـي بـكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السـلطان في ذلك اليوم وأخبـره أن الملك لم يتركني أدخل يافا ، وخرج إلي وكلمني في ظـاهرها ، وكان كلامه إلي : كم أطرح نفسي على السلطان ، وهو لايقبلني وأنا كنت أحرص أن أعود الى بـلادي والآن قـد هجـم الشـتاء ، وتغيرت الأنواء ، وقد عزمت على الاقامة ، ومابقي بيننا حديث هـكذا كان جوابه خذله الله تعالى .

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسـكر مصر ، فخـرج السلطان إلى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدين هلدري ، وسيف الدين يازكج ، وجمـاعة الأسـدية ، وكان في خـدمته الملك المؤيد مسعود ، وقد أظهروا الزينة ، ونشروا الأعلام والبيارق فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنده ، ومـد الخـوان ، ثـم سـاروا إلى منازلهم .

ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التي وعد بها ، وكان وصوله إلى خدمة الملك في يوم السبت حادي عشر شعبان ، فنزل عنده بماء صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل في ذلك اليوم إلى السلطان يخبره بوصوله ، وسأله في احترامه وإكرامه وإطلاق الوجه له ، ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه ، وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة فنزل عنده وخرج إلى لقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، وأخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه فاحترمه ونهض إليه ، فاعتنقه وضمه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر ، وغشيه من البكاء مالم ير مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في خيمة الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جليل ، فقرت عين السلطان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت ، جمع أرباب الرأي وقال : ان الانكتار قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير إلى يافا فإن وجدنا فيها مطمعا بلغناه ، والا عدنا تحت الليل إلى عسقلان فما تلحقنا النجدة إلا وقد نلنا منها غرضا فرأوا ذلك رأيا ، وتقدم إلى جماعة من الأمراء كعز الدين جرديك ، وجمال الدين فرج وغيرهما

بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان ، حتى يكونوا قريبا من يافا في صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ، ثم يعرفونه ذلك فساروا ، هذا ورسل الانكتار لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل ، والذي انكشف من الأخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ، ومئتي فارس علي قول المقل ، وأن الكندهري يتردد بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا ، وأنهم لاعناية لهم بسور البلد وإنما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكتار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وكان له معه انبساط عظيم .

فلما تحقق السلطان الأخبار أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ، ووصل الخبر من المغيرين يقولون إنا أغرنا على يافا فلم يخرج إلا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال ، فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على إنعامه بالفواكه والثلج ، وذكر أبو بكر أنه تفرد به ، وقال له : قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ، ويستوهب لي منه عسقلان ، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الافرنج وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ، فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها .

فلما سمع السلطان ذلك سيرهم إلى الملك العادل وأسر إلى ثقة عنده أن يمضي إلى الملك العادل ويقول له إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجروا ملازمة البيكار (٤٧) ، والذفقات قد ذفدت ، فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان .

ذكر الاجابة إلى النزول عن عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور ، انفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول : بإنه قد خرج إلينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا ان لهم معنا حديثا ، فهل أسمع حديثهم أولا ؟ فأذن له السلطان في ذلك ، ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر أن حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ، وقد صح مقصوده في الصلح ، فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ، ويقول : إن السلطان قد جمع العساكر ومايمكنني أن أحدثه هذا الحديث إلا بأن أثق أنك لاترجع ، وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى .

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، أنفذ بدر الدين ، وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به ، وأن حدود البلاد على مااستقر في الدفعة الأولى مع الملك العادل ، فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج الرملة ويبنا ومجدل يابا ، ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها ، وحيفا وأعمالها ، وعكا وأعمالها ، واخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب ، وأنفذه على يد طرنطاي مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتم يدي ، وليذفذ الملك من يحلف ويكون ذلك في غداة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ، ويكون الأمر قد انفصل من بيننا وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الأحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول ، واستأذن في حضورهما فأذن رحمه الله في

حضور طرنطاي وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأذكر أنه نزل عن العوض ، فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك ، فقال إذا أنا قلته فلا أرجع عنه ، قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة ، وقد رجعت إلى مروءتك فإن زدتني شيئا فمن فضلك وانعامك ، ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا إلى بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الأمر ، وانفصلت القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين دلدرم إلى الملك العادل ، وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة ، وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتب المواضعة ، وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ، ويزاد فيها الرملة لهم ولد ايضا ، وسير العدل وقال له : ان قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتهما فافعل ، ولايكون لهم حديث في الجبليات ، ورأى السلطان ذلك مصلحة لما عرا الناس من الضعف ، وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا فخاف أن يحتاج إليهم فلايجدهم فرأى أن يجيبهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا إليها ، ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها .

وكان من القاعدة أن عسقلان تكون خرابا ، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها ، فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك ، وسارت الرسل وحكم عليهم أن لابد من فصل الحال اما الصلح وأما الخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل احاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة .

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبذل الطاعة والموافقة وسير العساكر ، وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيارات التي لهم في القدس وعمارتها ، وشكوا أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان أن يردها إلى نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم ، فقال:لاطاقة لي بالوقوف عليها وأنا قد صالحت وهذه يدي ، فاجتمعوا بالكندهري والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة ، وبجميع ما في النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء لأنهم كانوا قد أكلوا شيئا ، وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر أن الملوك لايحلفون وقنع السلطان بذلك ، ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهري ابن أخته ، المستخلف عنه في الساحل ، وباليان بن بارزان صاحب طبرية ، ورضي الاسبتار والداوية وسائر مقدمي الأفرنجية بذلك ، وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم ابن الهذفري وابن بارزان ، وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا ، وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكى ماجرى .

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة

السلطان ، وأخذوا بيده الكريمة، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة ، واقترحوا حلف جماعة ، وهـم : الملك العـادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، عز نصرهـم ، والمشطوب وبـدر الدين دلدرم ، والملك المنصور ، ومن كان مجاورا لبلادهم : كابن المقـدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا إلى الجماعة المجاورين ليحلفـوهم لهـم ، وحلف لصـاحب انطـاكية وطرابلس ، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفـوا فلا يدخلوا في الصلح .

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق إلا أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخـل الى بـلادنا فليفعل ، ومن شاء مـن بـلادنا أن يدخـل إلى بـلادهم فليفعل ، وأشار ـ رحمة الله عليه ـ أن طريق الحج قد فتـح مـن الشام ، ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، وأمر السلطان أن يسير مـائة نقـاب لتخـريب سـور عسقلان ، معهم أمير كبير، ولاخراج الافرنج منها ، ويكون معهـم جماعة من الافرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامرا .

وكان يوما مشهودا غشي الناس من الطـائفتين فيه مـن الفـرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى ، والله العظيم إن الصـلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي في بعض محاورته في الصـلح : أخـاف أن أصالح ، وماأدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العـدو ، وقـد بقيت لهم هذه البلاد، فيخـرجوا لاسـترداد بقية بـلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجمـاعة قـد قعـد في رأس قلتـه ، يعني حصنه ، وقال : لاأنزل فيهلك المسلمون ، هذا كلامه ، وكان كمـا قال ، لكنه رأى المصلحة في الصـلح لسآمـه العسـكر وتـظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقـت وفـاته

بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعادة له .

ذكر خراب عسقلان

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان ، وسير معه جماعة من النقابين والحجارين ، واستقر أن الملك يذفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ، ويخرج الافرنج منها ، فوصلوا إليها من الغد ، فلما أرادوا التخريب اعتذر الأجناد الذين بها بأن لنا على الملك جامكية لمدة ، فإما أن يدفعها إلينا ونخرج أو ادفعوها أنتم إلينا فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ، ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان ، واستمر يخربها ، وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب ، وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور ، وقيل له دستورك في تخريبها .

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان إلى النطرون ، واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الافرنج ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح أن لايؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابه ، وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم ، واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم في كل يوم جموع كثيرة مقدمون ، وأوساط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان في إكرام مــن يرد ومــد الطعــام ومبـــا سطتهم ومحادثتهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بـأن قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم ، ثم اشتد المرض بـالملك فـرحل في ليلة التـاسع والعشرين وسار هو والكندهري وسائر العدو الى جانب عكا ، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ونفر يسير .

ذكر عود العساكر الاسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الامر استقرت القواعد ، وأعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر إربل ، فإنه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثانية عســكر الموصــل وســنجار والحصن ، وأشاع أمر الحـــج ، وقـــوى عزمـــه على بـــراءة الذمة ، وكان هذا مما وقع لي ، وبدأت بالاشارة به فوقع منه موقعا عظيما ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت إسمه ، حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق ، وكتب جـرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغيرها ، وسيرها إلى البلاد ليعدوها .

ولما أعطى الناس دستورا ، وعلم عود العدو مدحورا ، إلى ورائه رأى الدخول إلى القدس الشريف ، لتهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للمسير إلى الحج ، فرحل من النطرون يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل ، فوجده قد سار إلى القدس، وكنت عنده رسولا من جـانب السلطان أنا والأمير بدر الدين دلدرم ، والعدل ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه ، وكان قد تماثل فعرفناه مجـيء الســلطان إلى ماء صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتـى لقيه

في ذلك المكان ، وهـو أول وصـوله إلى مـاء صـمويل ولم ينزل بعد ، فلقيه ونزل ، وقبل الأرض ، وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعـا حتـى أتينا القـدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضـان صـلى الملك العادل الجمعة ، وانصرف إلى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ، ويعود إلى البـلاد الشرقية يدبـرها فإنه كان قـد أخذها من السلطان ، وكان قد ودع السلطان ، فلما وصل العازرية نزل بها مخيما ، فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصـل إليك فأنفذ إلى السلطان وعرفه فـذكر له أن يجتمـع ويطـالع مـا وصل فيه ، فلما كان السـبت الرابـع والعشرون دخـل إلى الخـدمة السلطانية ، وذكر أن الرسول قد وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة الوزارة ببغـداد ، ومقصـود الكتـاب أنه يحثـه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخـول بينه وبين الديوان العـزيز ، والانكار عليه بتـأخر رسـله عن العتبـة الشريفة ، واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منهـا ، وقـد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمـة إذا قـرر ذلك ، وتـكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، ومايشبه هـذا الفـن ، فحـدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويسـتعلم سـبب دخـول الملك العـادل في البين ، وزاد الحـديث ونقص ، وطـال وقصر ، وقوي العـزم السـلطاني على إنفـاذ الضـياء الشهرزوري ، وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقـرير هذه القاعدة وعرفه إجابة السـلطان إلى إنفـاذ رسـول إلى خـدمة الديوان العزيز ، وسـار يوم الاثنين طـالبا جهـة الكرك ، وسـار

الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان .

ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاده ووصية السلطان له

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر ، عز نصره ، بعد أن ودعه ونزل إلى الصخرة فصلى عندها ، وسأل الله تعالى ماشاء ، ثم ركب وركبت في خدمته ، فقال لي : قد تذكرت أمرا أحتاج فيه مراجعة السلطان مشافهة ، فأنفذ من استأذن له العود إلى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني ، وأخلى المكان ، ثم قال : أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فإن الدم لاينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت مابلغت إلا بمداراة الناس ، ولاتحقد على أحد فإن الموت لايبقي على أحد ، واحذر مابينك وبين الناس فإنه لايغفر إلا برضاهم ، ومابينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم ، وكان ذلك بعد إن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضي وهذا ماأمكنني حكايته وضبطه ، ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف ونهض له ليودعه ، فقبل وجهه ومسح على رأسه ، وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان ، وكنا نجلس عنده في الأحيان إلى بكرة وانصرفت في خدمته إلى بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله .

ثم سير الملك الأفضل ثقله ، وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام ، وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغور .

ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف

وأقام السلطان يقطع الناس ، ويعطيهم دستورا ، ويتأهب المسير إلى الديار المصرية وانقطع شوقه عن الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاتته ، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار متوجها إلى بلاده مستهل شوال ، فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، ويفتقد القلاع البحرية إلى بانياس ، ويدخل دمشق المحروسة ويقيم بها أياما قلائل ، ويعود إلى القدس الشريف سائرا إلى الديار المصرية يفتقد أحوالها ، ويقرر قواعدها ، وينظر في مصالحها ، وأمرني بالمقام في القدس الشريف ، لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده ، وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال ، وودعته الى البيرة ، ونزل بها وأكل فيها الطعام ، ثم أتى بعض طريق نابلس فبات فيه ، ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال ، فلقيه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ، ويتضورون من سوء رعايته لهم ، فأقام يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ، ثم رحل ونزل بسبصطية يتفقد أحوالها ، ثم أتى في طريقه الى كوكب ونظر في أحوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره .

وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ، ومثل في الخدمة السلطانية ، ففرح به فرحا شديدا ، وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام ، واستأذن السلطان في المسير إلى تحصيل القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة على مابلغني ثمانين ألفا والله أعلم .

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب انطاكية مسترفدا ، فبالغ في احترامه وإكرامه ومباسطته وأنعم عليه

بالعمق وزرعان ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار ، وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ، ولم يكن واليه ، وإنما كان واليه عز الدين جرديك ، وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده إلى القدس بعد أن شاور فيه الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، على لساني ، وأشار به أهل الدين الصلاح ، لأنه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لأهل الخير ، فأمرني السلطان أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة وليته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضوع حسن اعتقاد السلطان فيه ، وانعقد الأمر ، وقام به القيام المرضي ، وأما المشطوب فإنه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، ودفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى رحمه الله .

ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها وشحنها بالأجناد والرجال ، ودخل دمشق بكرة الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس الناس في بكرة الخميس السابع والعشرين منه ، وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان ، فودعه في تلك الليلة مرارا متعددة وهو يعود إليه ، ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر

فيها من بديع التجمل وغريبة مايليق بهمتـــه ، وكأنه أراد مجـــازاته عما خدمه به حين وصوله إلى حلب ، وحضرها أرباب الدنيا وأبناء الآخرة ، وسأل السلطان الحضور فحضر جبرا لقلبه .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك ، وأمـــر بإصـــلاح مـــا قصد إصلاحه منه ، عاد طالبا البلاد الفراتية ، فوصل أرض دمشـــق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعـــدة وكان الســـلطان قـــد خـــرج إلى لقائه ، وأقام يتصيد حـــوالي غبـــاغب إلى الكســـوة (٤٨) حتـــى لقيه ، وسارا جميعا ، وكان دخولهما إلى دمشـــق آخـــر الحـــادي والعشرين ، وأقام السلطان بـــدمشق يتصـــيد هـــو وأخـــوه وأولاده ، ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الصـــبا ، وكأنه وجـــد راحة مما كان فيه من مـــلازمة التعـــب وســـهر الليل ، ونصـــب النهار ، ومـــاكان ذلك إلا كالوداع لأولاده ، ومـــرابع تنزهـــه وهـــو لايشعر ، ونسي عزمه المصري ، وعرضت له أمور أخرى وعزمـــات غير ذلك ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خـــدمته ، وكان شتاء شديد ، ووحل عظيم ، فخرجت مـــن القـــدس الشريف في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ســـنة تســـع وثمـــانين ، وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تســـع ، وكان وصل أوائل الحج على طـــريق دمشـــق ، واتفـــق حضـــوري والملك الأفضل حاضر في الايوان الشمالي ، وفي خدمته خلق مـــن الأمـــراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخـــدمته ، فلمـــا شـــعر بحضوري استحضرني هو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فـــدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء مارأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه .

ذكر لقائه الحاج

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده ، فسألني عمن في الايوان ، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال ، ولما كانت بكرة الخميس استحضرني فحضرت عنده في صفة البستان ، وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر ، فاستحضر رسل الافرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير وكان كثيرا مايميل إليه يسمى الأمير أبا بكر ، وكان حاضرا وهو يداعبه ، فلما وقع بصره على الافرنج ورأى أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم وقال : إن لي اليوم شغلا ، وكانت عادته هذه المباسطة ، ثم قال احضروا لنا ماتيسر ، فأحضروا أرزا بلبن وماشابه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل وكنت أظن أنه ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر الى الناس لثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ملتاثا ممتلئا وعنده كسل ، فلما فرغنا من الطعام قال : مالذي عندك ، من خبر الحاج ؟ فقلت : اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم غدا يدخلون فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم ، وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه في الطرق والأنهار ، وانفصلت من خدمته ، ولم أجد عنده من النشاط ماكنت أعرفه ، ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ، ثم لقيته ، وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا الياروقي ، وكان كثير الاحترام للمشايخ ، فلقيهم ، ثم لحقه الملك الأفضل وأخذ يحدثني ، فنظرت إلى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده ، وماكان له عادة يركب بدونه وكان يوما عظيما وقد اجتمع

فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر

دون أن سرت إلى جانبه ، وحدثته في إهمال هذا ، فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزردكاش ، فوجدت لذلك أمرا عظيما ، وقلت في نفسي السلطان يطلب مالا بد منه في عادته ولايجده ، ووقع في قلبي تطير بذلك ، فقلت له : أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير ؟ فقال : بلى ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيبع ، وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة فعبر على الجسر إلى القلعة وهو طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركابة رحمة الله عليه ، وقدس روحه .

مرضه رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهرة ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ، ولم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرف ، ودخلت أنا إلى الايوان ، وقد مد الطعام ، والملك الافضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشا ، وبكى جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه .

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرفي النهار ، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة ، وكان مرضه في رأسه ، وكان من إمارات انتهاء العمر ، إذ كان قد ألف مزاجه

سفرا وحضرا ، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه ، فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله ، ألا يمكن أحدا تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب ، فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق ، وغشي الناس من الكآبة والحزن مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقنا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا ، وإلا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحه ، وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى الليل هزيع ، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد ، فدخل وأنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ في ساقيه ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمس بقية

قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ، ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر ، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما وخارت فيه القوة واستشعر الأطباء .

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده ، وتحقق الناس موته ، تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه ، واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، ومايعلم مايكون ، ومايفعل هذا إلا احتياطا على جاري عادة الملوك ، فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة ، فبادر إلى اليمين من غير شرط ، ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون ، وزاد أن الحصن الذي في يده له ، وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ماحلف به ، ثم حضر خشتر بن حسين الهكاري وحلف ، وحضر أذو شروان الزرزاري وحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه ، وحضر علكان ومكلان وحلفا ، ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف ، وحضر ميمون القصري رحمه الله ، وشمس الدين الكبير ، وقال نحن نحلف بشرط أن لانسل في وجه أحد من أخوتك سيفا ، لكن رأسي دون بلادك ، هذا قول ميمون القصري ، وأما سنقر فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : كنت حلفتني على النطرون وأنا عليها وحضر سامة ، وقال ليس لي خبز ، فقال لي : على أي شيء أحلف ؟ فرجع فحلف وعلق يمينه

الله الذي لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة (٤٩) سمعه وهو يقول رحمة الله عليه : صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر في وقت وفاته ، ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه .

ولقد حكي لي إنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى (لاإله إلا هو عليه توكلت (٥٠)) تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه .

وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وماسمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص والامراء والمعممين ، وكان يوما عظيما وقد شغل كل إنسان ماعنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة ، من أن ينظر إلى غيره ، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ ، وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس ، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام الحال على هذا إلى مابعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين ، وغسله الدولعي الفقية ، ونهضت إلى الوقوف على غسله ، ولم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب

فوط ، وكان ذلك وجميع مـــا احتاج إليه مـــن الثياب في تـــكفينه قـــد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج حتى أن العـــاقل يتخيل أن الدنيا كلهـــا تصيح صوتا واحدا ، وغشي الناس من البكاء والعـــويل مـــا شغلهم عن الصلاة ، فصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم اعيد إلى الدار التي في البســـتان وكان متمرضا بها ودفن في الضـــفة الغـــربية منهـــا ، وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريبا من صـــلاة العصر ، ثـــم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزى الناس فيه ، وســـكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشـــتغال بـــالنهاب والفساد ، فما وجد قلب الاحزين ، ولاعين إلا باكية إلا مـــن شـــاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهـــم في تلك الليلة إلا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن .

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه واخوته يخبرهم بهذا الحـــادث ، وفي اليوم الثـــاني جلس للعـــزاء جلوســـا عاما ، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ، ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم ، واســـتمر الحـــال في حضور الناس بكرة وعشية ، وقراءة القرآن والدعاء له رحمـــة الله عليه ، واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة أخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم احلام

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله .

هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب ـ رحمة الله عليه ـ فرغت من جمعها يوم وفاته ـ رحمة الله عليه ـ وقصـــدت بذلك وجـــه الله تعـــالى في حـــث الناس على التـــرحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته مـــن بعـــده ، ويجـــزيه مـــاهو أهله بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال مولانا الصاحب المصنف ، أدام الله علوه :

ذكر المدن والحصون التي يسر الله فتحها على يديه رحمة الله عليه ــ من ديار الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين .

طبرية على بحر الاردن بالسيف ، عكا على البحر الكبير بالامان ، حيفا على البحر بالأمان ، الناصرة التي تنسب إليها النصارى ، الرملة ، قيسارية بالسيف ، أرسوف بالأمان ، يافا بالسيف « مدينتها » عسقلان بالامان ، غزة بالامان ، الداروم ، صيدا على البحر ، بيروت بالأمان ، جبيل ، هونين ، جبيل ، تبنين ، انطرطوس « دون أخذ برجها » بالسيف ، جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالامان » ، اللاذقية ، مدينتها بالسيف وقلعتها بالامان ، السرفند مدينة القدس الشريف ، خلصه الله تعالى ، نابلس ، البيرة بأرض القدس ، صفورية ، الطور ، حصن دبورية ، الفولة ، حصن عفربلا ، حصن جينين ، سفسطية ، كوكب ، حصن عفري « شمالي القدس » بيت لحم ، حصن العازرية بأرض القدس ، البرج الاحمر « قريبا منه » ، حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين ، تل الصافية ، حصن مجدل يابا ، قلعة الجيب الفوقاني ، « الجيب » التحتاني ، النطرون ، الحصن الاحمر ، لد بأرض الرملة ، قلنوسة « قريبا منها » يبنى ، القاقون والقيمون ، قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » قلعة الشوبك « بعد حصار سنتين » قلعة السلع ، الوعيرة ، قلعة الجمع ، قلعة الطفيلة ، قلعة الهرمز ، جميع ذلك في وادي موسى والسراة ، قلعة صفد ، حصن يازور ، شقيف أرذون ، حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » قلعة ابي الحسن « بأرض

صيدا » صيدا أيضا حصن بلدة بـالساحل الاعلى ، المرقية « على البحـــر » حصـــن يحمـــور بــــأرض عكا ، بلنياس بين جبلة والمرقب ، صهيون ، بـلاطنس ، حصـن الجمـاهريين ، قلعـــة العيد ، بكاس ـ الشـــغر ، بـــكسرائيل ، السرمـــانية ، قلعـــة برزية ، دربساك ، بغراس « قريبا من أنطاكية » الدامور بـأرض بيروت ، الشرفند قريبا من صيدا ،

آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمـد وآله وصحبه وسلامه ، ووافق الفراغ منه ثاني عشر رجب المبارك سـنة ســت وعشرين وســـتمائة ، على يد العبـــد الفقير إلى رحمـــة ربه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

من مرآة الزمان لسبط ابــن الجــوزي يوســف بـــن

قزاوغلي

السنة التاسعة والثمانون والاربعمائة

فيها ... تـواترت الأخبـار بخـروج ملك الروم مـن بلد الروم بخلق لايحصى ، فأخرج يغي سغان النصارى من أنطـاكية ، وا سـتصرخ بحلب ودمشق ، والشرق على الفرنج ، وجاءت عسـاكر الفـرنج في شوال ، فنزلت على بغراس ، وأغارت على أعمال أنطـاكية ، وقتلت ونهبت وسبت ، وقيل إنها وصلت إلى المعرة .... .

السنة التسعون والأربعمائة

فيها .. فتحت الفرنج نيقية ، وهي أول بلد فتحوه ، ثـم فتحـوا حصون الدروب شيئا بعـد شيء ، ووصـلوا إلى البـارة ، وجبــل السماق ، وفامية ، وكفر طاب ونواحيها .... .

السنة الحادية والتسعون والاربعمائة

فيها ... كثر الاستنفار على الفرنج ، وتواترت الشـكايات منهـم ، وكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهـم بـالخروج مـع عميد الدولة الجهاد ، ويجهز سيف الدولة صـدقة ، وبعـث مقـدماته إلى الأنبار ، ثم وردت الأخبار إلى بغداد ، بأن الفرنج ملكوا أنطـاكية ، وصاروا إلى معـرة النعمـان فقتلوا ونهبـوا ، وكانوا في ألف ألف انسان .

ذكر شرح ذلك :

كان خروجهم أولا إلى بلد أنطاكية ، فلم ينازلوها ، وجاءوا إلى

المعرة ، فنصبوا عليها السلالم ، فقتلوا من أهلها مائة ألف انسان ، وسبوا مثل ذلك ، ثم دخلوا كفر طاب ، وفعلوا مثل ذلك ، وعادوا إلى أنطاكية ، وكان بها الأمير يغي سغان ، وكان على الفرنج صنجيل ، فحاصرها مدة ، فنافق رجل يقال له فيروز ، وفتح لهم في الليل شباكا ، فدخلوا منه ، ووضعوا السيف ، وهرب يغي سغان ، وترك أهله وأمواله ، وأولاده بها ، فلما بعد عن البلد ندم على ذلك ، فنزل من على فرسه ، فحثا التراب على رأسه وبكى ، ولطم ، وتفرق عنه أصحابه ، وبقي وحده ، فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه ، فقتله ، وحمل رأسه إلى صنجيل (خبر عن ابن القلانسي) .... وكان افتتاح المعرة في ذي الحجة ، بعد فتح أنطاكية .

وفيها اجتمع ملوك الاسلام بالشام : رضوان صاحب حلب ، وأخوه دقاق ، وطغتكين ، وكربوقا صاحب الموصل ، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين ، وأرسلان شاه صاحب سنجار ، فنازلوا أنطاكية ، وضيقوا على الفرنج ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وكان صنجيل مقدم الفرنج فيه دهاء ومكر ، فرتب مع راهب لهم حيلة ، قال : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، وقال (قل) للفرنج : رأيت المسيح في منامي ، وهو يقول : في المكان الفلاني حربة مدفونة ، فاطلبوها فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي فصوموا ثلاثة أيام ، وصلوا وتصدقوا، وجاء وهم معه إلى المكان فنبشوه ، فظهرت الحربة ، فصاحوا وصاموا ، وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين فدفعوهم عن البلد ، وثبتت جماعة فقتلوا عن آخرهم .... وكتب دقاق ورضوان والامراء إلى الخليفة يستنصرونه ، فأخرج الخليفة أبو نصر بن الموصلايا إلى بركياروق ، إلى الري يستنجده (خبر عن ابن القلانسي) ....

السنة الثانية والتسعون والأربعمائة

فيها في يوم الجمعة ثالث وعشرين شعبان استولى الفرنج على

البيت المقدس ، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كندهري (غود فري) في ألف ألف منهم خمسمائة ألف مقاتل ، والباقون رجالة وفعلة وأرباب مجانيق وعرادات وغيرها من آلة القتال ، وجعلوا طريقهم على الساحل ، وكان بها افتخار الدولة من قبل المصريين ، فأقاموا يقاتلون أربعين يوما ، وعملوا برجين مطلين على السور ، أحدهما بباب صهيون ، والآخر بباب العمود ، وباب أسباط ، وهو برج الزاوية ، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه ، وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور وحكموا به على البلد ، وكشفوا من كان عليه ، ورموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون ، فنزلوا البلد ، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى ، فاحتموا بهما ، فهجموا عليهم ، فحكي أنهم قتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثله ، وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وسبوا النساء ، وأخذوا من في الصخرة والاقصى ، سبعين قنديلا منها عشرون ذهبا ، في كل قنديل ألف مثقال ومنها خمسون فضة ، في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي ، وأخذوا تنورا من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من الاموال مالا يحصى ، ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة .

وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفا ، وجد في السير ، فوصل يوم ثاني فتحه ، ولم يعلم وقصده الفرنج فدخل عسقلان وقتل من أصحابه عدد كثير ، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان ، وقطعوا أشجارها ، وعادوا إلى القدس (خبر عن ابن القلانسي) ....

ولما تمت هذه الحادثة ، خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي ، فوصلوا بغداد ، وحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من

يمضي إلى العسكر السلطاني ، ويعـرفهم هـذه المصـيبة ، ووقـع التقاعد ....

السنة الثالثة والتسعون والاربعمائة

فيها ... وفي رجب خـرج بيمند (بـوهيموند) زعيم الروم صـاحب أنطاكية فعاث في أرض حلب ، وبلغه أن الدانشمند وصـل إلى ملطية في جيش كثيف من الاتراك ، وعسكر (قلج أرسلان بن سليمان بـن قتلمش) ، فعاد بيمند إلى أنطاكية ، وجمع وحشد ، وعاد والتقـاه المسلمون فأسروه ، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة ....

وفيها خرج سعد الدولة القوامي من مصر بعسكر كثيف فـالتقى الفرنج على عسقلان ، وكان في القلب ، وقاتل قتالا شديدا ، فكبا به فرسه فقتل وثبت المسـلمون وحملوا على الفـرنج ، فهـزموهم إلى قيسارية ، فيقال إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثمائة ألف ، ولم يقتل مـن المسلمين سوى سعد الدولة ونفر يسير ...

السنة الرابعة والتسعون والأربعمائة

فيها ...(خبر عن ابن القلانسي) .

السنة الخامسة والتسعون وأربعمائة

فيها ... وأما أخبار الشـام فنزل ابـن صـنجيل الفـرنجي على طرابلس ، فكتب ابن عمار إلى دمشق يستنجدهم ، فسار عسـكرها مع جناح الدولة صاحب حمص إلى أنطـرطوس ، والتقـوا فـانهزم

جناح الدولة إلى حمص ، وعاد فل المسلمين إلى دمشق في جمادى الآخرة ، ومات المستعلي صاحب مصر ، وقام ولده أبو علي مقامه ، وجهز الأفضل العساكر المصرية إلى الساحل ، ووصلوا إلى عسقلان في رجب مع نصير الدولة يمن ، وخرج بردويل (بلدوين) من القدس في سبعمائة راجل وفارس ، وكبس العسكر المصري ، فثبتوا وقتلوا معظم من كان معه ، وانهزم في ثلاثة نفر إلى الرملة واختبأ في أجمة قصب ، فاحتاط المسلمون به ، وأحرقوا القصب ، فوصلت النار إليه فاحترق بعض جسده ، وأفلت إلى يافا ، وأسر رجاله ، وحملوا إلى مصر في رجب ، وعاد الفرنج إلى طرابلس ، فعاد ابن عمار كتب إلى دمشق وحمص ، فجاءوا ودفعوا الفرنج عنه ....

السنة السادسة والتسعون والاربعمائة

فيها ... وفي رمضان خرجت العساكر المصرية في البر ، والاسطول في البحر مع شرف الدولة ولد الأفضل ، وكتب إلى دمشق وغيرها باستدعاء العساكر للجهاد ، فجاءت العساكر ونزلت على يافا ، وتفرقت في السواحل .

وفيها خرج قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش من بلاد الروم طالبا أنطاكية ، فوصل مرعش ، (وجرى بينه وبين) الأمير الدانشمند (صاحب ملطية خلاف ومنازعة ، أوجبت عوده عليه ، وايقاعه به وفل عسكره(١) وقتل رجاله ، واذكفأ عن ملطية ، وكتب إلى حلب يلتمس الاقامة والميرة لعساكره ، وانه قاصد أنطاكية ، فتباشر الناس ....

السنة السابعة والتسعون والأربعمائة

فيها ... وفي رجب وردت مراكب من الفرنج إلى اللاذقية مشحونة

بالمقاتلة والتجار ، وغيرهم ، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل ، فأقاموا أياما ، ورحلوا إلى جبيل ، فأمنوا أهلها ودخلوها ثم غدروا بأهلها فقتلوهم .

وفيها نزل الأمير سكمان بن أرتق صاحب ماردين والأمير جكرمش صاحب الموصل على رأس العين في شعبان عازمين على لقاء الفرنج وقتالهم ، ونهض بيمند وطنكري (تانكرد) من أنطاكية إلى الرها بالعساكر لينجدا صاحبها ، وعرف المسلمون فساروا إلى قريب الرها فصادفوهم ، والتقوا فنصر الله المسلمين عليهم ، فقتلوا منهم عشرة آلاف ما بين راجل وفارس ، وانهزم بيمند وطنكري في نفر يسير ، فقويت قلوب المسلمين .

وفيها نزل بغدوين صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركبا فحصروها من جميع الجهات ، وقاتل أهلها حتى ضعفوا ، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي ، فعجز عنهم ، فطلب الأمان له وللمسلمين ، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان ، وقتل في شعبان ، وجاء زهر الدولة منهزما إلى دمشق ، فأحسن إليه طغتكين ، ثم مضى إلى مصر وكان صنجيل قد بنى على طرابلس حصنا ليأخذها به ، وشحنه بالرجال والأموال والسلاح ، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة ، وهجم هذا الحصن على حين غرة ، فقتل من فيه ونهبه ، وأخذ من المال والسلاح والمتاع شيئا كثيرا وهدمه ، وعاد إلى طرابلس سالما غانما .

وفيها خرجت الفرنج من الرها ، وانقسموا قسمين ، قسم قصد حران ، والآخر الرقة ، فنزل سكمان من ماردين ، وكان سالم بن بدر العقيلي ، في بني عقيل نازلا على عين العروس ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، وأسر سالم ، وكانت الدبرة على الفرنج ، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير ...

السنة الثامنة والتسعون والأربعمائة

فيها ... هلك صنجيل ، وكان قد صالح ابن عمار بطرابلس وهادنه أن يكون لصنجيل ظاهر طرابلس ، ولايقطع الميرة والمسافرين عنها ....

وفي رجب خرج فخر الملك رضوان من حلب في خلق عظيم قاصدا طرابلس ينجدها على الفرنج النازلين عليها ، وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه إلى رضوان ، لما شملهم جور الفرنج ، وخرج طذكري من أنطاكية ليخلص حصن أرتاح ، فالتقى رضوان واقتتل الفريقان ، فانهزم فرسان المسلمين ، وثبتت الرجالة وأحداث حلب ، فحصدهم الفرنج ، وفقد من الفرسان والرجالة ثلاثة آلاف ، ورجع رضوان إلى حلب ، وهرب المسلمون من حصن أرتاح ، وتسلمه الفرنج .

وفيها عاد أرتاش وايتكين الحلبي إلى بصرى من الرحبة ، فخرج طغتكين بالعساكر ونازل بصرى ، وحصرهما فيها ، واتفق خروج العسكر المصري في عشرة آلاف مع الأمير شمس المعالي ولد الأفضل ، وكوتب طغتكين بالمسير معه إلى قتال الفرنج ، وكان نازلا على بصرى ، فامتنع ، ثم رأى تقديم الجهاد ، فسار إلى العسكر المصري ، والتقى المسلمون والفرنج فانهزم عسكر المصريين إلى عسقلان وعسكر طغتكين الى بصرى ، فوجد أرتاش وايتكين قد خرجا منها إلى الرحبة ، فأمن أهل بصرى ، وسلموها إليه ، فلم يتعرض لهم وطيب قلوبهم .

السنة التاسعة والتسعون والأربعمائة

فيها ... خرج الفرنج إلى سواد طبرية ، وشرعوا في عمارة حصن

بين السواد والبثنية يقال له عال ، وكان منيعا ، وبلغ طغتكين ، فسار في عسكره فبيتهم ليلا ، فقتلهم وأسرهم وأخذ الحصن بما فيه من آلة وغيرها، وعاد إلى دمشق بالأسارى والغنائم في جمادى الآخرة .... وفيها ملكت الاسماعيلية حصن أفامية ، وقتلوا خلف بن ملاعب صاحبه بأمر أبي طاهر العجمي الصائغ المقيم بحلب ، مقام المنجم ، وكان بفامية رجل من دعاتهم يقال له ابن القنج السرميني ، فقرر ذلك مع أهلها ، فنقبوا السور ، وهجموا على ابن ملاعب فطعنوه بحربة ، فمات ونادوا بشعار رضوان صاحب حلب ، وكان رضوان قد بنى لهم بحلب دار دعوة ، وهو أول من عملها ، وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم سنة خمسمائة ....

السنة الخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف ، فجمع طغتكين العساكر من التركمان وغيرهم ، وخيم في السواد ، وكان الأمير عز الملك والي صور قد نهض إلى حصن تبنين ، فهجم ربضه وقتل من فيه ونهب ، وبلغ بغدوين ملك الفرنج ، فرحل من طبرية قاصدا صور ، وعاد طغتكين إلى دمشق ....

السنة الحادية والخمسمائة

فيها ... سار بغدوين إلى ظاهر صور ، ونزل قريبا منها ، وشرع في بناء حصن على تل المعشوقة ، وأقام شهرا ، فقاطعه والي صور على سبعة آلاف دينار ، فأخذها ورحل ، وفي شعبان اشتد الأمر بفخر الدولة صاحب طرابلس من مجيء الفرنج ، وتمادى العساكر إليه ، فخرج من طرابلس في خمسمائة فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف أعدها الخليفة والسلطان ، فجاء إلى دمشق فنزل بظاهرها والتقاه طغتكين وأكرمه وخدمه وحمل إليه الهدايا والألطاف ، وكذا

جمع الأمراء ، وكان لما خرج من طرابلس استناب ابن عمه أبا المناقب ، ووجوه أصحابه في حفظها ، وأطلق له واجب ستة أشهر واستحلفهم وتوثق منهم ، فعصاه ابن عمه وأظهر شعار الأفضل ، وعلم فخر الملك ، فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي ففعلوا به ذلك ، وسار فخر الملك إلى بغداد ومعه تاج الملوك بوري بن طغتكين ، وكان جماعة ممن يحسد طغتكين قد سعوا به إلى السلطان ليفسدوا حاله عنده ، فاصحب ولده من الهدايا والتحف والخيول والثياب وغير ذلك ما يحسن انفاذه ، واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع الذي كان مستوفيا لتاج الدولة وجعله مدبرا لأمره ، وسفيرا بينه وبين من أنفذ إليه ، وتوجها في رمضان ، فلما وصلا بغداد لقي فخر الملك من السلطان من الاكرام والاحترام مازاد على أمله ، وتقدم إلى جماعة من أكابر الامراء بالمسير معه لمعونته وانجاده ، وأمرهم بالالمام بالموصل وانتزاعها من يد جاولي سقاوة ، ثم المسير إلى طرابلس .

وطال مقام فخر الملك طولا ضجر معه ، وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ، وأما تاج الملوك بوري ، فإنه لقي من السلطان كل ما يسره ، وخلع الخليفة والسلطان عليه ، وعاد إلى دمشق في آخر ذي الحجة ، ولما عاد ابن عمار الى دمشق أقام بها أياما ، وسار الى جبلة فدخلها ، وأطاعه أهلها ، وأنفذ أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون انفاذ والي يصل إليهم من البحر ، ومعه الغلة والميرة ، ويتسلم البلد ، فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب ، فلما حصل بها قبض على جماعة فخر الملك بن عمار وأصحابه وذخائره وأمواله وبعث بها إلى مصر .

وفيها خرج بغدوين من القدس ، فنزل على صيدا وضايقها ، وجاء الاسطول من مصر فدفعه عنها ، فعاد إلى القدس .

وفيها أغار طغتكين على بحيرة طبرية وبها جرفاس مقدم الفرنجية ، وكان من أكبر الملوك فخرج من طبرية ، والتقوا فقتل

أتابك منهم مقتلة عظيمة ، وأسر جرفاس وخواصه ، فبذل في نفسه أموالا عظيمة ، فلم يقبل منه ، وبعث به وبأصحابه هدية إلى السلطان .

السنة الثانية وخمسمائة

فيها ... أخذت الفرنج طرابلس ، وقيل في السنة الآتية ، اجتمع عليها ملوكهم : ريمند بن صنجيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة ، وطنكري صاحب أنطاكية وبغدوين صاحب القدس ، وشرعوا في قتالها وضايقوها منذ أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة ، وأسندوا أبراجهم الى السور ، فلما رأى من بها من العسكر وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم ، وأيقنوا بالهلاك مع تأخر اسطول مصر عنهم ، وكان كلما سار الاسطول نحوهم ردته الفرنج إلى مصر ، فلما كان يوم الاثنين هجمها الفرنج ونهبوها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها ، وأخذوا أموالها وذخائرها ما لا يحصى ولايحصر ، واقتسموها بينهم ، وساروا إلى جبلة وبها فخر الملك بن عمار فتسلموها بالامان في ثاني عشرين ذي الحجة ، وخرج منها ابن عمار سالما ، ووصل حينئذ الاسطول المصري ، ولم يخرج فيما تقدم من مصر مثله ، فوجدوا البلد قد أخذ ، فعادوا إلى مصر ، وجاء ابن عمار إلى شيزر فأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن منقذ ، واحترمه وعرض عليه المقام عنده ، فأبى وتوجه الى دمشق فأكرمه طغتكين وأنزله في دار ، وأقطعه الزبداني وأعماله ، ووقعت مهادنة بين بغدوين صاحب القدس ، وبين طغتكين على أن يكون السواد وجبل عوف مثالثة : الثلث للفرنج ، والباقي للمسلمين .

السنة الثالثة والخمسمائة

فيها ... نهضت الفرنج الى رفنية ، وعرف طغتكين ، فسار بالعسكر

وتغريقا في الفراه ، وامتلأت الايدي من الغنائم والسبي والدواب ، وعاد الفرنج الى مراكزهم ، وكان طغتكين على عزم ان يلقاهم مع المسلمين ، فلما رجعوا عاد الى دمشق خوفا عليها ، وعاد المسلمون الى الرها ، فطال عليهم منازلتها فتقربوا الى بلادهم ، ولما عاد بغدوين جعل طريقه على البقاع ، فأسر وقتل ، ثم عاد الى صيدا ونازلها ، ونصب عليها الابراج ، فايقنوا بأخذها ، فاخرجوا اليه قاضيها وجماعة من شهودها ، فطلبوا منه الامان ، فامنهم ، وخرج الوالي والعسكر واهل البلد الى دمشق ، ولم يتعرض لاحد منهم ، وعاد الى القدس ، وقيل إنما فتحت صيدا سنة أربع وخمسمائة ...

السنة الرابعة والخمسمائة

فيها ... قدم تجار من الشام الى بغداد ، وكسروا المنبر ، ومنعوا الخطيب من الخطبة يوم الجمعة بجامع السلطان ، واستغاثوا ، فقال السلطان : مالهم ؟ فقالوا : قد استولى الفرنج على الشام ، وقتلوا واسروا وسبوا ، فقال السلطان : نسير العساكر اليهم .

وفيها قصد بغدوين عسقلان ، وكان واليها شمس الخلافة ، فراسل بغدوين واتفقا على مال ، وقرر على صور سبعة الاف دينار ، وبلغ الافضل ذلك ، فأسره في نفسه وبعث جيشا الى عسقلان ، فعصى واليها عليه ، واخرج من كان معه في البلد من العسكر خوفا منهم ، وراسل بغدوين يستمده على (الافضل) ووعده إن غلب سلم إليه عسقلان ، ويعوضه عنها ، وعلم الافضل ، فكاتبه وطيب قلبه ، وأقطعه عسقلان وأقر عليه أقطاعه بمصر ، فاستدعى جماعة من الأرمن ، فاسكنهم البلد ، فأنكر أهل البلد ذلك ، ووثبوا عليه فقتلوه ، ونهبوا داره ، وبعثوا برأسه إلى مصر ...

وفيها غدر بغدوين ، ونزل على طبرية ، وخرج طغتكين ، فنزل راس الماء ، ثم استقر ان يكون ما كان من البلاد مثالثة ومناصفة .

وفيها جهز محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الفرنج ، منهم : شرف الدين مودود صاحب الموصل . وقطب الدين سكمان صاحب ديار بكر ، واجتمعوا في حران وكتب اليهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر يعرفهم ان طنكري نزل أرض شيزر ، وشرع في بناء تل (ابن معشر(١)) حصنا بمقابلة شيزر ، فقطعوا الفراه ، ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان ، فوصل وهو مريض ، واختلفت آراؤهم ، ومرض سكمان صاحب ارمينية وخلاط وديار بكر وطمع أحمديل في بلاده ، وراسله صاحب الحصن(٢) وهاداه ، فقصر فعادوا الى حلب ، وعاثوا في اعمالها ، وفعلوا اقبح من فعل الفرنج ، وتوقعوا خروج رضوان اليهم ، وخدمتهم ، فما التفت ، واغلق أبواب حلب ، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة ، واستعد للقتال ، وقد كانوا لما قطعوا الفرات ، كاتبوا طغتكين بالوصول اليهم ، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك ، فجمع رجاله ، ورجال حمص ، وحماه ، ورفنية ، وسار في جمع كثيف طلبا للجهاد ، فوصل اليهم على حلب ، فسروا بوصوله وقويت نفوسهم ، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولاحماية بلاد .

وأما سكمان القطبي ، فإنه عاد الى بلاده ، وقد أشفى ، ومات قبل وصوله الى الفرات ، وأما البرسقي ، فكان به نقرس ، ويحمل في محفة ، ولا قول له ولا فعل ، وأما أحمديل فعزمه قوي على العود لطمعه في بلاد سكمان واقطاعها له من السلطان ، فقال طغتكين : ارحلوا الى المعرة ، فرحلوا على كره ، فقال : انزلوا طرأبلس ، فتوقفوا ثم تسللوا ، وتفرقوا أيدي سبأ ، ولم يبق منهم سوى مودود ، وكان مصافيا لأتابك صديق صدق ، ونزلا على العاصي ، وكان الفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم ، فلما تفرق المسلمون ، ورجعوا اتفق الفرنج وصاروا يدا واحدة على الاسلام ، ونزل سلطان بن علي بن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما ، وحمل اليهما ، وجاء الفرنج فنزلوا على تل (ابن) معشر مقابل شيزر ليبنوا عليه حصنا ، فنازلهم طغتكين ومودود ، وطمع بهم الترك وخطفوهم ومنعوا أحدا منهم ان يخرج من خيمة ، وقتلوا

واسروا ، فلما رأوا احوالهم ناقصة ، انكفأوا راجعين إلى أنطاكية وطرابلس ، واليزك في آثارهم قتلا وأسرا ، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود .

وفيها توفي سكمان بن أرتق ، صاحب خلاط وديار بكر ، فذكرنا أنه جاء الى الرها ومرض ، فحمل في محفة فمات بميافارقين ، وحمل تابوته الى خلاط فدفن بها ، وكان عادلا مجاهدا ، وأبوه أرتق مات بالقدس ، وكان قد دخل الرمل خوفا من ملكشاه ، ولما عاد ملكشاه عن الشام رجع أرتق الى القدس ، ومات به ، ونجم الدين ايلغازي بن أرتق ، أخو سكمان مضى الى السلطان محمد شاه ، فولاه شحنكية العراق ، ثم أخذ ماردين في سنة ثمان وخمسمائة وميافارقين في سنة عشرة ، ثم أخذ حلب ، وله وقائع مع الفرنج ، سأذكرها إن شاء الله فيما بعد .

السنة الخامسة والخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين وحشد مقصد صور ، فكتب واليها وأهلها الى طغتكين يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج ، لانهم يئسوا من نصر مصر ، فبعث إليهم الفرسان والرجالة ، وجاءهم من جبل عاملة ، وسار اليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، فقطع أشجارها وقاتلها اياما ، ويعود خاسرا ، وخرج طغتكين من دمشق ، وخيم ببانياس ، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة ، فلم يقدروا على الدخول ، فسار الى السواد فنزل على الحبيس ، وهو حصن عظيم ، وحاصره ففتحه عنوة ، وقتل كل من فيه ، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور ، وخف اليهم اتابك ليشغلهم ، فخندقوا عليهم ، وهجم الشتاء ، ولم يبال الفرنج لانهم كانوا في أرض رمله ، والمادة تصل إليهم من صيدا في المراكب ، فسار إليها اتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية ، وغرق المراكب ، وواصل المكاتبة إلى أهل صور يقوي قلوبهم ، وعمل

الفرنج بـرجين عظيمين طـول الكبير منهمـا زيادة على خمسـين ذراعا ، وطول الصغير نيفا واربعين ذراعا ، وزحفوا بهمـا أول يوم من شهر رمضان ، وخرج أهل صور بالنفط والقطران ، ورموا النار فهبت الريح فاحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العـظيمة ، ونهـب منه زرديات وطـوارق وغير ذلك ، ولعبـت النار في البـرج الكبير ، فاطفأها الفرنج ، وطموا الخندق ، وأكثـروا الزحـف طـول شـهر رمضان ، وأشرف اهل البلد على الهلاك ، فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب ، فعمل كباشا في أخشاب يدفع البرج الذي يلصقونه بالسور ، ثم تحيل في حريق البرج الكبير فاحترق ، وخرج المسلمون فاخذوا منه الات وأسلحة ، فحينئذ يئس الفرنج ، فرحلوا وأحـرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الســاحل والاخشـاب والعمـاير والعلوفات وغيرها ، وجاءهم طغتـكين ، فمـا سـلموا اليه البلد ، فقال : أنا ما فعلت ما فعلت الا لله تعالى ، لارغبـة في حصـن ولا مال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي ورحل عنهم .

وفيها نزل مودود على الرها ، ورعى زرعها ، ورحل الى سروج ، ففعل بها كذلك .

السنة السادسة والخمسمائة

فيها ... اشتد خوف أهل صور من نزول الفرنج عليهم مرة ثـانية ، فاتفقوا مع واليها عز الملك أنو شتكين الأفضـلي على تسـليمها إلى ظهير الدين طغتكين بحكم ما سبق من نصرته لهم ، ومـا عانى مـن الشدة في دفع العدو عنهم ، فراسلوا طغتكين في هذا المعنى ، فجـاء الرسول إلى بانياس ، وواليها سيف الدولة مسعود فأخبره ، فسار مسعود الى دمشق فوجد أتابك قد مضى إلى ناحية حماه ليتفـق مـع رضوان صاحب حلب على أمر ، فخاف مسعود أن يتأخر الأمـر إلى حين عود أتابك من حمـاه ، فيسـتبق بغـدوين فينزل على صـور ، فيفوت الغرض ، فتحدث مع تـاج الملوك بـوري بـالمسير معـه الى

بانياس ، فأجابه وسار معه الى بانياس ، وتم مسعود ومعه من يعتمد عليه من العسكر ، وبلغ أتابك ، فبعث قطعة من الاتراك الى تقوية صور ، فساروا إليها ودخلوها ، وانفق فيهم اتابك ، وطابت نفوسهم ، وأجروا على الرسم على الخطبة والسكة لصاحب مصر ، وكتب أتابك إلى الافضل : إن الفرنج نزلوا على صور ، وشارفوا أخذها ، وبعث أهلها إلي يستنجدوا بي ، وإنني أنجدتهم بنفسي ومالي ورجالي ، وسألوني بعد ذلك انفاذ عسكر إليهم ، فبعثت رجالي ، ومتى وصل إليها من مصر من يذب عنها سلمتها إليه ، فلا تهمل حال الاسطول ، وانفاذ الغلة والقوة .

وجاء بغدوين الى عكا ، فبلغه الخبر ، فتوقف ، وفات غرضه ، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد ، وكثر فساده ، فكتب أتابك الى مودود يخبره ويطلب نجدته وكانا قد اتفقا وتصادقا ، فسار مودود بعساكره فقطع الفرات ، وخرج إليه أتابك ، فالتقيا على سلمية ، واتفق رأيهما على قصد بغدوين ، وسار من حمص بعساكر الشرق وحماه وحمص ودمشق وأعمالها ، وجازا على البقاع فنزلا الغور على الحابين(٣) ، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة ، فتقدم بعض الغلمان ، وقطع الجسر العلوفة ، فالتقوا الفرنج ، ونشب القتال ، وجاء أتابك فقطع الجسر واقتتلوا ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم نحو ألفي فارس من الشجعان والابطال ، وغنموا أثقالهم ، وأفلت بغدوين بعدما قبض ، وأخذ سلاحه ، وغرق أكثرهم في البحيرة بحيث صارت دما ، وامتنع الناس من الشرب منها أياما ، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد يخبرانه بهذا الفتح ، وبعثا بالاساري والهدايا ورؤوس الفرنج وخيولهم وسلاحهم ، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا ، وأخربوا ونهبوا وقتلوا وعادوا الى دمشق ، فنزل مودود في حجرة الميدان الاخضر ، وبذل اتابك المجهود في خدمته وخدمه بنفسه ، وواصلا الصلاة في جامع دمشق ، والتبرك بنظر المصحف ، قال ابن القلانسي : وهذا المصحف حمله عثمان بن عفان

رضي الله عنه من المدينة الى طبرية ، وحمله أتابك طغتكين من طبرية الى دمشق ....

السنة السابعة والخمسمائة

فيها ... عاد جواب الافضل الى طغتكين يتضمن الشكر له في حديث صور ، ويقول : إن هذا الامر وقع منا أجمل موقع ، وأحسن موضع ، وبعث بالاسطول فيه الميرة ومال النفقة للعساكر والغلات ، وكان يقدمه شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الفرنج ، فرخصت الاسعار ، واستقامت الامور ، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لطغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه ، ولمسعود والي صور ، وراسل بغدوين مسعود يسأله الموادعة ، وانعقد الامر بينهما على السداد ، واستقامت الامور ، وامنت السبل ، ودب التجار من جميع الاقطار ، وكان ابن السلطان تكش بن ألب أرسلان قد هرب من محمد شاه الى الشام ، فلم يقبله رضوان ولا طغتكين ، فتوجه الى مصر فلقي من الأفضل ما أحب من الاحسان والاكرام ، فأقام عنده .

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل فامية ومعرة النعمان ، ومعرة مصرين على حصن شيزر في فصح النصارى ، فوثب به مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوهم منه ، واغلقوا ابوابه ، وكان بنو منقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى ، وبلغهم الامر فجاءوا ، ودلى الحرم الحبال من القلعة ، واستبقوا الرجال ، وفتحوا الباب وصعد الامراء بنو منقذ فقاتلوهم ، فذلوا فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية ، ووقع الاحتراز من مثل ذلك ، وقيل إن بني منقذ كانوا يخرجون الى الصيد فقالت الباطنية : الصواب أن يتخاصم منا اثنان ، ويصعدا الى القلعة ، ولنا بها جماعة ، فلما صعدا فطن الناس ، فغلقوا الابواب ، وقتلوهم ، ثم احترز بنو منقذ ، فما كان

يغيب واحد إلا ويحضر آخر ....
وفيها توفي ... مودود الامير صاحب الموصل .

وقد ذكرنا انه جاء الى الشام لمساعدة أتابك طغتكين ، وكسر الفرنج وعاد مع أتابك الى دمشق ، ونزل في الميدان الاخضر ، وكان يدخل كل جمعة إلى دمشق ، فيصلي بالجامع ، ويتبرك بمصحف عثمان رضوان الله عليه ، فدخل الجامع على عادته ومعه أتابك والغلمان حوله بالسيوف المسللة ، وأنواع السلاح وأتابك بين يديه خدمة له ، فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من الناس لايؤبه له ولايحفل به ، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه ، فلزم بند قبائه وضربه بخنجر أسفل صرته ضربتين احداهما ذفنت الى خاصرته والاخرى الى فخذه ، والسيوف تأخذه من كل ناحية ، وقطع رأسه ليعرف شخصه ، فما عرف وأحرق ، وعدا أتابك وقت الكائنة ، وأحاط به أصحابه ، ورجع إلى مودود وهو يمشي فتماسك ، ووقع عند الباب الشمالي من الجامع ، وحمل الى دار أتابك ، وخيط جرحه ، فعاش ساعات يسيرة ، ومات في يومه ، فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه ، وحزن حزنا شديدا ، وكذا سائر الناس ، ودفن في مشهد داخل باب الفراديس ، وشرع أصحابه في العود الى الموصل وغيرها من البلاد ، وأمر لهم اتابك باطلاق ما يستدعونه لسفرهم ، واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأثقاله ، ولم يزل مدفونا حتى بعثت زوجته وولده من الموصل في شهر رمضان من حمله في تابوت الى الموصل ، وشيعه أتابك الى الثنية ، وكان سأله أتابك يوم خرج أن يفطر ، وكان صائما فلم يفعل ، وقال : والله لالقيت الله إلا صائما ، وكتب بغدوين ملك الفرنج الى طغتكين : إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ، وقيل إن هذه الواقعة كانت سنة خمس وخمسمائة .

وذكر بعضهم أن أتابك خاف منه ، فوضع عليه من قتله ، وليس بصحيح ، فإنه كان أحب الناس له ، وحزن عليه حزنا عظيما ،

وشق ثوبه عليه ، وجلس في عزائه سبعة أيام ، وتصدق عنه بمال جزيل ، وبلغ السلطان ما جرى ، فأقطع الموصل والجزيرة لآق سنقر البرسقي ، وأمره بتقديم عماد الدين زنكي ، والرجوع الى اشارته ، لما ظهر منه من النهضة والكفاية ويمن النقيبة .

السنة الثامنة والخمسمائة

فيها ... مات بغدوين صاحب القدس لجرح أصابه في الوقعة المتقدمة على طبرية ، فأقاموا من اختاره من أصحابه .

...وفيها توفي الامير أحمديل صاحب مراغة كان في خدمته خمسة آلاف فارس واقطاعه أربعمائة الف دينار ، وكان شجاعا جوادا ، ولما قدم أتابك طغتكين الى بغداد ، وكان يحضر كل يوم الى دار السلطان مع الامراء للخدمة ، فبينما هو ذات يوم جالس في الدار والى جانبه أحمديل الروادي تقدم رجل ومعه قصة ، فسال أحمديل إيصالها الى السلطان ، فتقدم فمد يده ليأخذها فضربه بسكين فأخذه احمديل وتركه تحته وجاء أخر فضرب أحمديل ، وقال شاباش كأنه استحسن فعل الأول ، وجاء ثالث وصاح شاباش ، وضربه وقتلوا ، وظن الحاضرون أن المراد طغتكين ، وكان أحمديل قد انكى في الباطنية فقتل وتفرق الناس ، وهذا اقدام من الباطنية لم يتقدموا على مثله في دار السلطان ، وعاد طغتكين الى الرملة غربي بغداد فنزل في مخيمه ، وبكى الناس على احمديل وأحرق غلمانه خيامه ورحله ، وطلب طغتكين دستورا الى دمشق فسار بالخلع ومراكب الفضة ، والذهب ، ووعده السلطان أن ينفذ إليه عسكرا ، وكتب السلطان الى البرسقي الى همذان ليحضر ، فحضر في عسكره فسار الى الشام فلاقاه طغتكين وأكرمه ، وكان ابن صنجيل صاحب طرابلس قد خرج ، فنزل عين الجر وأخرب البقاع ، فخرجا إليه فجاءاه ليلا وقتلا من أصحابه ثلاثة الاف ، وأسرا مثلهم وعادوا الى دمشق ، وانهزم ابن صنجيل في نفر يسير ، وعاد البرسقي الى

العراق بعد أن خدمه أتابك وأكرمه ، وتأكدت الصداقة بينهما والمودة .

السنة التاسعة والخمسمائة

... قويت شوكة الفرنج في رفنية وبالغوا في تحصينها وشحنوها بالرجال وشرعوا في الفساد ، فأظهر طغتكين أنه قاصد بعض الجهات وسار اليها مغذا فبغتهم وأحاط بهم وقتل وأسر وغنم أصحابه منهم ما أمتلأت به الأيدي وذلك في جمادى الاخرة ، ثم عاد الى دمشق ومعه الاسرى ورؤوس القتلى ، ولما شاع عنه ما رزقه الله من الجهاد والعدل والاحسان الى الرعية حسده القوم وطعنوا عليه وراموا فساد حاله ، وكتب اليه بذلك من أصدقائه من يؤثر إصلاح حاله فاقتضت الحال أن سار بنفسه الى بغداد ومعه الهدايا والتحف مايليق بالخليفة والسلطان ، فبولغ في اكرامه واحترامه وفعل في حقه ما قدمناه ، وتشرف بالخلع الخليفية والسلطانية وكتب له المنشور السلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على حسب اختياره ...

وفيها صالح بردويل صاحب القدس الافضل امير الجيوش ، وكان بردويل قد أخذ في السبخة المعروفة بسبخة بردويل قافلة عظيمة جاءت من مصر ، فرأى الأفضل مهادنته وأمن الناس ....

السنة العاشرة والخمسمائة

فيها ... ورد الخبر بأن يدران بن صنجيل صاحب طرابلس قد جمع ونهض الى ناحية البقاع ، وكان سيف الدين سنقر البرسقي صاحب الموصل ، قد وصل دمشق في بعض عسكره لمعونة طغتكين ، فاتفقا على تبييت الفرنج ليلا ، فأغذا السير حتى هجما على خيامهم ،

وهم غارون ، فوضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا ، وهرب بدران ، وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم وأموالهم وعادوا الى دمشق ، وتوجه البرسقي إلى بلده ، بعد استحكام المودة بينه وبين أتابك .

السنة الحادية عشر والخمسمائة

فيها ... خرج آق سنقر البرسقي من الرحبة فأتى الى حلب وفيها يارقتاش الخادم بعد لؤلؤ ، فنزل البرسقي عليها فلم يظفر بطائل وعاد الى الموصل .

وفيها هجمت الفرنج على ربض حماة في ليلة خسوف القمر وقتلوا من أهلها مائة وعشرين رجلا .

وفيها وصل الامير نجم الدين ايل غازي بن أرتق الى حلب في عسكره وتولى تدبير أمرها مدة شهر وفسد عليه ماأراده فخرج منها وبقي ولده تمرتاش حسام الدين فيها وكان أمرها مردا الى أبي المعالي ابن الملحمي الدمشقي ....

السنة الثانية عشر وخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في بلاد المسلمين ، فجاء الامير نجم الدين ايل غازي الى طغتكين ، فاتفقا على الجهاد للفرنج وتحالفا وتعاقدا وأن ايل غازي يمضي ويجمع التركمان ويكون اللقاء في صفر على حلب سنة ثلاث عشرة .

السنة الثالثة عشرة وخمسمائة

فيها ... اجتمع أتابك طغتكين ونجم الدين ايل غازي على حلب ، للموعد الذي كان بينهما ، ومعهما من التركمان خلق كثير ، وخرج صاحب أنطاكية في عشرين ألفا والتقوا في ربيع الاول ، فهزم الله الكفار ، وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا بحيث أتوا على بعضهم ، ولم يبق بانطاكية من يحميها ، فوقع التغافل عنها ، وقيل إن طغتكين (كان غائبا) لأن التركمان تسارعوا الى القتال قبل مجيئه وقيل بل أدركها في آخر الامر ، فصادف خاتون صفوة الملك أم دقاق مريضة ، فأوصت إليه فقبل وصيتها ، وتوفيت يوم الأحد سلخ جمادى الاولى ، ودفنت عند ولدها دقاق في الطبقة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الاخضر ، وكانت كثيرة الصدقات غزيرة الخيرات ، وحزن طغتكين عليها وانفذ وصيتها ....

وذكر غير ابن القلانسي من أهل الشام ، أن في هذه السنة مات بردويل صاحب القدس ، فضبط الامر برشان الرهاوي إلى أن وصل الملك كندهري من قبل البابا خليفة الفرنج ، وأغار على أذرعات وأطراف الشام ، وكان أتابك طغتكين بالثنية فبعث بولده بوري مع عسكر ، وأقام هو موضعه ردءا لهم ، فالتقوا فظهر الفرنج على بوري ، فعاد الى أبيه ، ودخلا دمشق ومضى طغتكين الى حلب مستصرخا بنجم الدين ايل غازي بن أرتق ، وكان أول ما ملكها ، فأقام طغتكين عنده ، وشرع في جمع العساكر ، واغتنمت الفرنج غيبته ، فقصدوا الشام ، ووصلوا إلى حوران فالتجأ أهله الى اللجاة ، وكان بين أهل القرية المعروفة بالشقراء وأهل القرية المعروفة بسر(؟) عداوة ، فحمل أهل الشقراء على أن دلوا الفرنج على طريق سهلة ، فجاؤوا وقتلوا أهل بسر ، ودخلوا الى اللجاة فقتلوا وأسروا ودخلوا الى القدس ، ولما بلغ أصحاب انطاكية هذا جمعوا وحشدوا ، وقصدوا بلد حلب ، ونزلوا على مكان يقال له أرتاح في خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل ، واشاع نجم الدين

ايل غازي أن أتابك طغتكين واصل من دمشق ، وما كان الا جـريدة عنده ، فخرج ايل غازي ، وعمل كمينا ، فلما التقى الفـريقان ظهـر الكمين وضربوا البوقات والطبول فظنوه أتابك طغتكين فـانهزموا ، وعمل فيهم السـيف قتـلا واسرا ، وافلت بـرجار بـن طنكري ملك الفرنج مجروحا ....

السنة الرابعة عشرة والخمسمائة

فيها ... رفع ايلغازي عن اهل حلب المكوس ، وما جـدده الظلمـة ، ووادع الفرنج ....

السنة الخامسة عشرة والخمسمائة

فيها ... كسر أتابك طغتكين الفرنج على زحر العقبة ، فقتل وسـبى وغنم وكانت كسرة عظيمة ....

السنة السادسة عشرة وخمسمائة

وفيها ...

السنة السابعة عشرة وخمسمائة

فيها ... دخل الاسطول المصري الى صـور وهـو مشـحن بـالمال والرجال البحرية والعسكرية ، وكان في نفس الوالي بصور من قبـل المصريين ، أن يعمل على سـيف الدولة مسـعود الوالي مـن قبـل

طغتكين ، فلما خرج للسلام على والي الاسطول سألوه النزول في المركب فاعتقلوه ، وبعثوا به الى مصر ، فأكرم فأنزل في دار واطلق له ما يحتاج إليه ، وكان السبب في اعتقاله أن الشكاوى من أهل صور كثرت الى صاحب مصر منه ، وأنه يكلفهم ما لم تجر به العادة ، وكان قد أضر بهم ، فاقتضى التدبير اعتقاله ، لكن كان في ضمن خروجه منها ، أخذ الفرنج لها .

وفيها : سار الامير نور الدولة بلك بن أرتق الى الرها ، في رجب فخرج إليه منها جيش كثيف ، فيه جوسلين وابن خالته كليان ، والتقوا على سروج فهزمهم وأخذ جوسلين وابن خالته وأعيان الفرنج أسارى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

... وفيها سلم صاحب حلب الاثارب الى الفرنج ، وجرت موادعة .

وفيها سار بغدوين ملك الفرنج الى نور الدين بلك بن أرتق وهو على قلعة المنيطرة ، فكسره بلك وأسره ، واعتقله مع جوسلين ، وكان قد أسر جوسلين في هذه السنة ، ونزل بلك بن أرتق على حمص ، وأخذها عنوة ، وسار إلى حصن البارة فملكه وقتل أسقفه .

وفيها أعمل بغدوين وجوسلين وأصحابه الحيلة ، وهربوا من حبس بلك وكانوا في قلعة خرت برت ، فوصلوا الى الرها ، وكان بلك ابن أرتق مشغولا بالشام ، وكانوا قد غلبوا على خرت برت ، وعاد بلك فاستنقذها منهم ، وعاد الى حلب وبها عمه بدر الدولة بن ايل غازي فحصره وأخذها بالامان ، وكان حسان صاحب منبج بحلب فاعتقله ، وأخوه عيسى بمنبج ، فطلب بلك بن أرتق من حسان منبج فلم يعطه إياها فسار بلك بن ارتق فحاصر منبج ، وقاتل فجاءه سهم من الحصن فذبحه ، فحمل الى حلب في تابوت ، وكان معه

سكمان بن أرتق ، فعقد له العسكر الامارة ، واطلق حسانا ، فعاد الى منبج ، وأقام سكمان بحلب ....

السنة الثامنة عشرة وخمسمائة

فيها ... كاتب أهل حلب آق سنقر البرسقي الى الموصل ، فسار إليها فسلمها إليه أهلها ، وهرب سكمان ، فلحقه البرسقي بمنبج فقتله . وسنذكره .

وفيها استولت الفرنج على صور بالامان ، ذكره أبو يعلى بن القلانسي وما تعرضوا لاحد من أهل البلد ، ومن اشتهى الاقامة من المسلمين أقام بالبلد ، ومن اشتهى أن يرحل فليرحل ، ومضى بعضا من المسلمين الذين كانوا فيها الى دمشق ، وكان دخول الفرنج الى صور في الثالث والعشرين من جمادى الاول ....

السنة التاسعة عشرة وخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين صاحب القدس وحشد وقصد حوران ، وشرع في الغارات على الاماكن القريبة من دمشق ، فجمع طغتكين التركمان ، وكاتب الاطراف ، ووصل اليه من التركمان نحو من ألفي فارس طالبين للجهاد ، وخرج من دمشق في خلق كثير ، ونزل مرج الصفر في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وخرج من دمشق أحداثها ورجال الغوطة والمرج وقصر حجاج وعقيبة وغيرها بالسلاح التام ، وقالوا نلحق المصاف ، ولم يشك احد في ذلك اليوم أن النصر للمسلمين ، وجاء الفرنج الى مرج الصفر ، والتقت الطلائع فلما شاهد الفرنج ذلك الجمع العظيم علموا أنهم لاطاقة لهم بهم ، فعادوا الى خيامهم ومنزلتهم فتبعهم طائفة من التركمان والاحداث ، وتفرق العسكر في نهب خيام الفرنج ، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا فحملوا

على المسلمين فكسر وهم من أواخر مرج الصفر ، وهزموهم الى عقبة سحورا ، فقتلوا جميع الرجالة والتركمان إلا من نجا بفرسه ، وانهزم طغتكين الى دمشق فوصلها آخر النهار ، وقد قتل رجاله وأسر أبطاله ، وغنم الفرنج غنيمة لم يغنموا مثلها ، وباتوا على عقبة سحورا عازمين على منازلة البلد ، واستعد أتابك للحصار وأصبحوا وقد رحل الفرنج الى منزلتهم ....

وفيها استشهد آق سنقر البرسقي صاحب الموصل ، وكان شجاعا عادلا في الرعية ، وهو الذي رحل الفرنج عن حلب ، وكان الخلفاء والملوك يحترمونه وكان بين يدي الخليفة ، ولما كبر ونشأ ، وكان قد احترز من الباطنية بالرجال والسلاح والجندارية وغيرهم ، فدخل يوم الجمعة جامع الموصل ليصلي فجاء الى المقصورة ، وفيها جماعة من الصوفية لهم عادة يصلون فيها فما استرابهم ، فدخل في الصلاة ، وتأخر عنه أصحابه فوثب عليه ثلاثة في زي الصوفية فضربوه بالسكاكين فلم تعمل في جسده للدرع الذي كان عليه ، فضرجوا رأسه ووجهه ، وضربوه حتى قتلوه ، وحزن عليه لأنه كان محسنا إليهم ، وأقاموا ابنه مسعودا مقامه .

السنة العشرون وخمسمائة

فيها ....

السنة الحادية والعشرون وخمسمائة

فيها .....

السنة الثانية والعشرون وخمسمائة

فيها ... توفي ...

ابو منصور ظهير الدين ، أتابك صاحب الشام ، مملوك تاج الدولة تتش ، كان مقدما ، عنده زوجه أم ابنه دقاق ، ونص عليه في أتابكية دقاق ، وقد ذكرنا وقائعه ، وكان شجاعا شهما عادلا ، ولما أحتضر أوصى الى ولده تاج الملوك بوري بحسن الطريقة ، والتزام العدل ، واقامة منار الاسلام والجهاد ، والاحسان الى الرعية ، ومراجعة العلماء وأرباب الخبرة بما يتجدد ، وتوفي يوم السبت ثامن صفر ، ودفن في تربته التي بناها قبلي دمشق عند المسجد الجديد ، وهي قائمة إلى هلم جرا ، وحزن أهل دمشق عليه ، وعملت المآتم له في كل محلة وسوق ، لأنه كان حسن السيرة ، ظاهر العدل ، كثير الاحسان ، مدبرا للممالك ، فحسنت آثاره وعمرت البلاد في أيامه ، وأقام حاكما على الشام خمسا وثلاثين سنة .

وجلس بوري مكانه ، فسار بسيرته مدة ، وأقر الولاة على حالهم ، ثم تغيرت نيته ، وأظهر السوء لاصحاب أبيه ، والظلم للرعية ، وقبض على خواص أبيه واحدا بعد واحد ، فاسترابوا به ، ونفرت القلوب منه ، وتمكن وزيره المزدقاني من أهل دمشق ، وصادق الباطنية واستعان بهم ....

السنة الثالثة والعشرون وخمسمائة

فيها ... كانت فتنة الاسماعيلية بدمشق ، وكان ابن محرز قد سلم اليهم حصن القدموس لأن بوري قصده ليأخذه منه ، فسلمه إليهم ، لأن الوزير أبا علي طاهر بن سعد المزدقاني بدمشق يكاتبهم ويهاديهم ، خوفا من بني الصوفي ، فشرع وجيه الدين الفرج بن الحسن بن علي الصوفي رئيس دمشق مع تاج الملوك بوري في الاغراء

بالاسماعيلية ، وهون عليه أمرهم ، وساعده الحاجب فيروز ، ثم اتفقوا على قتل الوزير المزدقاني ، واستدعاه تاج الملوك الى قلعة دمشق سابع شهر رمضان ، فجلس عنده ، فلما قام ليخرج وثب عليه جماعة من الاجناد فقتلوه في دهليز القلعة ، وقطعوا رأسه ، واحرقوا جسده في باب الحديد ، ثم مضوا الى دار الدعوة ، وقتلوا كل من بها ، وثار عوام دمشق على الاسماعيلية ، فقتلوهم شر قتلة ذبحا ورميا بالاحجار والسيوف ، وصلبوا منهم جماعة على سور دمشق ، فكان عدة من قتل منهم عشرة الاف على ما قيل ، ولم يتعرضوا لحرمهم ولا لأموالهم .... وكان ببانياس العجمي فسلمها الى الفرنج خوفا من المسلمين ، فقويت نفوس الفرنج على قصد دمشق ، واستعدوا لها ، وبلغ تاج الملوك بوري فراسل ملوك الاطراف ، وبعث بالفقيه عبد الوهاب ابن الحنبلي الى بغداد رسولا عنه ، وعن أهل دمشق يذكر استيلاء الفرنج على بانياس ، وأن قصدهم دمشق ، وقد أشرفوا عليها ، فخلع عليه ووعد بانفاذ العساكر ، وجاءت الفرنج فنزلوا على جسر الخشب ، وأخرج بوري عسكره من باب شرقي بالليل الى ناحية براق ، فوقعوا على جماعة من الفرنج كانوا قد مضوا الى حوران يطلبون الميرة ، فقتلوهم وأسروا الباقين ، فبلغ الفرنج فرحلوا نحو حوران والمسلمون خلفهم ينهبون ويقتلون حتى وصلوا الى طبرية .

السنة الرابعة والعشرون وخمسمائة

فيها ... وصل زنكي بن آق سنقر الى حلب من الموصل ، وقد أظهر أنه على عزم الجهاد ، وراسل بوري يلتمس منه المعونة على محاربة الفرنج ، فأرسل إليه من استحلفه الايمان المغلظة واستوثق منه لنفسه ولصاحب حمص وحماه وأصحاب الاطراف ، وكان سونج بن بوري بحماه ، فبعث إليه من دمشق خمسمائة فارس ، وأمره بالمضي الى خدمة زنكي ، وكان في عسكر بوري أعيان

الأمراء ، فسار سونج من حماه الى حلب ، فأحسن زنكي لقاءهم وأكرمهم وغافلهم أياما ، وقبض عليهم وسونج في الجملة ونهب خيامهم وأثقالهم ، وهرب منهم من قدر وجاء في يومه الى حماه فاستولى على ما فيها لخلوها من الرجال ، ورحل الى حمص ، وكان صاحبها خير خان معه ، وهو الذي حسن له الغدر ، فحين حصل على حمص اعتقله ونهبه ، وطلب منه تسليم حمص فأبى من في القلعة وقاتلوه ، فاقام أياما ورحل الى الموصل ومعه سونج بن بوري ، واعتقل الباقين في حلب وقيدهم ، والتمس منهم خمسين ألف دينار فشرع بوري في تحصيلها ، ولما بلغ الملوك فعل زنكي لعنوه وسبوه ، ونفروا منه ، وساءت سيرته ، وبلغ السلطان فجهز إليه جيشا ....

السنة الخامسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السادسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السابعة والعشرون وخمسمائة

فيها ... فتح شمس الملوك صاحب دمشق بانياس ، وكان الفرنج لما أخذوا بانياس ، طمعوا في المسلمين وقووها بالرجال والسلاح وعزموا على نقض الهدنة ، وبلغ شمس الملوك ، فسار اليها بخيله ورجله وقاتلهم قتالا شديدا ، فلما كان يوم الاحد عشرة صفر زحف اليها ، وترجل وترجلت العساكر بأسرها وطموا الخندق ، وهجموا

البلد ، وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا ، والتجأ الخيالة والفرسان إلى الحصن ، فحصرهم فصاحوا الامان فأمنهم ونزلوا بأسرهم جميعا ، وعاد الى دمشق لست ليال خلون من صفر بالأسارى والغنائم والاسرى في الحبال والرؤوس على الرماح والقصب ، وكان فتحا عظيما لم ير أهل دمشق مثله ، وسار شمس الملوك الى حماه وبها نواب زنكي فأقام عليها أياما وحصرها فقاتلوه ، ففتحها عنوة ، وقيل بالأمان ، وكان ذلك في رمضان ....

وفيها نزل صاحب القدس على الساحل وجمع الفرنج وقصد حلب ، ووصل الى قنسرين ، فخرج اليه الامير سوار نائب زنكي في العسكر ، فالتقوا فقتل من الفريقين نحو من مائتي رجل من الأعيان ، وانهزم سوار إلى حلب ، وتبعهم الفرنج ، وجاء من حلب جماعة فرجع سوار على الفرنج ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزموا الى أنطاكية .

السنة الثامنة والعشرون وخمسمائة

فيها ... نقض الفرنج الهدنة ونزلوا حوران وخرج شمس الملوك اليهم في حشده وجمعه وخيم بازائهم وكانوا في جمع عظيم ، فلما رأى شمس الملوك أنه لا طاقة له بهم غافلهم في الليل وسار نحو ساحل طبرية وعكا وصور وتلك البلاد ، فقتل وسبى وغنم غنائم كثيرة ، وعاد الى دمشق على طريق الشعراء ، ورحل الفرنج الى بلادهم فساءهم ما رأوا من خراب البلاد ونهبها فذلوا وتفرقوا وذلك في سلخ ذي الحجة .

السنة التاسعة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة الثلاثون وخمسمائة

فيها ... .

السنة الحادية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... خرج ملك الروم من القسطنطينية في مائة الف ، فنزل على أنطاكية فصالحه صاحبها على مال ، فرحل عنها الى بزاعة من أعمال حلب ، فافتتحها بالسيف ، وقتل من فيها ، وقطع زنكي الفرات ، فنزل على بعرين ، وهي للفرنج ، فلم يقدر عليها ، فسار الى بعلبك ، فحصرها فسلمها اليه كمشتكين الخادم ....

وفيها توفي الامير مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن مقلد صاحب شيزر ، كان مرشد عالما بفنون العلوم والاداب صالحا كثير التلاوة للقرآن ، وكان أخوه نصر بن علي قد ولاه شيزر ، فقال والله لا أدخل في الدنيا ، وولاها أخوه سلطان على أولاده ، فمات مرشد في هذه السنة ، ثم أخرج سلطان أولاده من شيزر ، وسنذكر القصة في سنة اثنتان وخمسمون وخمسمائة ، وذكره العماد في الخريدة فقال : فولد أبو سلامة مرشد بن علي في سنة ستين واربعمائة وتوفي في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، وأثنى عليه ثناء كثيرا ، وذكره الحافظ ابن عساكر ، وقال : ولد أبو سلامة سنة ستين وأربعمائة ، ودخل طرابلس غير مرة وسافر الى بغداد وأصبهان ، وكان حافظا للقرآن حسن التلاوة كثير الصوم ، شديد البأس والنجدة في الحروب ، وكانت له يد طائلة في علم العربية والكتابة والشعر ، وكان له خط حسن ، كتب بخطه سبعين مصحفا ، وكذا ابنه محمد بن مرشد ، قال : وكان أبي يكتب مصحفا فتذاكروا بين يديه خروج الروم ، فرفع المصحف وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه إن كنت قضيت بخروج الروم فخذ روحي ولا أراهم ،

فمات عقيب ذلك في رمضان ودفن بشيزر ، وخرجت الروم بعد ذلك في شوال سنة اثنتان وثلاثون ، فحاصروا شيزر أربعة وعشرين يوما ، وتقسموا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، ثم رحلوا عنهـا يوم السبت تاسع عشر رمضان .

السنة الثانية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... قدم أهل حلب وبزاعة النساء والصبيان والرجـال وكسروا المنابر ومنعوا الناس من الصلاة في الجوامع بسبب ما جرى عليهم ببزاعة من الروم .

السنة الثالثة والثلاثون وخمسمائة

فيها ...

السنة الرابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... عاد أتابك زنكي من بعلبك بعد أن أفنى من قـاتله بهـا ، ونفـرت القلوب منه ، ونزل على داريا ، وخـرج إليه بعض عسـكر دمشق وأحداثها فقاتلوه ، فظفر بهم ، وأطلق فيهـم السـيف قتـلا واسرا ، وراسل جمال الدين محمد صـاحب دمشـق ، وأن يعـطيه حمص وبعلبك وما يحتاج ، فمال الى الصلح طلبا لحقن الدماء ، فما وافقه أمراؤه وابتدى به مرض طال ، وتوفي في شـعبان ، وكان نزول أتابك عليها في ربيع الاول ، واتفق موت محمد في الوقت الذي أصيب فيه أخوه محمود في تلك الساعة ، ودفـن في تـربة جـدته ببـاب الفراديس ، وأقاموا ولده عضب الدولة أبو سعيد بن محمد مـكانه ،

وأخذت له الايمان على الطاعة ، وعرف زنكي ذلك ، فزحف بعسكره الى البلد طامعا فيه ، وظن أن الخلاف يجري بين المقدمين ، فجاء الامر بالعكس(وخرج العسكر) وأحداث دمشق وقاتلوه قتالا شديدا ، وقالوا : هذا كذاب غدار سفاك ، وقد رأيتم ما فعل بأهل بعلبك ، وقام بقتاله معين الدين أنر ، فضعفت نفس أتابك ، ورجع الى داريا ، وكان أنر قد بذل للفرنج مالا ليدفعوا زنكي عنهم ، وحمل اليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين ، فاجتمعوا من الحصون والبلاد ليصدوه عن دمشق ، فلما تحقق ذلك رحل عن دمشق في رمضان ، طالبا حوران على نية لقاء الفرنج إن جاءوا ، ثم عاد في شوال الى غوطة دمشق ، ونزل بمرج عذراء ، فاحرق عدة ضياع من المرج والغوطة منها : حرستا ، وبلغه نزول الفرنج بالدان في جموعهم ، فرحل الى بعلبك ، وخرج أنر في العسكر وحاصر بانياس ، وفتحها في آخر هذه السنة ، وسلمها الى الفرنج ، وكان ذلك في صلح الفرنج ، وأنهم يسلمونها اليهم ، وبعث زنكي من بعلبك يستدعي التركمان من أماكنهم ، وخرجت السنة على هذا ، ولما عاد أنر الى دمشق ما رأوا يوم السبت سابع ذي القعدة إلا وزنكي قد صبحهم جريدة علي حين غرة ، وقرب من السور ، وعلم الناس فتركوا الاسوار ، وفتحوا الابواب وخرجوا إليه فردوه ، فنزل تل راهط ، وساق من الخيل والغنم والجمال والدواب مالا يحصيه إلا الله تعالى ، ورحل نحو الشمال .

السنة الخامسة والثلاثون وخمسمائة

فيها ..

السنة السادسة والثلاثون وخمسمائة

فيها ....

السنة السابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها .....

السنة الثامنة والثلاثون وخمسمائة

فيها .....

السنة التاسعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... فتح زنكي الرها ، كان في قلبه منها أمر عظيم لكونها وسط بلاد الاسلام ، ومعقل ممتنع للكفار ، فطرح العيون على جوسلين صاحبها ، فاتفق أنه خرج منها بعساكره نحو حصن منصور ، فحال زنكي بينه وبينها وحصرها وضربها بالمجانيق وحشد التركمان والنقابيين الحلبيين وغيرهم ، ونقب سورها ، وعلق الاخشاب وضربوا بالنار ، فوقعت منه قطعة ، فدخلها عنوة بالسيف فقتل وأسر ، وأخذ منها أموالا عظيمة ، وكان بها من أسارى المسلمين الف وخمسمائة ، فخلصوا ، وقيل كانوا خمسمائة ، ثم رم السور ، وكتب النصارى أمانا وأحسن الى الرعية ، وأراد أن يبني بها جامعا ، فقال له أصحابه اجعل الكنيسة جامعا ، فقال : نعم ، وشرع في اصلاح الكنيسة وهيأها ، ولم يبق إلا موضع المحراب ، فجاء ومعه أرباب دولته والصناع ، واتفقوا على موضع المحراب اليوم ، فحفروا اساسا عميقا ، وإذا بصخرة ظهرت مكتوب عليها سطران بالسريانية ، فجاء شيخ يهودي فحلها ، ونقلها الى العربية وهما :

أصبحت خلوا من بني الاصفر
اختال بالأعلام والمنبر
مطهر الرحب على أنني لولا
ابن آق سنقر لم أظهر

فاشتد تعجب أتابك والجماعة .

وكان عند ملك طليطلة رجل من علماء المسلمين ، وكان الملك يحبه ويكرمه ، فجهز جيشا الى جهة إفريقية ، فقتلوا واسروا من المسلمين وعادوا ، وعاد العالم عند الملك جالس ، وقد نعس ، فايقظه الملك وقال : أما ترى ما قد فعل اصحابنا بالمسلمين ، وأين كان محمد من نصرتهم ؟ ، فقال الرجل : كان قد حضر فتح الرها ، فعجب الملك والقوم ، واستهزوا به ، فقال الملك لاتضحكوا فوالله ما قال شيئا إلا وأصاب ، فوصل الخبر بعد ذلك بأن الرها فتحت في ذلك التاريخ(٤) .

وسار أتابك ففتح سروج وما حول الرها من الحصون ، وجاء الى حصن البيرة فنازله وضايقه ، ولم يبق الا فتحه ، فجاءه الخبر بأن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد قتل ، فعاد الى الموصل ....

السنة الاربعون وخمسمائة

فيها ...

السنة الحادية والاربعون وخمسمائة

فيها ... توفي زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي ، ولقبه أتابك عماد الدين ، وآق سنقر أبوه لقبه قسيم الدولة ، وكان من أصحاب السلطان ملك شاه ، ولما قتل آق سنقر ، لم يكن له من الأولاد إلا

زنكي ، وكان ابن عشر سنين ، فاجتمع اليه مماليك أبيه ، وأقام زنكي إلى سنة ست عشرة وخمسمائة ، فاقطع واسطا والبصرة ، وقيل أعطي شحنكية البصرة ، ورجع تولى زنكي بلادا كثيرة ، ولاه إياها السلطان ، فقام بها أحسن القيام ، وفتح بلادا كثيرة بإربل وجزيرة ابن عمر وسنجار والرحبة ، وغيرها وعبر الفرات فأخذ حلب وحماه وحمص وبعلبك ، وعاد الى الشرق ففتح دارا في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وفتح العقر وسوس في سنة سبع وعشرين وخمسمائة وسار الى بغداد لنجدة الراشد وخرج به من بغداد سنة ثلاثين وخمسمائة ، وجرى ما ذكرنا ، وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أخذ شهرزور من ابن قفجاق التركماني ، وحصر دمشق مرارا ، وبنى العمادية في الهكارية ، وكان فساد الاكراد قد عم فانزجروا بها ، وفتح الرها وطبرية والمعرة وحران وحانى وغيرها ، وكان ينهى أصحابه عن شراء الاملاك ، ويقول الاقطاع تغني عنها ومتى كانت لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك معها ، ومتى كانت لأصحاب السلطان تعدوا على الرعية وظلموهم ، وكانت له عناية بأخبار البلاد ، ويغرم عليها الأموال فكان يقف على أخبار الملوك ساعة بساعة ، وإذا جاءه رسولا لايمكنه من الحديث مع أحد من الرعية لئلا يخبر بأخبار البلاد ، واودع بعض اصحابه خشكاذكة فأقامت عنده سنة ثم طلبهامنه ، فأحضرها وقال مثلك يصلح للحفظ ، وولاه قلعة كفراشب ، وهي قلعة عظيمة ، وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد ، ولايجعلها في مكان واحد ، ويقول إذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث ، وأنا في موضع آخر لم انتفع بها ، وذهبت ، وإذا كانت متفرقة لم يحل بيني وبينها ورجعت الى بعضها ، وكان مهيبا - بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وقطع ذكره ، فخاف الولاة وانزجروا .

ذكر مقتله

كان قد نازل قلعة جعبر ، وبها شهاب الدين سالم بن مالك العقيلي وكان ملك شاه أعطاه إياها لما أخذ منه حلب ، وقد ذكرناه فقاتلها زنكي ونصب عليها المنجنيقات وضايقها ولم يبق إلا فتحها ، فلما كانت ليلة الثلاثاء سابع عشر ربيع الآخر اتفق على قتله ثلاثة من خدامه وكان مغرى بخصي أولاد الناس ، وخصى جماعة ، فلما كان في هذه الليلة ذبحوه في فراشه ، وهربوا الى القلعة ونادوا بالحراس : عرفوا شهاب الدين بأنا قد جئنا في مهم ، فأحضرهم فأخبروه ، فقال للحراس : صيحوا على عسكره ملحوه ملحوه ، فصاحوا ، فدخل أصحابه عليه فوجدوه مذبوحا ، فحملوه في سفينة الى الرقة فدفنوه بها ، وقد صار موعظة العالمين .

ذكر ما تجدد من الحوادث بعد مقتله

منها أنها كانت معه أولاده الثلاثة : مودود ، وغازي ، ومحمود ، ولقب مودود قطب الدين ، ولقب غازي سيف الدين ، ولقب محمود نور الدين ، وكان لزنكي ولد آخر اسمه أمير ميران لقبه نصرة الدين ، وليس له عقب ، ونور الدين محمود كان له اسماعيل مات ، وانقرض عقبة بعده ، والعقب لقطب الدين مودود ، وسار غازي الى الموصل وبها زين الدين علي كوجك ، فامتنع عليه أياما حتى تقررت الأمور ، ثم دخل الموصل ، وهذا هو المشهور ، ورأيت في بعض تواريخ الموصل أن سيف الدين غازي لم يكن مع أبيه لما قتل ، وكان بشهر زور ، وكان أبوه قد أعطاه إياها ، فأرسل إليه زين الدين علي ، وكان زنكي قد عهد إليه أن الموصل لغازي ، فلما جاء استحلفه على أشياء ، ثم دخلها .

وأما نور الدين محمود فان اليغيسياني ويلقب صلاح

الدين - وسيف الدولة سوار أخذاه ، ومضيا به الى حلب فدخلها
ومنها أن الخادم يرنقش القاتل لزنكي انفصل من قلعة جعبر في جمادي الآخرة ، لخوف صاحبها من طلبه
ووصل الى دمشق ظنا منه أنه قد أمن ، ومدلا بما فعل فقبض عليه ، وبعث به الى حلب فبعث به نور الدين الى الموصل ، فقتل أشر قتلة ، ومثلوا به أقبح مثلة .

ومنها أن جوسلين صاحب الرها لما قتل زنكي راسل من كان بها من الارمن ، ووعدهم يوما بعينه يصل اليهم فيه ، فأجابوه ، فجاء فدخل البلد ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وبلغ الخبر نور الدين وهو بحلب ، فسار إليها بعساكره ، فهرب جوسلين ، ودخلها نور الدين فقتل من بها من الأرمن ، وغنم أموالهم ، واستقرت في يد نور الدين ، ولم يعارضه أخو نور الدين سيف الدين غازي .

ومنها اجتماع نور الدين بأخيه غازي ، لما ملك سيف الدين الموصل راسل أخاه نور الدين في الاجتماع به ، فاعتذر بالفرنج خوفا على نفسه منه ، فحلف له واتفقا على أن يجتمعا في الجزيرة ، ويكون مع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فخرج سيف الدين من الموصل ، وقطع نور الدين الفرات ، ووصل الخابور فالتقيا في الليل ، ولم يعرفه نور الدين ، فلما عرفه ترجل وقبل الارض بين يديه ، وترجل سيف الدين وتعانقا وبكيا ، وجلسا يتحدثان فقال له سيف الدين : ما الذي منعك من المجيء الى عندي أكنت تخاف مني ، والله ما خطر لي ما تكره وأنا فلمن أريد الناس ، وبمن انتصر إذا فعلت مع اخي وأعز الخلق علي ما يكره ؟! فطاب قلب نور الدين وكان سيف الدين الاكبر .....

السنة الثانية والاربعون وخمسمائة

فيها ... فتح نور الدين حصن أرتاح وكفر لاثا من بلد حلب ....

السنة الثالثة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي ربيع الاول نزلت الفرنج على دمشق خرج ملك الالمان من البحر في جيوش لاتحصى ، واجتمع عليه ملوك الساحل وكذودها ، واجتمعوا في البيت المقدس ، وصلوا صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العساكر ، وكان مقدار ما فرقوه تسعمائة الف دينار ، ولم يظهروا أنهم يريدون دمشق ، ووروا بغيرها وهرب المسلمون من بين أيديهم ، وجمعوا الغلال والاتبان وأحرقوها ، وكان صاحب دمشق مجير الدين بن محمد بن بوري بن طغتكين ومدبر الأمور معين الدين أنر ، فلما كان يوم السبت سادس ربيع الأول ، لم يشعر أهل دمشق إلا وملك الالمان قد ضرب خيمته على باب دمشق في الميدان الاخضر ، واختلفوا في عددهم ، فقال قوم في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، ونزل الكذود والخيالة على الشرف القبلي في مائة ألف راجل ، واجتهد المسلمون في احصائهم فلم يقدروا ، وخرج اليهم معين الدين أنر ومجير الدين ابق في مائة الف راجل ، سوى الفرسان ، فقاتلوا في اليوم الأول قتالا شديدا ، فقتل من المسلمين نحو من مائتين منهم الفندلاوي ، وسنذكره في موضعه ، وكان القتال يعمل ليلا نهارا وضايقوا البلد ، ونزلوا على أبوابه ، وكان معين الدين أنر كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ، ويقول:أدركنا ، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس ، فنزل بحيرة حمص ، وبعث الى معين الدين يقول قد حضرت بجند عظيم ، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، إن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج ، وكانت علينا الهزيمة ، وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أحببت أن أقاتلهم فيسلم البلد إلى من أثق به ، وأن أحلف لك إن كانت النصرة لنا عليهم أنني لا أدخل الى دمشق ، وأرجع الى بلادي فمطله معين الدين أنر وبعث الى السواحلة يقول : هذا ملك الشرق نازل على حمص ، وليس لكم به طاقة إن رحلتم وإلا أسلمت

دمشق اليه ، وهو يبيدكم ، وأنا أعطيكم بانياس ، فأجابوه ، وحسنوا للغرباء بالرحيل فأفهموهم ، وكان زمان الفواكه فنزل الفرنج الوادي فأكلوا منها شيئا كثيرا فأخذت اجوافهم ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون ، ولما ضاق بأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم ، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان ، ونشروا مصحف عثمان ، وحثوا الرماد على رؤوسهم ، وبكوا وتضرعوا ، فاستجاب الله لهم ، فكان مع الفرنج قسيس كبير ، طويل اللحية يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق ، فركب حماره ، وعلق في عنقه صليبا ، وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع الأقساء بين يديه بالاناجيل والصلبان والكتب ، والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من الفرنجة أحد إلا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس ، قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم دمشق وفتح المسلمون الأبواب ، واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله ، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس وهو في أول القوم ، فضربه فأبان رأسه ، وقتل حماره ، وحمل الباقون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة آلاف ، واحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط وتبعوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فأصبحوا قد رحلوا ، ولم يبق لهم أثر ، وبعث الفرنج يطلبون من معين الدين أنر بانياس ، فقال انما وعدتكم بها إذا رحلتم ، وهذا فعل الله ، فقالوا نحن نعود الى دمشق ونقيم عليها فلا نرحل حتى نأخذها ، وكانوا قد حرقوا الثنيات والربوة ، وقطعوا الاشجار ، ودرسوا ظاهر دمشق ، فرأى معين الدين من المصلحة بقاء دمشق ببانياس وكان سيف الدين قد طمع فيها ، فأعطاهم بانياس ، وبقيت في أيديهم حتى فتحها نور الدين محمود ، وكان قد وقع في دمشق في أيام الحصار طاعون .... وعاد سيف الدين غازي الى بلاده ....

وفيها توفي القندلاوي ، واسمه يوسف بن دوناس بن عيسى أبو الحجاج المغربي الفقيه المالكي ، ذكره جدي والحافظ ابن عساكر ،

قال : قدم الشام ، وسكن بـانياس مـدة ، وانتقــل الى دمشــق فاستوطنها ودرس بها بمذهب مالك ، وحدث بالموطأ وغيره ، وقــال الحافظ علقت عنه أحاديث يسيرة ، وكان شيخا حسن المفاكهة حلو المناظرة شديد التعصب لأهل السنة ، كريم النفس مـطرحا للتـكلف قوي القلب صاحب كرامات .

ذكر مقتله

لما كان في اليوم السادس من شعبان ، أول قتال الفرنج دمشـق ، خرج الفندلاوي راجلا ومعه أصحابه، فالتقاه معين الدين أنر فقال للشيخ:إن الله قد عذرك ليس لك قــوة على القتــال ، ونحــن نكفيك فارجع ، فقال قد بعت وا شترى فلا والله لا أقيله لا أستقيله ، وقرأ : (إن الله ا شترى من المؤمنين انفسهم) الآية ، ومضى نحو الربوة ، فتلقاه طلب بين الربوة والنيرب فقتلوه فقال ابن الحكم الاندلسي هذه الأبيات :

بشط نهر داريا
أمورا ما تواتينا
أتانا مائتا ألفـ
عديدا أو يزيدونا
ورايات وصلبان
على مسجد خاتونا
فقلنا إذ رأيناهـم
وقد جاؤوا يريدونا
وشيخا فندلاويا
فقيها يقصد الدينا
ولكن غادروا القبـ
ـر تحت الارض مدفونا

قال الحافظ ابن عساكر : أقام مدة ببانياس خطيبا ، وكان شيخا كبيرا ، ودرس بدمشق في حلقة المالكية ، ولما قتل حمل الى الباب الصغير فدفن به ، وقبره من جانب المصلى قريبا من الحائط ، وعليه بلاطة مذقور فيها شرح حاله ، ورآه بعض أصحابه في المنام في تلك الليلة فقال : ما فعل الله بك . فقال : في جنات عدن(على سرر متقابلين) . [الصافات ٤٤]

السنة الرابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... جمع الفرنج من الساحل ليقصدوا بلد حلب ، فسار اليهم نور الدين بعساكره ، وجمع كبير من التركمان ، وكتب الى معين الدين أنر يستنجده ، فبعث إليه الامير بزان في عساكر دمشق ، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وخرج الى انطاكية ، خرج إليه البرنس ، وكانت بينهم وقعة عظيمة كسرهم نور الدين الكسرة المشهورة ، وقتل من كنودهم ألفا وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه الى نور الدين فعاد إلى حلب بالغنائم الكثيرة والاسرى فبعث ببعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق وإلى الملوك ....

وفيها فتح نور الدين حصن أفامية ، وكان على أهل حمص وحماة منه ضرر عظيم ، كانوا يشنون الغارات منه على البلاد .

وكان جوسلين الفرنجي صاحب تل باشر وأعزاز وعينتاب والراوندان ودربساك وكفرسود وليلون وبهسنا والبارة ومرعش ، وكفر لاثا وحصن منصور وغيرها من الحصون شمالي (حلب) ، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم ، فجهز اليه نور الدين سلاحداره في جيش فظهر عليه جوسلين وأسر السلاحدار ، وبعث به هدية الى صاحب الروم ابن قليج أرسلان ، وقال نفذت اليك سلاحدار

صهرك ، وسأبعث إليك بعد هذا غيره ، وكان نور الدين قد صاهر ابن قليج أرسلان ، وبلغ نور الدين قوله فعز عليه فدس جماعة وقال من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد ، فجاءت طائفة منهم فنزلوا في بلد عينتاب ، وخرج جوسلين ليغير عليهم ، فاستحسن امرأة فخلا بها تحت شجرة ، وكمن له التركمان فأخذوه اسيرا ، وكان نور الدين بحمص فحملوه اليه فأعطى من جاء به عشرة آلاف دينار ، وكان أسره من أعظم الفتوح في الاسلام ، لأنه كان شجاعا مقداما غدارا ، غدر غير مرة بالمسلمين ، ولما حصل بيد نور الدين أخذ منه جميع ماذكرناه من القلاع والبلاد بعد ذلك وأمن الناس شره .

وفيها توفي معين الدين أنر بن عبد الله ، مملوك أتابك طغتكين ، والي دمشق ، وكان صاحب أمرها نيابة ، عن أولاد طغتكين ، وكان صالحا عادلا محسنا كافا عن الظلم ، متجنبا للمآثم ، محبا للعلماء والفقراء ، أوقف أوقافا كثيرة على أبواب البر ، وبذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين ، فلما مات في ثلاث عشري ربيع الآخر ، شرع أمر مجير الدين ابق في الانحلال ، وآل أمره إلى الاضمحلال ....

السنة الخامسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وقع الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق ، وقد ذكرنا أن نور الدين تأخر عن دمشق ، فلما سكنت الامطار ، عاد فنزل عليها وضايقها ، ثم إنه أشفق من سفك دماء المسلمين ، فراسلوه ، وخرج إليه مجير الدين أبق والرئيس ابن الصوفي ، وبذلا له الطاعة ، وأن يخطب له على منبر دمشق بعد الخليفة ، وينقش اسمه على الدينار والدراهم ، فرضي وخلع على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين ، وعلى الرئيس خلعة الوزارة ، وطيب

قلوبهما ، وخرج ، ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره ، وكان ذلك في المحرم من هذه السنة .

ووصل الملك مسعود قاصدا أنطاكية ، ونزل على تل باشر وضايقها في المحرم أيضا ....

...وفيها أسر ابن جوسلين ، وحمل الى قلعة حلب ، وسار نور الدين ففتح قلعة أعزاز ، ورحل الملك مسعود من تل باشر بعد أن اشرفت على الاخذ ....

وفيها ملكت الفرنج عسقلان ، لانهم ضايقوها ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وعجز من فيها ، فطلبوا الامان ، فأمنوهم ، وكان بها الذخائر والعدد والغلال ما لا يحصى ، وقيل إن أهلها كانوا في ضائقة يرتقبون كل يوم الاسطول والنجدة من مصر ، فبيناهم في آخر نفس ، وإذا بمركب صغير قد أقبل من مصر ، فاستبشروا ، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من مصر الى الوالي يقول ساعة وقوفك على هذا الكتاب ، تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظا تجعلها شبابات ، فقال للرسول : نعم الى غداة غد ، ثم خرج في الليل الى الفرنج ، وأخذ أمانا لأهل البلد ، فلما طلع الفجر فتح الابواب ، ودخل الفرنج البلد ، فأحضر القاصد بالكتاب ، وقال : هذا هو الجواب ....

السنة السادسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... في المحرم عاد نور الدين الى حصار دمشق ، فجاء فنزل عيون الفاسريا وامتد عسكره الى ما بين عذراء والقصير ، وأرسل الى مجير الدين يقول قد كنت اتفقت معكم ، وحلفت لكم ، والان قد صح أنكم ظاهرتم الفرنج ، فإن اعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله ، رجعت عنكم ، فلم يردوا عليه جوابا ، فرحل نور

الدين ، فجاء فنزل مشهد القدم ، وأحاطت عساكره بالبلد ، وضايقه ، ولم يزحف خوفا من سفك دماء المسلمين ، وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين ، فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولم تزل المناوشات تعمل في كل يوم الى ثالث وعشرين صفر ، فرحل الى داريا مستعدا للقاء الفرنج ، وكان عسكره يزداد كل يوم قوة ، وعسكر دمشق يضعف ، ومع هذا فما كان يأذن لأحد في قتال المسلمين ، وما خرج عسكر دمشق إلا وعادوا مفلولين مكسورين ، وقرب الفرنج من داريا ، فأشار على نور الدين خواصه بالرحيل ، وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق ، فارتفع الى الزبداني ، ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل ، وخرج مجير الدين والمؤيد إليهم ، واجتمعوا بملكهم فما صادفا عندهم من العدة ماكانا يظناه ، فاتفقوا على نزول الفرنج على بصرى فإنها عصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وأرسل نور الدين أربعة آلاف فارس إلى حوران ، وبلغ نور الدين فعاد الى دمشق ، وقيل نزل بعين الجر من البقاع ، وضايق الفرنج بصرى ، فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم ، وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال عن ترحيلهم نور الدين عن دمشق ، وقالوا لولانا ما رحل .

وعرض نور الدين عسكره بالبقاع ، وكان من عين الجر الى الدلهمية ، فكانوا ثلاثين ألفا من عسكره والتركمان ، وغيرهم ، فعاد الى دمشق ، وقد أطمعته نفسه فيها ، فنزل ارض كوكبا من غربي داريا في ربيع الاول ، ثم رحل فنزل جسر الخشب ، ثم رحل الى مسجد القدم ، فنودي في دمشق بالعسكر والاحداث بالخروج الى قتاله ، فلم يخرج إلا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج .

وبينما نور الدين على دمشق وصله كتاب من الامير حسان المنبجي أنه افتتح مدينة تل باشر ، بالامان في ربيع الاول ، فضربت البوقات والطبول في عسكر نور الدين بالبشائر ، وأقام نور الدين

على دمشق من غير قتال ولا زحف ، خوفا على المسلمين ، وقال لاحاجة لي إلى إراقة دمائهم بأيدي بعضهم بعضا ، وإنما أرفههم ليبذلوا نفوسهم في قتال الكفار ، ثم ترددت الرسائل بينه وبين مجير الدين وابن الصوفي على يد برهان الدين علي البلخي ، وأسد الدين شيركوه ، وأخيه أيوب نجم الدين ، وتقارب الامر الى تجديد أيمان وعهود وشروط اشترطها عليهم ، ورحل عنهم في العاشر من ربيع الاخر ، وسار بعض عسكر نور الدين نحو بصرى لأن واليها عصى على المسلمين ، وبعث فاعتضد بالفرنج ، فاستدعى نور الدين من دمشق المناجيق وآلة الحصار ، وبعث نور الدين إليه قطعة من عسكره .

وجاء نور الدين الخبر بأن عسكر الرقة أغار على قلعة جعبر ، فخرج الامير عز الدين علي بن مالك في أصحابه إليهم ، وقد أغاروا على أطراف أعماله ليخلص ما استاقوا ، فالتقى الفريقان وأصابه سهم من كمين ظهر عليه فقتله ، فرجعوا به الى قلعة جعبر ، واجلسوا ولده مالك بن علي في منصبه واستقام أمره ، وفي رجب توجه مجير الدين في جماعة من عسكره وخواصه الى حلب بقصد خدمة نور الدين ، وطاعته ، فالتقاه وأكرمه ، وخلع عليه وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه ، ثم عاد عنه الى دمشق مسرورا فدخلها في آخر شعبان .

وفيها قصدت الفرنج بقاع بعلبك على غرة من أهلها ، ونهبوا ما فيها من المواشي ، وسبوا النساء واسروا الرجال ، ولم يبقوا على أحد ، وكان ببعلبك عطاء الخادم فبعث الرجالة في إثرهم ، واجتمع اليهم من البقاع خلق عظيم واتبعوهم فلحقوهم ، وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما أبطأهم عن الوصول الى بلادهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وخلصوا الاسارى والمواشي ، ومن سلم من الثلج .

السنة السابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي المحرم فتح نور الدين محمود رحبة إنطرطوس عنوة ، فطلبوا الامان على النفوس فامنهم ، وملك عدة من الحصون ؛ منها المرقب ، وكان على الاسلام منه ضرر عظيم ...

السنة الثامنة والاربعون وخمسمائة

فيها ... ضايقت الفرنج عسقلان ، فبعثوا الى نور الدين يستصرخون به ، والى مجير الدين ابق صاحب دمشق ، فتوجه مجير الدين أبق الى نور الدين وعند نور الدين تركمان كثير ، فاتفقوا على النزول على بانياس ليشغلوا قلوب الفرنج بالناس النازلين على عسقلان ، فساروا إليها يوم السبت تاسع وعشرين صفر ، وليس فيها من الفرنج من يحميها ، فوقع الخلف بين المسلمين ، فعاد مجير الدين الى دمشق ونور الدين الى حمص ....

السنة التاسعة والاربعون وخمسمائة

وفيها ملك نور الدين محمود دمشق وسببه ما ظهر من مجير الدين من الظلم ومصادرة أهلها وسفك دمائهم ، وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الاعيان ، واستدعى سيف الدولة ابن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ، ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ، ونهب أموالهم ، وتكاثرت مكاتباته الى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد ، وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق أنه كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج ، وبلاد الساحل ، وكانت دمشق في طريقه ، وطمع الفرنج في مجير الدين ، وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى باب

دمشق فيقتلون ويأسرون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذها منهم ، وأذل الاسلام وأهله في أيامه وساءت سيرته وكثر فساده ، فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث ، وقالوا : إن شئت حصرناه في القلعة ، فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف ، وقال إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد ، فيكون وهنا عظيما على الاسلام .

وكان من أشد الامور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق ، لأنه كان أحرق قلاعهم وخرب بلادهم ، وكان ليس له دمشق ، فكيف وقد صارت له ، فإنه يتقوى بها ، فعدل الى ملاطفة مجير الدين ، ومكاتبته وبعث اليه بهدايا ، فأنس به ، وصار يكاتبه يستشيره ، فكان نور الدين يكتب إليه بأن فلانا يكاتبني وفلانا يكاتبني ، فتارة يقبض مجير الدين عليهم ، وتارة ينفيهم ، فخلت دمشق من الامراء ، ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلمي ، وكان صاحب بعلبك ، قد رد إليه مجير الدين أمر دولته ، وكان ظالما ، فكتب نور الدين الى مجير الدين يقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه ، وعلم نور الدين أنه لايتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء ، فقبضه مجير الدين ، وأمر بقتله ، فقال له عطاء: لاتقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك ، وذهب ملكك ، وسترى ، فلم يلتفت إليه وقتله ، فحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى احداثها وأعيانها ، فأجابوه فسار إليها ، ونزل عليها ، وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم بعلبك وأموالا كثيرة ، وبلغ نور الدين ، فارسل الى الاحداث ، ففتحوا له الباب الشرقي ، فدخلها عاشر صفر وقيل سلخ ذي الحجة .

وحصر مجير الدين في القلعة وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا ، وقال أبو يعلى بن القلانسي : ووصل اسد الدين شيركوه الى غوطة دمشق في ألف فارس ، فنزل على النقب في المرج على أنه رسول من نور الدين فلم يخرج إليه أحد من دمشق ، وذلك في الثاني من المحرم فلما كان يوم الاحد ثالث صفر وصل نور الدين بعسكره وخيم بعيون الغار

شيئا ثم رحل من الغد فنزل بيت الابــار(٥) وزحــف على البلد مــن شرقيه وزحف اليه من عسكر دمشق وأحــداثه الخلق الكثير ووقــع الطراد بينهم أياما ، فلما كان يوم الاحــد عاشر صــفر زحــف نور الدين وظهر إليه العسكر من دمشق على العادة ، ووقع الطراد بينهم فدفعهم نور الدين الى باب كيسان ولم يبق على السور احــد لســوء تدبير مجير الدين ، وجاء واحد مــن رجــالة نور الدين الى الســور وعليه امرأة يهودية فدلت له حبلا فتسلق فيه وتبعه الرجالة وأصعدوا علما ، فصــاح أصــحاب نور الدين : نور الدين يامنصــور وامتنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه ، وعسفه للرعية ، ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره وبادر بعض قطاع الخشب بفأس الى الباب فكسر اغلاقه وفتحه ، ودخل العســكر فلم يقف بين أيديهم أحد ، ودخــل نور الدين وعســكره ، ودخــل مجير الدين إلى القلعة ومعه خواصه وأغلق بابها ، فأرسل إليه نور الدين بأمان أهل البلد على نفوسهم ودورهم وأموالهم ، وتقرر الامر بينه وبين مجير الدين على حمص ، وكتب له منشور بذلك ، وخرج إليهــا بــأمواله وأشــيائه ، وأحســن نور الدين إلى الناس واطلق المكوس والضمانات ودور البطيخ وسوق الخيل وما يؤخذ من الانهــار وغير ذلك ، وكان مجاهد الدين بزان محبوسا في القلعة ، ووصــل الرئيس مؤيد الدين بن الصــوفي إلى داره غير متعرض لشيء مــن الولايات وكان في نيته فساد فسر الناس بموته .

فصل

وفيها قتل الظــافر صــاحب مصر ، واقــام مجير الدين بحمص وكاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة ، وبلغ نور الدين فأعطاه بالس ليبعده من دمشق ، فلم يرض بها ، ورجع إلى بغداد فبنى دارا مقابل النظامية ، وأقام بها حتى مات وسنذكره .

وفيها وصلت مراكب الفــرنج الى تنيس فقتلوا وأسروا ونهبــوا وعادوا .

-٦٩٥٣-

السنة الخمسون وخمسمائة

وفيها ....

السنة الحادية والخمسون وخمسمائة

وفيها ....

السنة الثانية والخمسون وخمسمائة

وفيها كانت زلازل عظيمة بالشام وحلب وحماة وشيزر وأفامية وكفر طاب والمعرة وحمص ، وأنطاكية وطرابلس ، ودمشق ، وجميع العواصم ، وهلك خلق عظيم ، حتى روي ان معلما كان بحماة في كتاب ، فقام من الكتاب يقضي حاجته ، ثم عاد وقد وقع المكتب على الصبيان فماتوا بأسرهم ، وأعجب من هذا أنه لم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ووقعت أبراج القلاع وغيرها ، وهلك جميع من في شيزر الا امرأة واحدة وخادم وساخت قلعة أفامية ، وانشق تل جيرون نصفين وظهر فيه بيوت وعمائر وذواويس ، وانشق في اللاذقية موضع وظهر فيه صنم قائم في الماء ، وخربت صيدا وبيروت وطرابلس وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج .

وفيها ملك نور الدين محمود حصن شيزر وزال عنها ملك بني منقذ الكنانيين .

السنة الثالثة والخمسون وخمسمائة

وفيها نازل نور الدين قلعة حارم وأقام بها أياما فلم يقدر عليها ، فرحل عنها ، ثم جاء بعد ذلك فحصرها وفتحها وسنذكره .

وفي سلخ صفر نزلت الفرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها ، وكانوا قد جاؤوا بغتة ، وخرج اليهم أحداث دمشق فقاتلوهم الى الليل فأحرقوا جامعها وآذوا أهل الاقليم .

السنة الرابعة والخمسون وخمسمائة

وفيها حشد ملك الروم وجمع ، ووصل الى الشام ، وجمع نور الدين عليه العساكر ، وقلت ميرتهم فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون ،

وفيها نزل نور الدين محمود على حران وأخذها من أخيه أمير ميران وأعطاها زين الدين علي اقطاعا ، وسببه أن نور الدين لما مرض وقع الا ياس منه ، وكاتب أخوه أمير ميران الجند ، وطمع في الملك فشق على نور الدين

السنة الخامسة والخمسون

وفيها .....

-٦٩٥٥-

السنة السادسة والخمسون وخمسمائة

وفيها في رَبيع الأول نقل المقتفي الى الرصافة ليلة الأربعاء ، وانزل تابوته في الزبزب ومعه جميع ارباب الدولة .
وفيها قتل طلائع بن رزيك بمصر .

فصل

وفيها توفي الصالح طلائع بن رزيك ، أبو الغارات ، وزير الديار المصرية ، أقام وزيرا سبع سنين على أحسن الوجوه ، وبسط العدل والاحسان ، فلما كان العاشر من رجب وثب عليه باطني بين القصرين ، فضربه بسكين في رأسه ، ثم في ترقوته ، فحمل الى داره ، وقتل الباطني ومات طلائع من الغد ، فحزن الناس عليه ، وبكوا وأقيمت المآتم بين القصرين والشوارع ومصر ، لأنه كان جوادا محسنا مشفقا على الرعية دينا صالحا كاسمه ، كثير الصدقات ، حسن الآثار بنى جامعا على باب زويلة وآخر بالقرافة في سنة أربعين وخمسمائة ، وبنى تربة الى جانبه وهو مدفون بها ، وعمر المساجد وكان يفتقد أرباب البيوت وكان فاضلا شاعرا وله ديوان مليح ، ورثوه الشعراء وقام بعده ولده رزيك بن طلائع بأمر الوزارة ولقب بمجد الاسلام بن الصالح طلائع سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقتل في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة

السنة السابعة والخمسون وخمسمائة .....

وفيها حاصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم ، واجتمع الفرنج وراسلوه ولاطفوه ، وكانوا خلقا عظيما ، فرجع الى

حلب ، وكان معه مؤيد الدين اسامة بن مرشد بن منقذ الذي أخرجه عمه من شيزر ونزل بدار الى جانبها مسجد ، وكان قد نزل بها عام أول وحج ثم عاد الى المنزل بعد عوده من الغزاة فكتب على حائط المسجد :

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المقام اذ كنت قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشباب على ظهري (٧)

وفيها توفيت زمرد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقاق بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وأم شمس الملوك اسماعيل ، وشهاب الدين محمود ابني بوري بن طغتكين .

قرأت القرآن على أبي محمد بن طاووس ، وأبي بكر القرطبي ، وسمعت الحديث من نصر بن ابراهيم المقدسي وغيره ، وكانت محبة للعلماء وأهل الخير حنفية المذهب ، وهي التي بنت مسجد خاتون على الشرف بأرض صنعاء من دمشق ، وأوقفت عليه الأوقاف الكثيرة ، وليست خاتون التي بنت خانقاه الصوفية على الشرف القبلي من القبلة ، تلك بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي ، وتزوجها صلاح الدين ، وسنذكرها بعد الثمانين وخمسمائة ، ودفنت بجبل قاسيون ، وهي التي بنت مدرسة خاتون بدمشق .

وأما صاحبة هذه الترجمة فهي التي ساعدت على قتل ابنها شمس الملوك اسماعيل لما كثر فساده وسفكه للدماء وقتله خواص

أبيه ومصـــادرات الناس ومـــواطأة الفـــرنج على بـــلاد المسلمين ، فأراحت منه العباد ، وطهرت منه البلاد .

وقال الحافظ ابن عساكر : دبرت عليه حتى قتـل بحضرتهـا ، وأقامت أخاه محمودا مكانه ، وقد ذكرنا ذلك ، وتزوجها أتابك زنكي طمعا في دمشق فلم يظفر بطائل ، ونقلها الى حلب ، ولما قتل أتابك على قلعة جعبر عادت الى دمشق فأقامت مدة ، ثم حجت على طريق العراق ودخلت بغداد وعادت الى الحج فجـاورت بهـا سـنة حتـى توفيت ، ودفنت بالبقيع ، وكان قد قل مـابيدها فبلغني أنهـا كانت بالمدينة تغربل القمح والشـعير وتتقـوت بـأجرهما ، وكانت كثيرة البروالصدقات والصوم رحمها الله تعالى .

وفيها أقام نور الدين بحمص أياما ، ثم نزل بـلاد الفـرنج فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد عازما على حصار طـرابلس ، ومعـه خلق عظيم وضربوا خيامهم ، ولم يكن للمسلمين يزك ولاطليعـة ظنا من نور الدين أنهم لايقدمون عليه ، فبينما الناس وسـط النهـار لم يرعهم الا ظهـور الصـلبان مـن وراء الجبـل الذي عليه الحصن ، فالسعيد من ركب فرسه ونجـا ، وخـرج نور الدين مـن خيمته وعليه قباء فركب نور الدين فـرس النوبـة وفي رجله شـبحة قطعها كردي فنجـا نور الدين ، وقتـل الفـرنج وأسروا خلقـا عظيما ، واستولوا على العسكر بما فيه ، وكان من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ، ولم يستظهروا باليزك والطلائع ، وجاء نور الدين الى حمص فلم يدخلها ، واجتمع اليه من نجا من المعركة ، وأرسل الى حلب ودمشـق ، وأحضر الخيام والسـلاح والخيل وفـرقها في الناس ، ومن قتل أبقى اقطاعه على ولده ، والا فأهله وكان من عزم الفـرنج قصـد حمص ، فلمـا بلغهـم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : مافعل هذا الا عن قوة فتوقفوا وفرق في يوم واحد مائتي الف دينار ، وجـاء رجـل وادعى أنه ذهـب له شيء كثير وكان الأمـر بخلافه ، فكتب الذواب الى نور الدين أنه مبـطل في دعواه ، فـكتب اليهم لاتكدروا عطاءنا فـاني أرجـو مـن الله الأجـر على القليل

والكثير ، وكتب اليه الذواب ان الادارات والوقوف كثيرة في البلاد على الفقراء والفقهاء والصوفية ، ولو حملناها اليك في هذا الوقت لاستعنت بها وتعيد العوض ، فغضب وكتب اليهم : (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)(٨) وهل أرجو النصر الا بهؤلاء ، وهل تنصرون الا بضعفائكم ، فكتب الذواب اليه فاذا لم تغير عليهم شيئا ، وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا لاقترضنا من أرباب الأموال مانستعين به على جهاد العدو فقد نفدت الخزائن ، ويطمع العدو في الاسلام ، فبات مفكرا وقال في نفسه نقترض ثم ندفع العوض ثم قال ماأفعل ، وبات قلقا الى وقت السحر فنام فرأى انسانا ينشد :

احسنوا مادام أمركم
نافذا في البدو والحضر
واغنموا أيام دولتكم
انكم منها على خطر

فقام مرعوبا مستغفرا مما خطر له وعلم ان هذا تنبيه من الله تعالى ، فكتب اليهم لاحاجة لي في أموال الناس وعاد الفرنج الى بلادهم .

السنة التاسعة والخمسون وخمسمائة

وفيها حارب أمير ميران أخاه نور الدين فكسره نور الدين وسنذكره في ترجمة أمير ميران في السنة الآتية .

وفيها فتحت خارم في شهر رمضان في هذه السنة وكان السبب فيه ان نور الدين لما اصابه بالبقيعة ما اصابه بعث الى ملوك الاطراف : الى أخيه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين البي بماردين ، وغيرهم يطلب النجدة ، فأخبره نجم الدين بأنه جمع العساكر مجدا وعلى مقدمته

زين الدين علي كوجك ، وأما فخـر الدين قـرا أرسـلان فقـال له اصحابه : على أي شيء قد عزمت ؟ قـال : على القعـود فـان نور الدين قد أثر فيه الصوم والصلاة فهو يلقي نفسـه والناس معـه في المهالك ، فوافقوه .

فلما كان من الغد نادى في عسكره بالمسير الى الغـزاة فقيل له في ذلك فقال : ان نور الدين قد كاتب زهاد بلادي المنقـطعين عن الدنيا وذكر لهم ماجرى على المسلمين مـن الفـرنج ، وطلب منهـم الدعاء وسألهم أن يحثوا المسلمين على الجهاد ، وقد قعد كل واحـد معـه جماعة يقـرؤون كتـب نور الدين ويبـكون ويدعون له وعلي ، فـان تأخرت خرج أهل بلادي عن طـاعتي ، ثـم سـافر بنفسـه ، ولما اجتمعت العساكر على حلب سر نور الدين بقـدومها ، وسـار على حارم فنازلها ، فبلغ الفرنج فحشدوا وجاؤوا في ثلاثين ألفا وفيهـم البرنس صاحب أنطاكية ، والقـومص صـاحب طـرابلس وابـن جوسلين والدوك ، وهو رئيس القوم ، وكان فيهم من الرجالة مـالا يحصى ، ولما تراءى الجمعان صعد نور الدين على تل عال فشاهد من الفرنج ماأذهله وهاله ، فنزل وانفرد عن العساكر ، ونزل عن فرسه وصلى ركعتين ومرغ وجهه على التراب وبكى ، وقـال : ياسـيدي هذا الجيش جيشك ، والدين دينك ، ومن محمود في الناس ، افعـل مايليق بك .

وحملت الفـرنج على الميمنة وفيهـا عسـكر حلب فـاندفعوا بين أيديهم ليبعدوا عن الراجل ، وتبعهم الفرنج ، فعطف نور الدين على الرجالة فحصدهم بالسيف ، ورجعت الفـرنج فلم يروا الا الرجـالة على الأرض فانخلعت قلوبهم ، وأحـاط بهـم المسـلمون فـذلوا وخضعوا ، وعمل فيهم السيف فلم يبق منهـم الا مـن نجـا بـه فرسه ، واسر نور الدين ابن جوسلين من ملوكهم وستـة آلاف مـن أكابرهم ، وغنم ماكان معهم من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك ، وفتح حصـن حـارم في حـادي عشرين رمضـان يوم الجمعة ، وعاد الى حلب بالأسارى والغنائم وامتـلأت حلب منهـم

فبيع الأسير بدينار وفرقهم نور الدين على العساكر واعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة ، وعادوا الى بلادهم ، ثم فاداهم نور الدين وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع ، وقال آخرون : يفادى بهم ، فمال نور الدين الى الفدية ، فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلا وخيلا وسلاحا وغير ذلك ، فكان نور الدين يحلف بالله أنَّ جميع مابناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع ماوقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

السنة الستون وخمسمائة

فصل

..... فيها فتح نور الدين بانياس عنوة وكان معه أخوه نصرة الدين أمير ميران فأصابه سهم فأذهب احدى عينيه ، فقال له نور الدين لو كشفت عما اعد لك من الأجر لتمنيت ذهاب الأخرى ، وكان ولد معين الدين الذي سلم أبوه بانياس للفرنج قائما على رأس نور الدين ، فقال له نور الدين : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ، ولك فرحتان ، قال : يامولانا ولم ؟ قال : لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم .

وفيها فوض نور الدين شحنكية دمشق الى صلاح الدين يوسف ابن أيوب على ماقيل فأظهر السياسة وذفذت الأمور فقال عرقلة (٩) :

رويدكم يالصوص الشآم
فاني لكم ناصح في مقالي

وإياكم من سمي النبي
يوسف رب الحجى والجمال

فقطع أيدي النساء
وهذا يقطع أيدي الرجال

فصل

وفيها توفي امير ميران بن زنكي أخو نور الدين محمود أصابه سنهم على بانياس في عينه ، وقد ذكرنا أن نور الدين لما مرض كاتب أمير ميران الأمراء ، فلما برأ نور الدين سار إليه وأخذ حران منه فطرده فمضى الى صاحب الروم ، وجيش الجيوش في سنة تسع وخمسين وخمسمائه ، وانضم اليه خلق كثير وكان نور الدين نازلا على رأس الماء فالتقوا فكسر نور الدين وقتل أخو مجد الدين بن الداية ونهب عسكر نور الدين ، ورجع أمير ميران الى صاحب حصن كيفا مستجيرا به ، فيقال إنه مات عنده ، ويقال انه شفع فيه نور الدين فقبل شفاعته ، ومات بدمشق .

السنة الحادية والستون وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين العريمة وصافيتا وهدم قلعتاهما وسورهما ، ومضى اليه غازي بن حسان صاحب منبج ، وأعطاه الرقة

السنة الثانية والستون وخمسمائة

.....وفيها عاد اسد الدين شيركوه الى مصر ، وهي المرة الثانية ، وسببه أن العاضد كتب الى نور الدين محمود يستنجده

على شاور ، وأنه قد اشتد الأمر وظلم وسفك الدماء ، وماكان في قلب نور الدين من شاور لأنه غدر بأسد الدين واستنجد الفرنج ، فسار أسد الدين من دمشق منتصف ربيع الأول ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فنزل الجيزة غربي مصر على البحر ، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الاقطاعات ، وأنزلهم دور القاهرة ، وبنى لهم أسواقا ، وكان يتقدمهم الملك مرى وابن بيرزان ، فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين ، ثم عدى الى بر مصر والقاهرة في خامس عشرين جمادى الآخرة .

ذكر وقعة البابين

ولما عدى أسد الدين صعد الى البابين ، وخرج شاور والفرنج ورتب العساكر ، فجعل الفرنج في الميمنة مع ابن بيرزان ، وعسكره في الميسرة ، وأقام الملك مري في القلب في شوكة الفرنج والخيالة ، ورتب أسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة ، والأكراد في الميسرة ، وأسد الدين في القلب ، فحمل الملك مري على القلب فتعتعه ، وكانت أثقال المسلمين خلفهم ، فاشتغل الفرنج بالنهب ، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره ، وفرق جمعه ، وعاد أسد الدين الى صلاح الدين ، فحملا على الفرنج فانهزموا فقتلوا منهم ألوفا ، وأسروا مائة وسبعين فارسا ، وطلبوا القاهرة ، فلو ساق أسد الدين خلفهم لملك القاهرة ، وانما حول الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين ، وولى عليها ابن أخيه صلاح الدين ، فأقام بها وسار أسد الدين إلى الصعيد ، واستولى عليه ، وأقام يجمع أمواله ويجبي خراجه ،

وخرج شاور والفرنج من القاهرة فحصروا الاسكندرية ، فأقاموا عليها أربعة أشهر ، وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين ويقوونه بالمال ، وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد ، وسار الى الاسكندرية ينجد صلاح الدين ، وعاد شاور الى

القاهرة ، وراسل أسد الدين وأعطاه اقطاعا بمصر وعجل له مالا فعاد الى الشام ، وصلاح الدين يتبعه ، واعتذر الى نور الدين بكثرة الفرنج والمال ورأى صلاح الدين مافعله أهل الاسكندرية ، فلما ملك أحسن اليهم وسنذكره .

ثم أن الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بأيدي فرسانهم ، ويحمل اليهم في كل سنة مائة ألف دينار ، ومن سكن منهم القاهرة يبقى على حاله ، ويعود بعض ملوكهم الى الساحل ، وكان نور الدين ينظر من ستر رقيق ، ويخاف على مصر غلبة الفرنج عليها فسار بعساكره الى الساحل وفتح المنطيرة ، وقلاعا كثيرة ، فخاف من كان بمصر من الفرنج ، فعادوا الى الساحل في سنة أربع وستين وخمسمائة ، وسنذكره .

السنة الثالثة والستون وخمسمائة

وفيها .....

السنة الرابعة والستون وخمسمائة

وفي المحرم ملك نور الدين محمود قلعة جعبر ، خرج صاحبها ابن مالك العقيلي فأخذه بنو كلاب وذهبوا به الى نور الدين ، فأحسن اليه وأكرمه وقال أنت عاجز عن حفظها فاختر ماسميت من البلاد والاقطاعات فامتنع ، فأرسل اليها نور الدين فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني ومجد الدين ابن الداية فحصراها ، فلم يقدرا عليها ، ثم ان صاحبها طلب من نور الدين سروج وأعمالها ومالا فأعطاه وتسلمها ، وهذه القلعة مازالت في يد بني مالك من أيام السلطان ملك شاه الى هذه السنة ، وبلغ نور الدين أنهم كان لهم رجال يقطعون الطريق .

وفي صفر خرج الفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية ، فنزلوا على بلبيس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا ، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج ، وقتل البعض وهرب الباقون ، وأمر شاور أهل مصر أن ينتقلوا الى القاهرة وأحرق مصر ، وسار الفرنج من بلبيس فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر ، وضايقوها وضربوها بالمناجيق ، فلم يجد شاور بدا ان كتب لنور الدين بأمر العاضد ، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأولتين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها ، وعلم نور الدين فاسترجع وخاف عليها ، وجاءته كتب العاضد وشاور ، فقال نور الدين لأسد الدين : خذ العساكر وتوجه اليها ، وقال لصلاح الدين اخرج معه فامتنع وقال : يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد ، فقال : لابد من خروجك ، فما أمكنه مخالفة نور الدين فساروا الى مصر ، وبلغ الفرنج فرجعوا الى الساحل ، وقيل ان شاور أعطاهم مائة ألف دينار ، وجاء أسد الدين فنزل على باب القاهرة ، فاستدعاه العاضد الى القصر وخلع عليه في الايوان خلع الوزراء ، وسر أهل مصر بوصوله .

وقيل انه لم يستدعه وانما بعث اليه بالخلع والأموال والاقامات ، وللامراء الذين معه ، وأقام مكانه وأرباب الدولة يترددون الى خدمته كل يوم وشاور لم يقدر على منعهم لكثرة العساكر وكون العاضد مائلا الى أسد الدين ، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال يكون مجيئكم الى دمياط في البحر والبر ، وبلغ أعيان المصريين فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا : شاور هو فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام ، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فشرع في عمل دعوة لأسد الدين والأمراء ويقبضهم فنهاه ابنه الكامل وقال : والله لئن لم تنته من هذا لأعرفن أسد الدين ، فقال له شاور والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن كلنا ، فقال له ابنه لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج ،وكان اسد الدين قد شارط لشاور ثلث البلاد ، فأرسل أسد الدين يطلب منه المال

فجعل يتعلل ويماطل وينتظر وصول الفرنج الى البلاد فقتلوه ، وسنذكره في موضعه ، ولما قتل بعث العاضد منشورا بالوزارة لأسد الدين بخط الفاضل وعليه بخط العاضد نسخة الأيمان إلى اسد الدين ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه بالوفاء والطاعة والصفاء ، فتصرف أسد الدين شهرين ومات ، ولما احتضر أوصى لابن أخيه صلاح الدين ، فاختلف عليه جماعة من الأمراء وسنذكره في عقيب وفاة أسد الدين ، وبلغ نور الدين اتفاق الأمراء على صلاح الدين في ذلك . انتهى .

فصل

وفيها توفي صاحب دمشق وهو مجير الدين بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين ببغداد ، ودفن بداره التي عند النظامية ، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء ، وقد ذكرنا سيرته .

فصل

وفيها قتل شاور كما ذكرنا وقائعه الى هذه السنة ، وكان جبارا لاينظر في عاقبة الأمور سفاكا للدماء ، ممدوحا قد مدحه عمارة اليمني الشاعر بقصائد .

ذكر مقتله

عزم على عمل دعوة لأسد الدين والأمراء ثم يقتلهم وأن ابنه الكامل نهاه ، واختلفوا في كيفية مقتله على أقوال :

أحدها : ان الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته

للفرنج ، وأن أسد الدين تمارض ، وكان شاور يخـرج اليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر ، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه .

· والقول الثاني : أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله فأخبرا أسد الدين فنهاهما ، وقال : لاتفعلا فنحن في بلاده ومعـه عسـكر عظيم فسـكتا ، واتفـق أن أسـد الدين ركب الى زيارة الشافعي ، فأقام عنده ، وجاء شـاور على العـاده لأسـد الدين ، فالتقاه صـلاح الدين وجـرديك وقـالا : انزل هـو في الزيارة فامتنع ، فجذباه فوقع الى الأرض فقتلاه

والقول الثالث : انهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمـر أسـد الدين وسحبه الغلمان إلى الخيمة ، وانهزم اصـحابه الى القـاهرة ليجيشوا عليهم ، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا ، وجاء رسول مـن العاضد برقعة يطلب مـن أسـد الدين رأس شـاور ، وتتـابعت الرسل ، وكان أسد الدين قـد بعـث الى شـاور مـع الفقيه عيسى يقول : لك في رقبتي أيمان وأنا خـائف عليك مـن الذي عندي فـلا تجيء ، فلم يلتفت وجاء على العادة فجذبوه بالقوة عن فرسه وأدخله جرديك إلى الخيمة ، وحـز رأسـه ، فلمـا عاد أسـد الدين استرجع ، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به ، ودعا العـاضد ولد شاور الكامل فقتله في الدهليز ، وقتل أخاه ، واستوزر أسد الدين على ماذكرنا ، وقتل شاور في ربيع الآخر .

وفيها توفي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، أقام في الوزارة شهرين وأياما لأنه وزر في ربيع الآخر ، وتوفي فجـاءة يوم السـبت ثاني عشرين جمادى الآخـرة ، وكانت وزارتـه شـهرين وخمسـة أيام ، وكان كثير الأكل اللحـوم الغليظـة ، وكان يواتـر التخـم والخوانيق ، فاعتراه خانوق عظيم فقتله ، ودفن بظاهر القاهرة الى أن مات أخوه نجم الدين أيوب ، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفنا في رباطيهما ، ولما مات كان قد أوصى الى ابـن

اخيه صلاح الدين ، فاختلف الأمراء عليه ومنهم عز الدين الياروقي رأس الأتراك ، وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب ملك الأكراد ، وشهاب الدين محمود صاحب حارم وهو خال صلاح الدين وجماعة وكل واحد منهم رام أن يكون له الأمر ، فبادر العاضد واستدعى صلاح الدين ، وخلع عليه في الايوان خلعة الوزارة ، وكتب عهده كما فعل بأسد الدين ، ولقبه الملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضيء بعد ذلك ، وشرع الفقيه عيسى في تفريق البعض عن البعض ، واصلاح الأمور لصلاح الدين ، وبذل صلاح الدين الأموال وأحسن الى جميعهم ، وأقام نائبا عن نور الدين يدعو لنور الدين على المنابر بعد العاضد ولصلاح الدين بعدهما ، .

وذكر الحافظ ابن عساكر أسد الدين فقال : قد ولي دمشق ، وأقام يحارب الفرنج ، وفتح حصونا كثيرة ، وكان شجاعا مقداما صارما مهيبا ، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة وذكر فتوح مصر .

انتهت ترجمة أسد الدين والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم .

السنة الخامسة والستون وخمسمائة

وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر ، وجدوا في القتال ، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمناجيق ويزحفون اليها ليلا ونهارا ، ووجه صلاح الدين اليها العساكر مع شهاب الدين خاله وتقي الدين ، وطلب من العاضد مالا فبعث بشيء كثير ، فكان صلاح الدين يقول : مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها .

وأشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات ، ووقع فيهم الوباء

والفناء ، فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير ، وكان رحيلهم في ربيع الآخر ، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنازله وضربه بالمناجيق ، وجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر إلى البلقاء .

وفي شوال كانت بالشام زلازل هائلة بحيث وقع معظم دمشق وشرفات الجامع وسقطت رؤوس المنابر ، وكانت تهتز مثل النخل في ريح عاصف ، وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد ، فهلك من أهلها ثمانون ألفا تحت الهدم ، وتهدمت أسوار جميع القلاع وخرج أهلها الى البراري ،ووقعت قلعة حصن الأكراد بحيث لم يبق للسور أثر ، وكذا حماة وحمص ، فلولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج في قتاله سار وأخذ حصن الأكراد ، وجاءه ما شغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق ، أما من ناحية المشرق فوفاة أخيه ، قطب الدين مودود بالموصل ، وأما من دمشق فوفاة العمادي وكان نائبه في حلب وغيرها ، وكانت له بعلبك وتدمر ، وكان عزيزا عند نور الدين وصاحبه وحاجبه ، وبلغه ايضا وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب وكان صاحب بره .

وسار نور الدين الى حلب خوفا عليها من العدو ، لأن اسوارها تهدمت ، وفرق نور الدين العساكر في القلاع خوفا عليها من العدو ، ولأنها بقيت بغير اسوار ، وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا وأخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية ، ونزلت الى اللاذقية وجبلة وجميع بلاد الساحل الى الداروم ، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل واحد اصابه حجر وهو على درج جيرون ، لأن أهلها خرجوا الى الصحراء .

ثم امتدت الزلزلة وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقة وماردين وغيرها ، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق ، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم .

وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني ، فأحرقوه لما نزلت الفرنج على داريا في أيام مجير الدين ، أمر أن يعمر ــ نور الدين ــ في هذه السنة هذا الجامع في وسط القرية ....

فصل

وفيها توفي مودود بن زنكي صاحب الموصل ، ولقبه قطب الدين أخو نور الدين محمود ، كان أسمر اللون ، وتام القامة ، وعادلا منصفا ، ولما احتضر أوصى الى ولده زنكي ولقبه عماد الدين ، وكان أكبر ولده وأعزهم اليه ، وتوفي قطب الدين ، وقد جاوز الأربعين وكانت ولايته احدى وعشرين سنة .

وفيها توفي أبو بكر ابن الداية ، ويلقب مجد الدين من أكابر أمراء نور الدين كان شجاعا دينا بنى بحلب خانقاه ، وهي باقية الى هلم جرا ، واتفق موت العمادي في هذه السنة وكان من أعظم أمرائه ، ولما مات بكى نور الدين وقال : قص جناحاي ، وأعطى أولاد العمادي بعلبك وقدم على العساكر سابق الدين عثمان ابن الداية أخا مجد الدين ، ودفن مجد الدين بحلب والعمادي بقاسيون في تربة قريبة من تربة شركس شمالها وهي أول تربة بنيت في الجبل واسمه مكتوب على بابها وقفت على باب التربة وعليها مكتوب « هذه تربة العمادي محمد »

السنة السادسة والستون وخمسمائة

وفي أول المحرم سافر نور الدين الى سنجار ففتحها ، وسلمها الى عماد الدين زنكي ابن أخيه ، وسار فنزل على الموصل وأخذها من عبد المسيح وكان بها ، وأزال من الموصل الضمانات

والمكوس ، وعدل وأحسن الى أهله ، وأعطى عمر الملا ستين ألف دينار من فتوح الفرنج ، وأمر بعمارة الجامع النوري وسط البلد ، وأعطى جزيرة ابن عمر والموصل لابن أخيه سيف الدين ، وأقام عشرين يوما ، وكان يحب الموصل ، فقيل له : لو أقمت بها ، فقال : ومن يجاهد الكفار ويحفظ بلاد المسلمين ، ثم رحل نحو الشام ومعه عبد المسيح ، وقد أحسن اليه وأقطعه اقطاعا كبيرا ، وكان قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ماكان يعمل شيئا حتى يستأذنه ، ثم قال نور الدين لعبد المسيح : ويحك ماهذا الاسم القبيح ، أما كان في الدنيا مسلم يغيره وكيف وافقك عليه أخي قطب الدين ؟

فصل

وفيها بعث الخليفة (المستضيء) رسولا الى نور الدين محمود يعرفه بخلافته ، ويطلب البيعة له ، فبعث نور الدين الى الخليفة شرف الدين بن أبي عصرون نائبا عنه في الخدمة .

وفيها بنى صلاح الدين بالقاهرة المدرسة الصلاحية الشافعية وكان موضعها حبس المعونة ، وبنى بها أيضا مدرسة المالكية بالقرب من دار العدل ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي القضاء بالقاهرة ومصر وأعمالها ، وفي جمادى الأولى خرج صلاح الدين بالعساكر الى الشام فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى الى ايلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، والدقاه الاسطول في البحر فافتتحها وقتل من فيها ، وشحنها بالرجال والعدد ، وكان على الحاج منها خطر عظيم ، ثم عاد الى القاهرة في جمادى الآخرة .

- ٦٩٧١ -

السنة السابعة والستون وخمسمائة

وفيها خطب لبني العباس بمصر بعد انقطاع الخطبة عن بني العباس فيها مائتي سنة وثماني سنين .

وفيها بعث الخليفة الخادم صندل المقتفوى، وهو أكبر الخدم الى نور الدين جواب ابن أبي عصرون بالخلع لنور الدين ،وفيها طوق فيه ألف دينار ، والفرجية والعمامة ، ولصلاح الدين دونها ، وبعث لنور الدين سيفين قلده ، سيفا الشام ، وسيفا لمصر ، وزينت بغداد وضربت القباب .

وفي هذه السنة أخذ نور الدين الحمام الهوادي في جميع البلاد في الأبراج تنفذ اليه الأخبار ، وسببه اتساع مملكته ، فكانت من حد بلاد النوبة الى همذان ، وكان أهم ماعنده قلع الفرنج من الساحل ، فكان اذا تحرك الفرنج لقصده ، أو تحرك لقصدهم ، كتب الكتب على أجنحة الطيور الى البلاد البعيدة ، يستدعي العساكر ، فيأتون اليه بسرعة .

فصل

وفيها توفي العاضد واسمه عبد الله بن يوسف بن الحافظ ابو محمد ، ولم يل أبوه الخلافة ، وقد ذكرناه ، وأمه أم ولد يقال لها ست المنى، ولد سنة اربع وأربعين وخمسمائة وبويع في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن احدى عشرة سنة ، وكانت أيامه احدى عشرة سنة وشهورا ، واختلفوا في سبب وفاته على أقوال :

أحدها : أنه تفكر في أموره فرآها في ادبار ، فأصابه ذرب عظيم فمات منه .

والثاني : أنه لما خطب لبني العباس بلغه فاغتم فمات ، وقيل ان أهله أخفوا عنه ذلك وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان مات فلا ينبغي ان ينغص على هذه الأيام التي بقيت من عمره .

والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته كان في خاتم له فص مسموم فمصه فمات ، وختم صلاح الدين على مافي القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره ، وكان في القصر من الجواهر النفيسة مالم يكن عند خليفة ولا ملك ، مما قد جمع على طول السنين ، فمنها القضيب الزمرد وطوله قبضة ونصف ، والجبل الياقوت الأحمر ، والدرة اليتيمة مثل بيض الحمام ، والياقوتة الحمراء ، وتسمى الحافر ، وزنها أربعة عشر مثقال ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة مائة الف مجلد ، ووجد عمامة القائم وطيلسانه بحاله ، بعث بهما البساسيري الى المستنصر ، ووجد أموالا لاتحد ولاتحصى ، وأفرد أهل العاضد ناحية عن القصر وأجرى عليهم جميع مايحتاجون اليه وسلمهم الى قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم وفرق الأموال التي أخذها من القصر في العساكر وباع بعض الجواري والعبيد وأعطى القاضي الفاضل من الكتب ماأراد وبعث الى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهدايا وتحفا وطيبا ومائة الف دينار ، وكان نور الدين بحلب فلما حضرت بين يديه قال والله ماكان بنا حاجة الى هذا ماوصل الينا عشر معشار ماأنفقناه على العساكر التي جهزناها الى مصر وماقصدنا بفتح مصر الا فتح الساحل وقلع الكفار منه ، وانقضت أيام المصريين بموت العاضد وعددهم أربعة عشر على عدة بني أمية إلا أن ايامهم طالت فملكوا مائتين وثماني سنين وبنوأمية ملكوا نيفا وتسعين سنة وقد ذكرنا سيرة المصريين على وجه التفصيل وتقلب الأحوال .

السنة الثامنة والستون وخمسمائة

وفيها بعث صلاح الدين الى نور الدين هدية فيها فيل وحمار

عتابي ، فبعث بها ذور الدين الى بغداد ، وخرج الناس للقائها ، وعجبوا من خلقة الحمار ، وكان بمحلة العتابيين رجل نحوي قاصر في كل شيء ، قد تعلق بطرف من النحو ، وكان يدعي دعاوى عظيمة ، فخرج مع الناس يتفرج وراه بعض الظراف ، فقال : ياقوم ليس بعجب ان يحمل الفتى حمار عتابي ، عندنا عتابي حمار ، فضحك الناس .

وفيها سار ذور الدين الى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد ، وتصدق بمال عظيم ، ولما علم صلاح الدين أن ذور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكر مصر فحصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها ، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك يذقلون الأخبار الى الفرنج واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين ، وقتل البعض، وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك ، وكتب إلى ذور الدين كتابا يخبره بما جرى من العربان وأن لايبقى منهم أحد وأن يدرك ديارهم فانهم آفة على المسلمين ، ودليل الكفار على الاسلام ، فلذا أبدتهم بحيث أن العدو اذا نهض لايجد بين يديه دليلا ، ولايستطيع حيلة ، ولايهتدي إليه سبيلا ،وهو كتاب طويل .

ثم عاد صلاح الدين الى مصر ، قيل هي أول غزاة ، وذكر القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ، ويعرف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله في سيرة صلاح الدين الكرك والشوبك لأنهما في طريق الديار المصرية ، وكانوا يغيرون على القوافل منها ، فقصد تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض ، فحصرهم في هذه السنة ، فلم يظفر منهم بطائل وتأخر فتحهما الى مابعد الفتوح .

وعاد ذور الدين من الموصل ، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم ففتح ذور الدين بهسنا ومرعش وقلاعا من أعمال قليج أرسلان ، وبينما ذور الدين يفتح هذه القلاع اذ جاءه خبر من حمص

بأن الفرنج قد نزلوا عليها ، فرجع الى الشام ومعه ابن الدانشمند قد وعده بخلاص بلاده ، فلما أخذ نور الدين بهسنا ومرعش والمرزبان خاف منه قليج أرسلان ، فأجابه الى ماأراد ، ورد بلاد الدانشمند ، وشرط عليه نور الدين تجديد اسلامه ، لانه كان يتهم بالزندقة ، وأنه متى طلب منه النجدة بعساكره ينجده ، وأن يزوج ابنته بابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ففعل ، وبعث نور الدين فخر الدين عبد المسيح مع ابن الدانشمند الى ملطية وسيواس ومعه عسكر في خدمته فأقام عنده حتى توفي نور الدين ورجعت البلاد الى قليج ارسلان .

وفيها قدم القطب النيسابوري (١٠) من حلب الى دمشق بعثه نور الدين مدرسا بالمدرسة الأمينية ، وقيل لم يدرس بالأمينية بل بالزاوية الغربية بجامع دمشق زاوية الفقيه نصر ، وشرع نور الدين لبناء مدرسة الشافعية الى جانب الجاروخية ، فأدركه أجله دون بنائها ، وكان قد وضع نور الدين المحراب وبعض البنيان ، وهيأ أمرها على حاله ، فجاء العادل أبو بكر بن أيوب فأزال ذلك البناء وبناها البناء المحكم ودفن بها (١١) .

وفيها بعث تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين جيشا الى المغرب مع مملوك له اسمه قراقوش فالتقاه عسكر من عند عبد المؤمن، فهزمه بعد أن أقام الدعوة العباسية بافريقية ، فعاد الى القاهرة مهزوما .

فصل

وفيها توفي نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان وكان عاقلا شجاعا حليما رحيما جوادا ، عاطفا على الفقراء والمساكين ، محبا الصالحين قليل الكلام جدا لايتكلم الا عن ضرورة ، ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى ، فكان يلعب بالأكرة دائما .

قال القاضي ابن شداد : كان شديد الركض بالخيل يلعب بالأكرة ، ومن يراه يلعب بها يقول : مايموت الا من وقوعه عن الفرس ، وركب يوما من داره ، وخرج من باب النصر يريد الميدان ، فشب به فرسه ، فوقع على رأسه فحمل الى داره ، فمكث ثمانية ايام ، وتوفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة ، دفن الى جانب أخيه أسد الدين في بيته بالدار السلطانية ، ثم نقلا بعد سنين الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبره في الطريق فحزن عليه وتأسف حيث لم يحضره .

فصل

خلف من الذكور ستة : صلاح الدين ، وأبا بكر العادل ، وتوران شاه شمس الدولة ، وشاهنشاه ، وطغتكين سيف الاسلام وبوري تاج الاسلام ، وهو الأصغر ،وشمس الدولة الأكبر ، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون .

السنة التاسعة والستون وخمسمائة

وفيها كتب صلاح الدين الى نور الدين يستأذنه في انفاذ جيش الى اليمن ، فأذن فبعث أخاه توران شاه شمس الدولة ، فسار اليها في رجب ، وكان باليمن رجل يقال له عبد النبي يلقب بالداعي من أصحاب المصريين ، وكان ظالما فاتكا ، فحصره شمس الدولة في قصر زبيد مدة ، ثم طلب الأمان ، فأمنه ، فلما نزل اليه وكل به ، وسار شمس الدولة ففتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن ، فيقال انه فتح ثمانين حصنا ومدينة واستولى على أموالها ونخائرها وقتل الخارجي وعبد النبي بن مهدي ، وولى على

زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ أبا الميمون ، وكان من الفضلاء جوادا ممدحا ،

وفيها أكثر نور الدين الصدقات والصلوات وزاد في الأوقاف وكسا اليتامى وزوج الأرامل وأغنى الفقراء ، وكشف المظالم بحيث لم يبق في بلاده مظلمة الا وردها ، وبعث محمد بن خالد القيسراني أمينا على مال القصر ، ومستوفيا لحواصل البلاد ، فأكرمه صلاح الدين ، وقال : نحن مماليك نور الدين افعل ماأمرك ، الا أن جماعة من الأكابر قد تصرفوا في أماكن لايمكن انتزاعها منهم ولايرضون بأن ينقص انتفاعها ، فعلم ابن خالد ان طاعته انما هي مخادعة ومراوغة ، فسكت ولم يشافهه ، ومات نور الدين في شوال وبطل ذلك الأمر .

وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة المصرية مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما ، بلغه انهم يجتمعون لاثارة الفتن ، واتفقوا على السودان وكاتبوا الفرنج ، وأنهم يريدون قتل صلاح الدين والغز ، ورتبوا مع السودان يبكروا وينادوا بشعار المصريين ، وكان زين الدين ابن نجية الواعظ قد اطلع على ذلك ، فخاف من صلاح الدين ، فأنهى اليه الحال ومادبروا فقبض عليهم ، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة وسنذكره .

فصل

وفيها توفي عبد النبي بن مهدي

وقفت على تاريخ بمصر فرأيت أن شمس الدولة لما سار الى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه أن يبعث اليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قبيس فتحصن عليه بقلعة بناها ، وأغلق باب الكعبة ، وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى

ركعتين ، وصعد الى باب الكعبة ، وقال : اللهم ان كنت تعلم أني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد ، وتعهدها فيسر علي فتح الباب ، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه ، ومد يده فجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا ، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر ، وقال خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك ، فقال : اذا أخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم ، وسار الى اليمن ، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد ، وقتل خلقا كثيرا ، وشق بطون الحوامل وذبح الأطفال على صدورهن ، وكان يرى رأي القرامطة ، ويظهر انه داعية لأهل مصر ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، ففعل باليمن ما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم ، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد الى حضرموت أن يحجوا الى الكعبة ، وأمرهم بالحج الى قبر أبيه ، وكانوا يحملون اليها الأموال في كل سنة مالايحد ولايحصى ، ويطوفون حولها مثل مايطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشحر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبي النساء الى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء الى زبيد فيقال أنه حصر عبد النبي فيها وابنه وقيده وقتله ، وقد ذكرناه ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء الى قبة أبيه فهدمها وأخذ مافيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبر وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ، ومضى الى صنعاء ، فحلف شمس الدولة لاينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه فرجع الى زبيد ، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به فأخذ ماكان معه ، وقتله .

فصل

وفيها توفي أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر ، الملك العادل .

أعلم أن سيرة نور الدين أولى ماصرفت العناية اليها ، واعتمد في اقتناء الفضائل عليها ، تحث الطالب على نيل المطالب ، وتعدل بهمة الراغب على تحصيل الرغائب ، وقد ذكر العلماء سيرته ، وسطر الفضلاء ترجمته ، وقد جمعت في كتابي هذا ماتفرق في تواريخهم من محاسن اخباره ، وأتيت على معظم مآثره وآثاره .

فصل

في صفته وطرف من اخباره

ذكر الحافظ ابن عساكر أنه ولد في سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وكان معتدل القامة ، أسمر اللون ، واسع الجبهة حسن الصورة بلحيته شعرات خفيفة في حنكه .

قال : ونشأ على الخير والصلاح ، وقراءة القرآن ، والعبادة ، وكان قليل المحافظة للجند ، وكان أبوه زنكي يقدمه على أولاده ويرى فيه مخايل النجابة ، قال : وفتح نيفا وخمسين حصنا ، منها تل باشر ، وأعزاز ومرعش وبهسنا وتل خالد وحارم والمرزبان ورعبان وكسيون والرها ، وكسر برنس أنطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ منه ثلاثة آلاف دينار وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة اسير ، واتسع ملكه ، ففتح : الموصل والجزيرة ، وديار

بكر ، والشام والعـواصم ، ودمشـق وبعلبـك وبـانياس ومصر واليمن ، وخطب له في الدنيا ، وأظهـر السـنة بحلب وأزال الاذان بحي على خير العمل ، وبنى بها المدارس وأوقف الأوقـاف ، وبنى سور دمشق والمساجد والمدارس ،وأسقط ماكان يؤخذ من دار بطيخ وسـوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس ، وعاقـب على شرب الخمر ، وكان في الحرب ثابت القـدم حسـن الرمـي يتقـدم أصحابه ، ويتعرض للشهادة ، ويسأل الله أن يحشره مـن بـطون السـباع وحـواصل الطير ، ووقـف أوقـافا على المرضى والمجـانين ، وبنى المكاتـب لليتـامى ، وبنى المارسـتان بدمشق ، ووقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا الحجاج ، وأمر باكمال سور المدينة ، وأجرى اليهـا العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة ، وهيأ الربط والجسور والخانات والقناطر ، وجدد كثيرا من قنى السـبيل ، ووقـف كتبـا كثيرة في مدارسه ، وكان حسـن الخـط ، كثير المطـالعة للكتـب الدينية ، متبعا للآثار النبوية ، مـواظبا على الصـلوات الخمس في الجماعات ، عاكفا على تـلاوة القـرآن ، حـريصا على فعـل الخيرات، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا في الانفـاق ، متحـريا في المطعم والمشرب والملبس ، لم يسمع منه كلمة فحش قـط في رضـاه ولافي غضبه ، هذا الى مـاجمع الله فيه مـن العقـل المتين والرأي الصائب الرزين ، والاقتداء بسنة السلف الصـالحين ، حتـى روى حديث المصطفى وأسمعه ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعـه حرصا على الخير في نشر السنة والحديث ، ورجاء به ان يكون ممن حفظ على الأمـة أربعين حـديثا ، كمـا جـاء في الحديث ، فمن رآه شاهد مـن جـلال السـلطنة وهيبـة المملكة مايبهره ، فاذا فاوضه رأى من نصافته وتواضعه مايحيره ، يحـب الصالحين ويوافيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم،هذا قـول ابن عساكر،وذكر كلاما طويلا .

وقال الجزري في تاريخ الموصل (١٢) : قـد طـالعت تـواريخ الملوك المتقدمة من قبل الاسلام الى يومنا هـذا ، فلم أر فيهـا بعـد

الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من نور الدين ، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، ثم ذكر من عدله وزهده وفضله وجهاده واجتهاده من أحسن ماذكره الحافظ ابن عساكر .

قال : وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار ، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال ، فأفتوه من جهات عينوها ، فلم يتعد الى غيرها ، ولم يلبس حريرا قط ولاذهبا ولافضة ، ومنع من بيع الخمر في بلاده ، وكان يحد شاربه عند الناس ، وكان كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتمم أوراده ، وكان قد تزوج الخاتون بنت معين الدين ، فطلبت منه زيادة نفقة فقال : قد فرضت لها مايكفيها والله لاأخوض جهنم بسببها ، وهذه الأموال ليست لي وانما هي للمسلمين ،وأنا خادمهم فلا أخونهم فيها ، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها ، وكان يحصل منها قدر يسير .

قال وكان يلعب بالأكرة كثيرا ، فكتب اليه بعض الصالحين ينكر عليه ويقول : تتعب الخيل في غير فائدة فكتب اليه نور الدين بخطه : والله ماأقصد اللعب ، وانما نحن في ثغر والعدو منا قريب ، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر ، واذا طلبنا العدو أدركناه ، ولو تركناها بحالها لصارت جهاما لاينتفع بها ، فنيتي في لعب الأكرة هذه .

قال واهديت اليه عمامة مذهبة من مصر فوهبها لشيخ الصوفية أبى الفتح بن حموية (١٣) فبعث بها الى العجم فبيعت بألف دينار قال : وكان عارفا بمذهب أبي حنيفة ، وليس عنده تعصب على أحد .

قال : وكان يوما يلعب بالأكرة في ميدان دمشق فجاءه رجل فوقف بازائه وأشار اليه ، فقال للحاجب : اسأله ماحاجته فسأله فقال : لى مع نور الدين حكومة ، فرمى الصولجان من يده فجاء الى مجلس القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي قد قال : لاتنزعج واسلك معه ماتسلكه من آحاد الناس ، فلما سوى بينه وبين خصمه كآحاد الناس ، فلم يثبت له عليه حق ، وكان يدعي ملكا له في يد نور الدين ، فقال نور الدين للقاضي والعدول : هل ثبت له علي حق ؟ قالوا : لا، فقال : اشهدوا أني قد وهبت الملك له ، وقد كنت أعلم أن لاحق لك عندي ، وانما حضرت معك لئلا يقال عني أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت .

ودخل يوما الى خزائنه فرأى مالا كثيرا فقال : من أين هذا ؟ قال : بعث به القاضي كمال الدين (١٤) من مال الأوقاف ، فقال : ردوه اليه وقولوا له : ان رقبتي رقيقة لاأقدر على حمله غدا ، رقبتك غليظة تقدر على حمله ، قال ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق ، وسماها دار الكشف ، وسببه أن الأمراء لما قدموا دمشق اقتنوا الأملاك ، واستطالوا على الناس وخصوصا أسد الدين شيركوه ، وكثرت الشكاوى الى القاضي ، فلم يقدر على الانتصار من أسد الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

وأحضر أسد شيركوه أصحابه وديوانه ، وقال : ان نور الدين مابنى هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني ، والا فمن هو الذي يمتنع عن كمال الدين ، والله لئن أحضرت لدار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه ، فان كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه بمهما أمكن ، ولو أتى على جميع مافي يدي ، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين ظالم ، ويسوي بيني وبين آحاد العوام ، ففعلوا وأرضوا الخصوم ، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي : ماأرى أحدا يشكو من شيركوه ، فأخبره الخبر فسجد وقال : الحمد لله الذي جعل اصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا ، فكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل

اسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه .

قال : وكان نور الدين إذا حضر الحرب شد تركاشين وحمل قوسين وساس الحرب بنفسه فقال له القطب النيسابوري : لاتخاطر بنفسك فأنت عماد الاسلام والمسلمين فلو أصبت في معركة والعياذ بالله لايبقى من يقوم مقامك وذهبت البلاد ، فقال له : من محمود حتى يقال له هذا ، ومن حفظ البلاد قبلي الا الله تعالى .

قال : وكان اذا مات أحد من جنده أو قتل وله ولد ، فان كان كبيرا أقرالاقطاع عليه ، وان كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره حتى يكبر فكان الاجناد يقولون : هذه أملاكنا ، ونحن نقاتل عليها لأننا نتوارثها ، قال : ماكان يكل الجند على الأمراء بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يفضي الأمر الى خفضهم ، ويقول : نحن كل وقت في النفير فاذا لم تكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام .

قال : وبنى جامعه بالموصل ، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء ، وكان من الصالحين فقيل له : إنه لايصلح لمثل هذا ، فقال : اذا وليت بعض الأجناد ، أو بعض العمال لايخلو من الظلم ، وبناء الجامع لايفي بظلم رجل مسلم ، واذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم ، فاذا كان الاثم عليه لاعلي .

وكان عمر الملاء من الصالحين ، وانما سمى الملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر ويأخذ الأجرة ، فيتقوت بها ، وكان ماعليه مثل القميص والعمامة مايملك غيره ، ولايملك من الدنيا شيئا ، وكان عالما بفنون العلوم ، وجميع الملوك والعلماء والأعيان ، يزورونه ويتبركون به ، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه

وسلم ، وكان يعمل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل سنة ، ويحضر عنده صاحب الموصل والاكابر ، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه ، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ما شرع أحد في عمارتها الا وقصر فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعا فاشتراها ،وانفق عليها أموالا كثيرة ، قيل ستين ألف دينار ، ويقال ثلاثمائة ألف دينار ، فتم في ثلاث سنين ، ولما تم جاء نور الدين الى الموصل وهي المرة الأخيرة، فصلى فيه ، ووقف عليه قرية بالموصل ، ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها ، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة فترك بين يديه دساتين الخرج وقال : يامولانا أشتهي أن تنظر فيها ، فقال نور الدين : ياشيخ نحن عملنا هذا لله ، دع الحساب الى يوم الحساب ، ثم رمى بالدساتين في دجلة .

قال : وبنى جامع حماة على العاصي ، وهو من أحسن الجوامع ، وقال : وقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ، ففدى نفسه بمال عظيم ، فشاور نور الدين أمراءه فأشاروا عليه ببقائه في الأسر خوفا من شره ، فأرسل نور الدين اليه يقول : أحضر المال ، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار ، فأطلقه نور الدين ، فعند وصوله الى مأمنه مات ، فطلب الأمراء سهمهم من المال ، فقال نور الدين : ماتستحقون منه شيئا لأنكم نهيتم عن الفداء ، وقد جمع الله لي الحسنيين الفداء وموت اللعين ، وخلاص المسلمين منه فبنى بذلك المارستان بدمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق ، ووقف عليها الأوقاف .

حكى ابن الأثير قال : وبلغني أن وقوف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة تغل كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك فيه كلام ، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا صحيح الشراء .

قلت : رحم الله المجد أشار الى ذلك ، أما في زمـاننا هـذا فقـد تشعث وقفه وتغيرت صفاته ، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته .

حكى ابن الأثير أيضـا أن بعض الأمـراء كان يحسـد القـطب النيسابوري على قربه من نور الدين فنال منه ، فقال يامسـكين لو نظرت في عيب نفسك لشغلك عن عيوب الناس ، وإن صح ماقلت فله حسنة ، واحـدة يغفـر الله له بهـا كل زلة وهـي العلم ، وأنت واصحابك ليست عند الله حسنة ، والله لئن عدت الى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبنك ، فكف عنه .

قال : ماكان أحد من الأمراء يتجاسر ان يجلس عنده من هيبتـه فاذا دخل عليه فقير أو عالم أو رب خرقة قام ومشى اليه وأجلسه إلى جانبه ، ويعطيه الأموال ، فاذا قيل له في ذلك ، يقول : هـؤلاء لهـم حق في بيت المال ، فاذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا .

وذكره العمـاد الكاتـب في أول البـرق الشـامي وأثنى عليه ، وقال : وفي سنة تسع وستين وخمسمائة وهي التي توفي فيها نور الدين أكثر من الصـدقات والأوقـاف ، وعمـارة المسـاجد المهجورة ، وتعفيه آثـار الآثـام ، واسـقاط كل مـاكان فيه الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج ومـايحصل مـن قسـمة الغلات على قويم المناهج .

قال : وأمرني أن أكتب مناشير لجميع أهل البلاد ، فكتبت أكثر من ألف منشور ، وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور ، فكان ثلاثين ألف دينار ، وكان له برسم نفقته الخاصة في كل شهر مـن الجـزية مايبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومـأكوله ، حتـى أجرة خياطه وجامكية طباخه ، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر ، وقيل ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما ، وقيل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار .

قال : وماكان يصل اليه من الهدايا وغيرها يبعثه الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ، ولايتناول منه شيئا ، وأمر باحصاء مساجد دمشق فأحصيت ، فكانت مائة مسجد ، فأوقف الأوقاف على جميعها ، وذكر العماد جملة من فضائلة ولمعة من فواضله ، ومن المساجد جامع قلعة دمشق ، ومسجد عطية بباب الجابية ، ومسجد الرياحين ، ومسجد سوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ ، ومسجد العباسي ، ومسجد بجوار بيعة اليهود ، ومسجد الكشك وأشياء أخرى .

قلت : وذكره جدي في المنتظم بكلمات يسيرة فقال : ولي الشام سنين ، وجاهد الكفار ، وكأن أصلح من كثير من الولاة ، وكان يتدين بطاعة الخليفة ، والطرق آمنة في أيامه، والمحامد كثيرة،وذكر بناء المارستان بدمشق ، وجامع الموصل ، وكان يميل إلى التواضع ، ويحب العلماء وأهل الدين ، وقد كاتبني مرارا ، وذكر أسره لملك الفرنج وأنه أخذ منه ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه أن لايغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام ، وأخذ منه رهائن على ذلك ، هذا ماذكره جدي في المنتظم في ترجمة نور الدين .

قلت : وقد صنف كتابا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك ، وصنف نور الدين ايضا كتابا في الجهاد وهو بدمشق .

قلت : وقد نقل ذكره علماء السير مما وقع لهم من سيرته ومايستدل به على صالح سريرته ، وقد وقع لي مآثر لم يذكروها ومفاخر لم يسطروها ، ولم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولاالاسلام ، ولارأوها ولو في احتلام ، وكان مشغولا بالصيد ويصيد الغزلان ، فمن ذلك أنه كان في عزمه ان يفتح بيت المقدس ، فعمر منبرا وقبله بجامع حلب على اسم القدس فتوفي قبل الفتوح ، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس حمل المنبر اليه وأبقى القبلة بجامع حلب .

ومنهـــا أنه كان له عجـــائز بـــدمشق وحلب فـــكان يخيط الكوافر (١٥) ويعمل السكاكير للأبواب ويبيعها العجائز ولايدري أحد ، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمـانها ، وحـكى شرف الدين يعقوب ولد المعتمد رحمه الله ان في دارهم سكرة من عمـل نور الدين بخوزستان ، وهي باقية الى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها .

ومنها ماحكاه الشيخ أبو عمـر شـيخ المقـادسة رحمــه الله قال : كان نور الدين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصـغيرة التـي على نهـر يزيد المجـاورة للدير ، ونور الدين الذي بنى هــذه المدرسة ، والمصنع والفرن ، قال : فجاء يوما لزيارة جدي ، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة ، فقال له بعض الجمـاعة : يانور الدين لو كشفت السقف وجددته ، فنظر الى الخشبة وسكت ، فلمـا كان من الغد جاء معماره ومعه خشـبة صـحيحة فـزرقها مـوضع المكسورة ومضى ، فعجب الجماعة ، فلما عاد الى الزيارة قال بعض الحاضرين : يانور الدين مــاتعذبنا بــه في كشــف ســقف فقال : لاوالله ، وانما الشيخ رجل صـالح ، وانمـا أزوره لأنتفـع به ، وماأردت أن أزخرف له المسجد وأنقض ماهو صحيح ، وهــذه الخشبة يحصل بها المقصود ، فدعوني مع حســن ظني فيه ، فلعـل الله ينفعني به .

ومنها ماحكاه لي رجل صالح من أهل حران فقيه الشيخ حياة في سنة خمسين وستمائة قـال : لما قتـل أتـــابك زنكي على قلعـــة جعبـر ، وملك نور الدين قلعــة حلب تصــدق وأزال المكوس ، ورد المظالم ، وأنا حديث عهد بعـرس ، وقــد ركبني دين ، فقـالت لي زوجتي : قد ســمعت أوصـــاف نور الدين واحســانه للناس ، فلو قصدته وأنهيت اليه حــالك اقضى دينك ، قــال : فخــرجت مــن حران، وليس معي سوى درهمين ، فتركت عندها درهما وتـزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القائلة فعبرت جسر منبج ، وأبعدت عن اعين الناس ، وخلعت ثيابـي ونزلت وتـوضأت الصــلاة وصــليت ركعتين واذا على جانبي شــخص ملفـــوف في عبـــاءة ، فقـــال لي : يافقير مــن أين أنت ؟ قلت : مـــن حـــران ، قـــال والى

اين ؟ قلت : إلى حلب ، قال فما تصنع فيها ؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغني احسان نور الدين الى الخلق ، فقصدته لعله يقضي ديني ، فقال : فأين أنت من نور الدين ، ومن يوصلك اليه وكم عليك دين ؟ فقلت : خمسون دينارا ، فأخرج يده من العباءة ، وبحث في الرمل وأخرج منه قرطاسا وألقاه الي ، وقال : خذ فاقض به دينك وارجع الى أهلك ، قال فأخذته فعددته واذا به خمسون دينارا والتفت فلم أره ، فبهت ، وبت في مكاني أتفكر هل أرجع الى حران أم أمضي الى حلب ، وترجح عندي المضي الى حلب ، وقلت في نفسي : فهذه أوفي بها ديني ، فمن أين أتقوت ، ثم قمت وقصدت طريق حلب فبت بباب بزاعة ونمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، فصليت وقعدت تحت القلعة ، واذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أهبة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء الى الميدان ، فلما أراد أن يدخل نظر الي فرمقني طويلا ، فأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلي وقال : قم فأخذني وصعدني القلعة ، قال : فندمت على مجيئي إلى حلب وقلت : ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح ولعل نور الدين توهم اني اسماعيلي .

قال : فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة ، وجلس في الديوان ، ومد سماط عظيم ولم يمد يده إليه واذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم ، وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل ، فوضعه بين يديه وفيه عصارة عليها رغيف ، فتأملتها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئا وأكل الناس وأكلت معهم ، وصرف الناس ، وبقيت قاعدا خائفا فأومأ إلي فقمت إلى بين يديه وأنا خائف أرعد فقال : من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال : ومالذي أقدمك ؟ قلت : علي دين وبلغني احسانك فقصدتك لتقضي ديني ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون دينارا قال : أما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين دينارا ، هلا رجعت الى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر ، واذا حصل القوت للفقير فما يطلب شيئا آخر ، مايضيع تعبك ورفع سجادته

وكانت زرقاء واذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة ، قال : فبكيت بكاء كثيرا وقلت : لا آخذ شيئا حتى تخبرني بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لايلزمك ، فقلت : يامولانا أنا غريب وضيف ولي حرمة فبالله عليك ، فقال : احلف أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي ، فحلفت له فكشف القباء واذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير ، فقلت : ماالذي أعطاك هذه المنزلة ، بأي شيء وصلت الى هذا فقال بقوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) (١٦) ولابد من السبب ، لما التقينا بالأفرنج على حارم ، ونصرنا الله عليهم ، وعدت الى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ، وقال : يامحمود أنت من الأبدال وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ثم علمني كلمات ، وقال اذا طلبت أمرا فاذكرها ، فقلت له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عني ، فاذا عزمت على أمر وأردت أذهب الى مكة أو الى المدينة أو الى أي بلد شئت ، لبست العباءة ، وتكلمت بتلك الكلمات ، وأغمض عيني فما افتحها الا وأنا في تلك البقعة .

قلت وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام ، أحد عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله ، قال : ملك الأشرف بن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة ، وأفرده عن الدور ، ودخلت عليه يوما وهو فيه فقال لي : يانجم الدين كيف ترى هذا المسجد قد عمرته وأفردته عن الدور ، وماصلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء ، الى الآن ؟ فقلت له : الله الله يامولانا ، مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس ، فقال : من أين لك هذا ؟ فقلت : حدثني والدي ، وكان من أكابر عدول دمشق ، وكان أبوه يلقب بالسعيد ، أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها أشرفت على الأخذ ، فأقام نور الدين عشرين يوما صائما لايفطر الا على الماء ، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيبا لايتجاسر أحد يخاطبه في ذلك ، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير

يصلي به في هـذا المسـجد ، وكان يقـرأ القـرآن ، وله عنده حرمة ، فاجتمع اليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا : خفنا على السلطان ونحن في هيبة لانقابله ، وأنت تدل عليه ، ونحن نسألك ان يتناول مايحفظ به من قوته ، فقال : نعم اذا صليت به غداة الفجر سألته ، قال : فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يايحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط قال : فقلت يارسول الله ربما لايصدقني وأريد له أمارة، قال : قل له بعلامة يوم حارم ، قال : وانتبه يحيى وهو ذاهب العقل ، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم ، شرع يدعو ، ففاته أن يتحدث معه ، فقال له نور الدين : يايحيى ، قال : لبيك يامولانا ، قال : تحدثني أو أحدثك ؟ قال : فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أحدثك رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة ، وقال لك كذا وكذا ؟ فقال : نعم يامولانا ، مامعنى قوله عليه السلام بعلامة يوم حارم ؟ فقال له نور الدين : لما التقينا خفت على الاسلام لأني رأيت من كثرة الأفرنج ماهالني ، فانفردت عن العسكر فنزلت ومرغت وجهي على التراب ، وقلت : ياسيدي من محمود في الفئتين ، الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم هو فافعل مايليق بكرمك ، قال فنصرنا الله عليهم .

قلت : وحدثني شهاب الدين النابلسي عم جمال الدين البانياسي ، وكان على ديوان جامع دمشق ، أول ماقدمت الشام اجتمعت به في درب العشاريين في قاعة الوزير صفي الدين بن شكر (١٧) وزير العادل ، وكان هناك جماعة ، فاشتغل الوزير بالحديث معهم ، وكان الشهاب الى جانبي ، فتذاكرنا نور الدين ، فقال : كان أبي يخدم نور الدين في أسفاره ومقامه يتصيد في ارض قطنا ويعفور وأنا معه ، فبينما أنا ذات يوم وقد ركب من الخيم ليذهب الى الصيد ، واذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ، وكان معه خيل ومماليك ، وكان تاجرا ، فلما وصل الى نور الدين ، وكان صديقه ، فقال : أين أرمغان ؟ فقال : حاضر

ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه فأحضر قماشا وعدة مماليك ، وفيهم مملوك مستحسن جدا فقبل المملوك ورد الباقي ، وكان له خادم أبيض اسمه سهيل قد رباه فقال له : ياسهيل خذ هذا المملوك اليك وادفع الى التاجر خمسمائة دينار وخلعة وبغلة ، قال أبو الشهاب : فحدثني سهيل قال : لما قال لي كذا قلت في نفسي : إنا لله وانا إليه راجعون ، هذا ما اشترى مملوكا قط يساوي خمسين دينارا يشتري مملوكا بخمسمائة دينار ، قال : ففعلت ماأمرني به فتركني أياما ، وقال : ياسهيل أحضر المملوك كل يوم مع المماليك يقف في الخدمة ، قال : فأحضرته ، فلما كان بعد أيام قال لي : أحضره وقت العشاء الآخرة الى الخيمة ونم أنت واياه على باب البرج ، قال : فقلت في نفسي : هذا الشيخ في زمن شبابه ماارتكب كبيرة ، ولما ارتفع سنه يقع فيه والله لأقتلنه قبل أن يقع في معصية ، قال : فعمدت الى كانة لي فاصلحتها وقلت والله لأقتلنه قبل ان يصل اليه ، وجئت بالمملوك الى الخيمة وأنا قلق ، فسهرت عليه الليل ونور الدين في أعلى البرج ، فلما كان وقت الصبح غلبتني عيناي فنمت ، ثم انقلبت فوقعت يدي على خد الغلام ، واذا به مثل الجمرة قد أخذته الحمى ، فأخذته ومضيت به الى خيمتي فلما أصبحت أحضرت الطبيب ، قال : هذا مرض سماوي ، فلما كان وقت الظهر مات فغسلته وكفنته .

فلما كان اليوم الثاني دعاني نور الدين فدخلت عليه فقال : اقعد فقعدت ، فقال ياسهيل :« ان بعض الظن اثم » قال : فاستحييت ، فقال : قد عرفت حالي وأنت ربيتني ، هل عثرت لي على عثرة ؟ قلت : حاشى الله ، قال : فلم حملت الكانة وحدثتك نفسك بالسوء ماأنا معصوم ، ولما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار ، فقلت انه من تسويل الشيطان فقلت لك : اشتره لعلي يذهب عني ماأنا فيه ، فلم يذهب فقالت لي نفسي : أريد أن أراه كل يوم فأمرتك باحضاره ، فقالت : ماا قنع الا بأن تحضره فلما كان في تلك الليلة ماتركتني أنام ، وبقيت أنا واياها

في حرب الى وقت السحر ، فهممت أن أفتح باب البرج أصعده الى عندي ، فجاءتني اليقظة ، وكشفت رأسي وقلت : الهي محمود عبدك المجاهد في سبيلك ، الذاب عن دينك ودين نبيك صلى الله عليه وسلم ، عمر المدارس والربط ، وأوقف الأوقاف وفعل ما فعل أيختم له بمثل هذا ؟ قال : فسمعت هاتفا يقول : يامحمود قد كفيناك أمره لابأس عليك فعلمت أنه قد حدث ، وأما أنت ياسهيل جزاك الله عن الصحبة خيرا ، والله القتل أهون علي من الوقوع في المعصية ، ثم قدم سهيلا واحسن اليه .

وحكى لي الكمال ابن البانياسي ، ابن أخي الشهاب قال : حكى من يتولى أوقاف نور الدين أنه آجر بعض بساتينه لرجل من دمشق على ستمائة درهم ، فأصاب البساتين جائحة ، فجاء ذلك الرجل يتضرر ، فاسقطوا عنه ثلاثمائة درهم ، فلما كان بعد أيام جاء الرجل ومعه ستمائة درهم ، وهو يبكي ، فقلنا له : مالك ؟ قال : رأيت في المنام وقد خرج علي نور الدين من القبر وبيده جوكان ، وقال : أنت تكسر وقفي وأراد ان يضربني ، فقال : أنا تائب ورمى بالدراهم ، فقلنا له : خذها فقال : لا والله أخاف أن يضربني .

وحكى شيخنا تاج الدين الكندي ، رحمه الله ، قال : ماتبسم نور الدين إلا نادرا ، وحكى لي جماعة من المحدثين انهم قرأوا عليه حديث التبسم ، وكان يرويه فقالوا له : تبسم ، فقال : لاأتبسم من غير عجب .

وحدثني رجل من أهل حران قال : خرج يوما نور الدين من حران قاصدا الى الرها ، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جنب النهر فوقف وسلم عليه ، فرفع اصبعا واحدة ، فحرك الفقير اصبعين ، ومضى نور الدين باكيا ، فقيل له : ماهذا ؟ قال : أشار الفقير إلي ، وقال في أي شيء أنت ، هذا كله لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد ، فأشار الي باصبعيه فأنا آكل كل يوم رغيفين وأنا

مثلك ، وذكر الاستاذ الجزري في تاريخه قال : كان نور الدين قد جمع العساكر من الموصل والجزيرة وديار بكر ليتركها بالشام في مقابلة الفرنج ويتوجه بنفسه الى مصر ، فإنه رأى من صلاح الدين فتورا في غزو الفرنج ، وكان المانع لصلاح الدين خوفه من نور الدين ، فكان يقصر في غزوهم ، وماكان يرى نور الدين الا خلاص القدس منهم واستئصالهم من السواحل ، فمضى الى دمشق وأقام يتجهز فأدركه أجله وهو على هذه النية .

ذكر وفاته

كان ختن ولده اسماعيل يوم الفطر ، وهنيء بالعيد والطهور ، ومدحه الشعراء ، وخرج نور الدين يوم الأحد الى المصلى بالأمراء والأجناد ، والقدر يقول : هذا آخر الأعياد ، فمرض وبدأ به الخوانيق ، وماكان يرى الطب ، قال الرحبي الطبيب : فاستدعانا ، فدخلنا عليه ونحن جماعة من الأطباء وهو في قلعة دمشق في بيت صغير ، كان يتعبد فيه ، وقد استحكم منه المرض واستحكمت الخوانيق على حلقه ، فما كان يسمع له صوت فشرعنا في مداواته ، فلم ينجع فيه الدواء مع حضور أجله ، وكانوا قد أشاروا عليه بالفصد في أول المرض ، فامتنع وكان مهيبا فما روجع ، وكانت وفاته يوم الاربعاء حادي عشر شوال ، ودفن بالقلعة ، ثم نقل الى مدرسته التي انشأها مجاورة الخواصين ، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز ، وقيل دار سليمان بن عبد الملك ، وعاش ثمانيا وخمسين سنة ، وكانت أيامه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وقال عرقلة في مدرسة نور الدين :

ومدرسة سيفنى كل شيء
وتبقى في نمي علم ونسك

تضوع ذكرها شرقا وغربا
بذور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق
بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي
وهذا في المدارس بيت هلكي

ورثاه رحمه الله تعالى جماعة من الشعراء فقال العماد الكاتب فيه :

عجبت من الموت كيف اهتدى
الى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستديـ
ـر في الأرض والأرض وسط الفلك

وقال ايضا :

ياملك ايامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخرة
ملكت دنياك وخلفتها
وصرت تملك بها الآخرة

وحكى أبو اليسر شاكر بن عبد الله قال : تعدى بعض أمراء صلاح الدين على رجل وأخذ ماله ، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيده فجاء الى قبر نور الدين فشق ثيابه وحثا التراب على رأسه ، وجعل يستغيث : يانور الدين بن أتابك ، ويبكي ، وبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله ، فازداد بكاؤه فقال له صلاح الدين : مايبكيك وقد انصفناك ؟ فقال : انما أبكي على ملك انتصفت ببركاته بعد موته ، كيف يأكله التراب ، ويفقده المسلمون .

ذكر ألقاب نور الدين

السلطان الملك العادل ، العالم ، العامل ، الزاهد ، العابد الورع المجاهد المرابط ، نور الدين ، وعدته ، وركن الدين وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعدها ، رضي الامامة وأميرها ، فخر الملة ومجيرها وشمس المعالي وملكها ، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين .

وذكر ألفاظا أخر ، ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي ، وروى أنه كتب رقعة بخطه الى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له به على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ماليس فيه ، فكتب ابن القيسراني (١٨) كلاما ، ودعا له فيه ، ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر ، اللهم وأصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر ، ناصر أمير المؤمنين ، قال : هذا مايدخله كذب ولاتزيد ، فكتب نور الدين بخطه على رأسه ، مقصودي أن لايكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلما يقال أأفرح بما لاأعمل إنه عمل عظيم ، الذي كتبت به جيد ، اكتب به نسخا الى البلاد ، فكتب ، وكان يقول لأصحابه حرام على كل من صحبني ، ولايدفع الي قصة مظلوم لايستطيع الوصول الي .

وذكر ابن الأثير في تاريخه وقال : كان مجلس نور الدين مثل مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لايسمع لأحد فيه كلمة الا مفيدة ، فلما ملك صلاح الدين دمشق حضر الحافظ ابن عساكر مجلسه ، فسمع لغطا كثيرا وكل واحد يتحدث مع الآخر ، وليس

المجلس هيبه ، فبكى الحافظ وقال : يرحم الله نور الدين ، فلقد حضرت مجلسه مرارا فما سمعت أحدا ينطق الا جوابا ، فما هذا اللغط ؟ فبلغ صلاح الدين فقال : اذا حضر الحافظ عندنا فلايتكلم أحد بكلمة .

ذكر ماجرى بعد وفاته

كان ولده الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكانه ، وحضر القاضي كمال الدين الشهرزوري وشمس الدين بن المقدم (١٩) وجمال الدين ، وريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح ابن العجمي (٢٠) أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا أن تكون ايديهم واحدة ، وأن شمس الدين المقدم اليه تقدمه العساكر وتربية الملك الصالح ، ووصل كتاب صلاح الدين من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه : أدام أيام مولانا الملك الصالح ورفع قدره ، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره ، اصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة ، وفيه اقيمت الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح بذكره في الموسم العظيم ، والجمع الذي لالغو فيه ولاتأثيم ، وأشبه يوم المملوك فيه أمسه في الخدمة ووفى بما لامه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الاسلام لعلمه أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد ملك مولانا السلطان الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه ، ويديم النعماء عليه ، وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية .

ولما بلغ الفرنج وفاة نور الدين قصدوا بانياس طمعا في البلاد ، فراسلهم شمس الدين بن المقدم ، وخوفهم بأس صلاح الدين ، فلم يلتفتوا فصالحهم على مال ودفعه اليهم في ذلك الوقت ، وبلغ صلاح الدين فشق عليه ، وكتب الى شرف الدين ابن أبي عصرون يقول : لما بلغني وفاة المرحوم ، خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر والعناد فبلغني حديث الهدية

المؤننة بذل الاسلام ، وشـين شريعـة المصـطفى صـلى الله عليه وسلم ، وسيدنا الشيخ أولى من جرد لسانه في انكار هذا الأمر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق ، واما سيف الدين غازي فقد كان سـار عن الموصل لنجدة عمه نور الدين ، ووصل الى حران فبلغه وفاة عمه فاستولى على الجزيرة بأسرها ماخلا قلعة جعبر ، وكان نور الدين قد أبطل المكوس والخمور من الجزيرة ، فأعادها سيف الدين وأقام مناديا ينادي في الأسواق وبيده باطية خمر وقدح وهو يشرب ، فكثر التـرحم على نور الدين ، وأراد سـيف الدين العبـور الى الشـام والاستيلاء على حلب فقال له الأمراء : ارجـع الى بلدك فقـد ملكت الجزيرة ولم يملكها أبـوك ، وصـلاح الدين بين يديك ، فـكتب الى أمـراء نور الدين يلومهـم حيث ملكوا سـيف الدين الجزيرة ، ويقول : سوف أصل الى خدمة ابن مولاي وأجازي انعام والده علي ، وماعاملني به ، وكان شمس الدين بـن الداية في قلعـة حلب حاكما عليها هو وأخواه مجد الدين أبو بـكر (٢١) وسـابق الدين عثمان ، وكانوا أعز الناس على نور الدين ، وكان نجم الدين أبو بكر رضيع نور الدين ، وكانت شـيزر لشـمس الدين علي بـن الداية ، وقلعة تل باشر لأخيه سابق الدين عثمان وحارم لبدر الدين أحمد أخيهما ، وكان نور الدين قد اسكنهم معه بقلعة حلب ولايصدر الا عن رأيهم ، فلما مات نور الدين لم يشكوا أنهم أحق بتربية ولده من غيرهم ، وكان أوجههم شـمس الدين ، وكان بـالقلعة معـه شاذبخت الخادم ، فلما وصل سيف الدين الى الفرات ارسل شمس الدين الى دمشق فطلب الملك الصـالح ليدفـع بـه سـيف الدين ، فقالوا : ان سيرتموه اليه استولى على تربيته ، فـاعتذروا اليه ، وأقام الملك الصالح بدمشق تمام هذه السنة .

انتهت ترجمة نور الدين رحمة الله عليه وصلى على أشرف خلقـه محمد وآله .

-٦٩٩٧-

السنة السبعون وخمسمائة

فصل

ملك صلاح الدين .....

لما انقضت نوبة الاسطول فسار اليها بعساكره ، وكان ابن المقدم قد كاتبه والقاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وابن الجاولي والأعيان ، وكان بالقلعة ريحان الخادم فعزم على قتاله فجهز اليه عسكر دمشق ، وركب صلاح الدين من الجسور والتقاه أهل دمشق بأسرهم وأحدقوا به ، فنثر عليهم الدراهم والدنانير ، وجاء صلاح الدين فدخل دمشق ، ولم يغلق في وجهه باب ولم يمنعه مانع .

وقال القاضي الفاضل ، فملكنا دمشق عناية لا عنوة ، وكان عسكر دمشق لما رأوا فعل العوام بصلاح الدين انكفؤوا راجعين الى القلعة ، ونزل صلاح الدين بدار العقيقي وكانت دار أبيه ، ونزل أخوه شمس الدين بدار عمه أسد الدين شيركوه ، وتمنعت عليه القلعة أياما ، ثم سلمها إليه ريحان الخادم ، وأحسن صلاح الدين الى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري ، ومشى الى دار كمال الدين (٢٢) فانزعج وخرج الى لقائه ، ودخل صلاح الدين فجلس وباسطه ، وقال : ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات ـ وكان كمال الدين يكرهه فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر احكامه ـ فقال له صلاح الدين مامشيت اليك الا لأزيل مافي خاطرك من الوهم ، وأعرفك ان مافي قلبي لك ماتكره ، فطب نفسا وقر عينا ، فالأمر أمرك والبلد بلدك .

قلت : ومشي صلاح الدين الى دار كمال الدين من أحسن ماسطر في السير ، وهو دليل على تواضعه وعفوه بعد ماقدر ، فيا طوبى لمن جاء بعده ان فكر واعتبر ، وعرف قدر انعام الله عليه فحمد

وشكر ، وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق ، ثم ان صلاح الدين اسكن أخاه طغتكين قلعة دمشق ، وطغتكين هو سيف الاسلام ، ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتابا يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لأؤدي مايجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وماقصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج ، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد ابن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي ، فأشاروا اليه بأن يكاتبه بالغلظة ، فكتب اليه منكرا عليه ، وينسبه الى كفر النعمة ، وجحد احسان والده وأوعده وهدده ، وبعث بالكتاب مع ينال بن حسان صاحب منبج ، فأغلظ لصلاح الدين في الجواب وقال : السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك ، وأشار الى سيفه فغضب صلاح الدين وقال : والله لولا أنك رسول لضربت عنقك ، والله ماجئت الى هاهنا شرها ولاطمعا في الدنيا ، وفي مصر كفاية ، وماجئت الا لأستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك ، فأنتم سبب زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد الى حلب واستناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ، وسار الى حمص فأخذها ، وفتح حماة ، وسار الى حلب فاستغاثوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم ضياعا ومالا فأرسلوا اليه جماعة من فتاكهم ورآهم ناصر الدين خمارتكين صاحب ابي قبيس فعرفهم ، لأنه كان منازعا لهم ، وأنكر عليهم مجيئهم ، وسبق الى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة ، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين ، وكان أمير جذوده سيف الدين طغريل ، فجذب السيف وقتل واحدا منهم ، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم ، ورحل صلاح الدين عن حلب في أول رجب وجاء الى حمص ، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني ، ووصل عسكر الموصل الى حلب ، وانضاف اليهم عسكر حلب ، ونزلوا تل السلطان فساق عليهم وبغتهم وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي ، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا الى حلب ، وغنم أثقالهم وأسر رجالهم ، فجاء فحصر

-٦٩٩٩-

حلب وهي المرة الثانية من حصار حلب والمرة الأولى من كسرة الموصل ، ورجع صلاح الدين فنازل حصن بارين وأخذه من ابن الزعفراني ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ولقبه فخر الدين واسمه مسعود ، وأعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود ، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وجاءته رسل حلب ، واتفق الحال أن يكون بدمشق نائبا عن الملك الصالح ابن نور الدين فأجابهم ، وشفع في بني الداية وقال : لابد منهم فلهم علينا حقوق كثيرة ، فقالوا : نعم ، وفارقوه على ذلك وجاءته الخلع والتشريفات من الخليفة ولأهله ، ولقب بالملك الناصر .

فصل

وفيها وصلت البذوية من العراق بين عشرة آلاف فارس وراجل فنزلوا بزاعة والباب فقتلوا ثلاثة عشر ألفا من أمراء الاسماعيلية ، وسبوا نساءهم وذراريهم ، وعادوا الى العراق ومعهم الغنائم والرؤوس على رماحهم وعلى القصب عشرون ألف أذن ، وبعث صلاح الدين العساكر فأغاروا على البلاد الاسماعيلية وأحرقوا سرمين ومعرة مصرين ومصيات ، وضياع جبل السماق وقتلوا معظم أهله .

وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر ، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له : تأتيك تراجم الأعاجم ومايحلها مثل العماد فقال : مالي عنك مندوحة أنت كاتبي ووزيري وقد رأيت على وجهك البركة فاذا سامت غيرك تحدث الناس ، فقال الفاضل : هذا يحل التراجم وربما أغيب أنا ولاأقدر على ملازمتك ، فاذا غبت قام مقامي وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية ، فاستكتبه .

-٧٠٠٠-

وفيها استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جلال الدين الوزير الأصبهاني فظهر منه من الكفاية والنهضة وحسن التدبير والكتابة مالم يكن في أحد، وكان عمره خمسا وعشرين سنة ....

السنة الحادية والسبعون وخمسمائة

وأما أخبار الشام فان الحلبيين نقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين ، وسببه أن سيف الدين غازي لامهم على ذلك ، وأرسل رسولا ، ووقع له كتابين أحدهما الى صلاح الدين ليأخذ منة عهدا للمواصلة ويكشف ماعنده ، والكتاب الثاني الى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه مقبل بعساكر الشرق ، وكان صلاح الدين بدمشق فبدأ به الرسول وقد ربط الكتابين في منديله لتغفله ، فلما دخل على صلاح الدين غلط فناوله كتاب الحلبيين لسعادة صلاح الدين فتأمله وعلم أن الرسول غلط فلم يقل له كلمة وفهم الرسول ، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك ، وكتب صلاح الدين إلى مصر لأخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية الى الشام سرعة ، وجمع سيف الدين العساكر من الجزيرة ، وكان أخوه عماد الدين زنكي بسنجار عاصيا له مائلا الى صلاح الدين ، فصالحه وجاء سيف الدين فقطع الفرات ونزل عليها وبعث الى أمراء حلب وكمشتكين الخادم وتقرر بينهم أمر ، وسار الى حلب والتقاه الملك الصالح بن نور الدين فاعتنقه سيف الدين وبكى ، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة ، وصعد القلعة جريدة ، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته ، ثم رحل الى تل السلطان ومعه عساكر الشرق وديار بكر والحلبيين فكانوا عشرين ألفا مابين فارس وراجل ، وبلغ صلاح الدين ، وهو بدمشق ولم يكن عنده سوى ستة آلاف ومارأى التخلف عن لقائهم وكان في انتظار العسكر المصري فسار ونزل

حماة وترك اثقاله بها ، وسار الى جباب التركمان ، وجاءه رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم ويأمرونه بالرجوع الى مصر .

قال رسولهم : فوافيته وهو في خيمة صغيرة على بساط لطيف ، وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة الى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه معلق في عمود الخيمة ، فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور ، لأنني فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق والخواطي تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج العسكر بصوت الآذان ، وفي كل خيمة امام فقال لي : الحق بأصحابك وقل لهم يستعدوا للقائي فاني عند طلوع الشمس نازل عليهم (ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) (٢٣) .

قال : ففارقته وأنا على بصيرة من نصره وخذلانهم ، وسقت عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى ، فطلبت سيف الدين فقيل هو نائم قال : والله ماانتظر الشمس الا واعلام صلاح الدين قد اقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام فقاموا مسرعين وكان يوم الخميس عاشر شوال وكان على ميمنة صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته ابن زين الدين صاحب إربل وصاحب بصرى وهو في القلب ، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين ابن زين الدين صاحب إربل ، وعلى ميسرته الحلبيون وسيف الدين في القلب ، وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين ، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها ، فنزل اليهم واتفق وصول العساكر المصرية في تلك الساعة مع تقي الدين عمر ، وعز الدين فرخشاه وناصر الدين محمد ابن أسد الدين فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات ، وكثرة الأطلاب ، والعدد الوافرة والخيل العربية ، فانخذلوا وولوا منهزمين ، وساق صلاح الدين خلفهم وأسر أمراءهم ، ونجا سيف الدين بنفسه ، وعاد صلاح الدين الى خيامهم فوجد سرادق سيف

الدين مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره ، والخمور تروق ومطابخه بقدورها ، وفيه اقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات ، فأرسل صلاح الدين بما كان في السرادق والمغنين والخمور والطيور اليه وقال الرسول قل له : اشتغالك بها أليق من مباشرة الحروب ، ولاتعد الى مثلها ، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على اصحابه وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، ثم سار صلاح الدين فنزل على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان فقاتله ، واتفق وقوع ثلمة في السور وطلب الأمان على نفسه فأمنه ، فخرج سليبا ، وخرج صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة الف دينار وعرض عليه المقام عنده فامتنع وكان بينه وبين صلاح الدين شنآن قديم ، فأنف ان يكون تبعا له ، فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين الرقة ، وسار السلطان افتتح حصن بزاعة ، ونازل أعزاز فأقام عليه ثمانية وعشرين يوما ، وفتحه في ذي الحجة .

فصل

وفيها وثبت الاسماعيلية على صلاح الدين وهو على أعزاز ، جاءه ثلاثة في زي الأجناد ، فضربه واحد بسكين في رأسه وكان في عمته زرد مدفون فلم يجرحه وخدشه السكين في خده وقتل داود بن مسكلان وقتل الثلاثة ، فرحل صلاح الدين فنزل على حلب ، فبعث الملك الصالح اخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح الدين في الليل ، فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض وبكى على نور الدين ، فسألت أن يرد عليهم أعزاز فقال : سمعا وطاعة وأعطاها اليها ، وقدم إليها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا ، واتفق مع الملك الصالح أن له حماة ومافتحه إلى مصر ، وأن يطلق الصالح أولاد الداية .

وســار الى بــلاد الاســماعيلية فنصــب المناجيق على مصيات ، ونهب العساكر بـلادهم ، وقتلوا وسـبوا وكان مقـدم الاسماعيلية سنان بن محمد ، وأرسـل الى شـهاب الدين محمـود صاحب حماة خال صلاح الدين يقول له : نحن جيرانك وقد فعل ابن اختك مافعل ، والمصـلحة رحيله عنا ، فـاشفع اليه ، فمـا امـكنه مخالفتهم ، فأخبر صلاح الدين وقال اخـاف على نفسي فـرحل الى دمشق .

فصل

وفيها قدم شمس الدولة أخو صلاح الدين من اليمن الى دمشق في سلخ ذي الحجة ، وفيها فوض سيف الدين غازي أمر الموصـل الى مجاهد الدين قيماز الخادم ، وكان قبل ذلك نائب سيف الدين .

السنة الثانية والسبعون وخمسمائة

.....وفيها تزوج صـلاح الدين بـالخاتون عصـمة الدين ، بنت الأمير معين الدين أنر زوجـة نور الدين محمـود ، وكانت بقلعـة دمشق ، زوجها منه شرف الدين بن ابي عصرون .

وفيها كانت نوبة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع كل أسود بـالصعيد ، وسـار إلى القـاهرة في مـائة ألف ليعيد الدولة المصرية ، فخرج اليه الملك العـادل سـيف الدين ، وأبـو الهيجـاء الهكاري وعز الدين موسك ، وقتل الكنز بمن معـه ، ويقـال انهـم قتلوا منهم ثمانين الفا ، وعادوا الى القاهرة فقال العماد الكاتـب : قتل الكنز وما انتطح فيها عنزان .

وفيها سار صلاح الدين الى مصر واستناب أخاه شـمس الدولة

على الشام ، وجـاءت الفـرنج الى داريا فـأحرقوها ، ونهبـوا وعادوا .

وفيها أمر صلاح الدين قراقوش بعمارة سور على القاهرة ومصر وضيع فيه أموالا كثيرة ، ولم ينتفع به أحد .

وفيها أبطل صلاح الدين الخفارة التي كانت تـؤخذ مـن الحـاج بجدة مما يحمل في البحر ، وعوض صاحب مكة في كل سـنة ثمـانية آلاف اردب قمح تحمل إليه في البحر ، ويحمل مثلها فتفـرق في أهـل المارستان في القصر ، ووقف عليهما الأوقاف وعلى اهل الحرمين ..

السنة الثالثة والسبعون وخمسمائة

فصل

...وفيها كانت وقعة الرملة في جمادى الآخرة خرج صـلاح الدين من مصر بالعساكر على عسقلان ثم رحل يريد تل الصافية فازدحمت العساكر على الجسر يريدون العبور ، فلم يشعروا الا وقد خـالطهم الفرنج فبعث تقي الدين عمر وقاتل ، ثم قتل من المسلمين خلق كثير وانهـزمت عسـاكر الاســلام وأسر كثير ، منهـم الفقيه عيسى وغيره ، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد ، وسار صـلاح الدين في الليل الى مصر مـن غير دليل ولا مـاء ، ولا زاد ، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع أبلت في الاسلام فأوهنت صلاح الدين ، لأنه كاد أن يتلف جوعا وعطشـا ، ونهبـت خـزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله ، وكان مقدم الفـرنج ارناط وكان مـن أكبر ملوك الفرنج ، وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم وحبسه في قلعة حلب ، فـأطلقه الملك الصـالح فجـاء ومعـه ملوك الفرنج ، وماأتلف عسـكر المسـلمين إلا انهـم تفـرقوا في الغارات ، وكانو زيادة على عشرين الفا ، ووقعت الكسرة ومعظمهم

لم يعلم فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين ولم يكن لهم حصن يأوون اليه فدخلوا الرمل ، وتبعهم الفرنج قتلا وأسرا ، ومن سلم منهم مات جوعا وعطشا وكان يوما عظيما على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين .

ورجع أرناط بجمعه الى حماة فأناخ عليها ، وبها شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، وهو يومئذ مريض ، وعنده سيف الدين المشطوب فقاتلهم العسكر وأهل حماة قتالا عظيما ، ولولا المشطوب لملكوها وقطعوا أشجارها وأحرقوا ضياعها ، ورحلوا إلى حارم وبها كمشتكين الخادم عاصيا على الملك الصالح اسماعيل ، فنصبوا عليها المناجيق وقاتلوها أياما فلجأت الضرورة الى مصالحة الملك الصالح فبعث اليه النجدة فرحلوا الى أنطاكية وقتل كمشتكين وأبو صالح بن العجمي ، وبلغ صلاح الدين نزول الفرنج على حماة ، فجمع العساكر بمصر ، وسار الى الشام فقدم دمشق وبها أخوه شمس الدولة مشغول بلذاته ولهوه ، وكان قد بعث الى الفرنج بمال مصانعة ، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله ، وقال انت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين ، وكان وصول صلاح الدين الى دمشق في شوال ، واستناب بمصر أخاه العادل ابا بكر ...

فصل

وفيها توفي كمشتكين الخادم خادم نور الدين محمود وكان من أكابر خدمه ، ولاه قلعة الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب الى حلب ، وخدم شمس الدين بن الداية ، ثم جاء الى دمشق وأخذ الملك الصالح ، وجاء به الى حلب وقد ذكرناه وأقطعه الملك الصالح حارم وأقام بها ، وعصى عليه ، فلما حصره الفرنج صالحه وقد ذكرناه .

واختلف في قتله على قولين : أحدهما ان كمشتكين حسد ابا صالح بن العجمي وزير الملك الصالح ، فوضع عليه الاسماعيلية فقتلوه ، واستقل كمشتكين بالأمر فقيل للملك الصالح ما قتل وزيرك الا الخادم ليستبد بالأمر ، فحبسه وطالبه بتسليم قلعة حارم ، فكتب الى نوابه ان يسلموها قال العماد الكاتب فلما طال أمره قصر عمره .

والثاني أنهم لما امتنعوا من تسليم قلعة حارم خرج اليها الملك الصالح من حلب ومعه الخادم فقال: مرهم بتسليمها فلم يقبلوا ، فعلقه منكوسا ودخن تحت أنفه ، فمات ، وعاد الملك الصالح الى حارم فأخذها وسلمها بعد ذلك الى مملوك أبيه جرديك ...

فصل

وفيها توفي شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، كانت له حماة فنزلت عليه الفرنج وهو مريض فتوفي ، وأعطاها صلاح الدين لناصر الدين منكورس بن خمارتيكن صاحب صهيون ، وقيل انما اعطى صلاح الدين حماة لتقي الدين عمر ، وقيل في السنة الآتية ، وكان ناصر الدين نائبا عن تقي الدين ......

السنة الرابعة والسبعون وخمسمائة

فصل

وفيها عصى شمس الدين ابن المقدم ببعلبك وكان صلاح الدين قد أعطاه اياها ، وقدم صلاح الدين دمشق فأرسل الى ابن المقدم

يطلبه ، فاعتذر خوفامن شمس الدولةلانه طلب منه بعلبك فامتنع ، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك وأقام تسعة أشهر يحاصرها فنفد ماعنده ، فأرسل الى السلطان يطلب العوض فأعطاه بارين وكفر طاب وخرج شمس الدين بن المقدم اليها وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة. وفيها مات الهذفري ملك الفرنج ، بلغ صلاح الدين انه يريد ان يغير على دمشق فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعسكر دمشق الى عين الجر وقال: تقيم هناك الى مرج عيون ، فان جاؤوك ، فأرسل كتب الطيور الي ولا تواقفهم حتى آتيك ، فسار فنزل مرج عيون فلم يشعر الا بطلائع الهذفري قد خالطوه ، فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال ، فجرح الهذفري واثقلته جراحه فأوثقوه وأخذوه ، وانهزموا وغنمهم فرخ شاه ومات هذفري بعد أيام ، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب وبعث السرايا والغارات الى بلد الفرنج ...

السنة الخامسة والسبعون وخمسمائة

وفيها كان السلطان نازلا على تل القاضي ببانياس ، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ، ويستوعبوا ما بقي في ايديهم من الغلات في يوم واحد ، ثم رجعوا فرحلوا صوب البقاع ، فنهضوا ليلة الأحد ثاني عشر محرم ، فلما اصبح جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجوا فالتقاهم ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء

فأسر مقدم الداوية والاسبتار ، وصاحب طبرية وابن بيزران صاحب الرملة ، وابن القومصية ، وقسطلان يافا ، وصاحب جينين ، وصاحب جبيل ، وكانت وقعة عظيمة ، فخلص بعضهم ومات بعضهم في الأسر وخلص الفقيه عيسى ، وكان قد أخذ من الرملة وقد ذكرناه ، وحسب من القطيعة بستين الف دينار ، وقيل

إن وقعة مرج عيون كانت في المحـرم ، وهـذه وقعـة مخـاضة بيت الأحزان .

وفيها سار السلطان في ربيع الأول الى حصن يعقـوب ويسـمى قصر يعقـوب وبيت الأحـزان عند المخـاضة ، فنصـب عليه المناجيق ، وخلع على الذقابين ، وباشر القتـال بنفسه فعلقـوا الذقوب ، وأحرقوا الأخشـاب فسـقطت الأبـراج ، فصـاحوا الأمان ، وعاجلهم المسـلمون ففتحـوه عنوة ، وكان عرض سـوره عشرة أذرع وطوله أربعون ذراعا فقتـل المسـلمون منهـم الفـا وخمسمائة ، وخلصوا من اسارى المسلمين مائة اسير ، وكان بيت الاحزان الذي يزعمون أن يعقوب كان ينفرد فيه ويبكي على يوسـف كنيسة ، فجعله السلطان مسجدا وذكر الشعراء هذا الحصن فقـال احمد بن نفانة الدمشقي ويلقب بالنشو :
فقال :

هلاك الفرنج اتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قددنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

وكتب الفاضل الى بغداد كتاب كسر الفرنج ، فأمر الخليفـة بضرب البوقات والدبادب على أبواب الأمراء ما عدا طبـول الخليفـة ، ولم يشهد تقي الدين هذه الغـزاة ، وسـببه ان قليج ارسـلان نزل على حصن رعبان في عشرين ألفا وادعى أنه له ، فسار تقي الدين إليه في ألف فارس وهزمه ، فكان تقي الدين يدل بهذه الوقعـة حيث هـزم الوفا بألف ، انتهى .

وفيها ختن السلطان ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين ، ويعرف بابن المجاور معلما وتسلم فرخشاه بعلبك ومـات المستضيء ...

- ٧٠٠٩ -

السنة السادسة والسبعون وخمسمائة

فصل

وفيها توفي سيف الدين صاحب الموصل

وفيها سار صلاح الدين الى بلاد الروم ، وسببه ان نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا قد انتمى اليه ، وكان عز الدولة قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان قد زوجه ابنته فأساء العشرة معها ، فكتبت الى ابيها تشكوه فبعث اليه ، إما ان تحسن عشرتها ، وإما ان تفارقها ، فلم يلتفت اليه ، وكاتب صلاح الدين فسار في نجدته فالتقاه ابن أرتق على نهر يقال له الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، ثم عبرا منه الى النهر الأسود ، وجاءت رسل قليج وتقرر الصلح وعاد السلطان الى بلاد ابن ليون فأخربها ونهبها ، فصالحه على مال واسارى ، فرجع الى دمشق ....

وفيها توفي الملك المعظم شمس الدولة أخو صلاح الدين لأبيه ، واسمه توران شاه ، ولقبه فخر الدين وكان أكبر من صلاح الدين ، وقد ذكرنا اخباره ودخوله الى اليمن وأخذه لبعلبك ، وكان جوادا سمحا حسن الأخلاق ، الا انه كان في نفسه من الملك ويرى انه احق به من صلاح الدين ، ، وكانت تبدو منه كلمات في حال سكره ، وبلغ صلاح الدين فأبعده الى اليمن فسفك الدماء وقتل الأرامل وأخذ الأموال ، وأعطاه بعلبك ، فبلغه عنه اشياء فخاف منه فأبعده عنه إلى الاسكندرية ، فأقام بها منعكفا على لهوه ولعبه ، ولم يحضر حروب أخيه صلاح الدين ، فتوفي بالاسكندرية في هذه السنة ، فأرسلت أخته ست الشام وكانت شقيقته فحملته في تابوت الى دمشق فدفنته في تربتها التي انشأتها على الشرف الشمالي عند العوينة ، وبنت عليه قبة وبهذه التربة ولدها حسام

الدين بن لاجين ، وزوجها ناصر الدين محمد بن اسد الدين شيركوه ، ودفنت هي بعد الكل ، (٢٤) وسنذكرها إن شاء الله تعالى .

فصل

وفيها توفي سيف الدين غازي بن مودود بن غازي بن آقسنقر صاحب الموصل ، ابن اخي نور الدين ، وكان من أحسن الناس صورة عاقلا وقورا غيورا للدماء مع شح كان فيه ، قال المجد ابن الأثير : كان قد علق عليه سل ، وطالت علته ، وأجدبت البلاد قبل موته ، وخرج الناس يستسقون وخرج سيف الدين معهم ، فاستغاث اليه الناس وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟ فقال: قد ابطلتها ، ورجع البلد وفيهم رجل صالح يقال له ابو الفرج الدقاق ، فأهرق الخمور لاغير ، ونهب العوام دكاكين الخمارين ، فاستدعي الدقاق الى القلعة وقيل له: أنت جرأت العوام على السلطان ، وضرب على رأسه ، فانكشف رأسه واطلق ، ونزل مكشوف الرأس ، فقيل له غط رأسك ، فقال : لا والله لا أغطيه حتى ينتقم ممن ظلمني فمات الزردار والذي ضربه بعد قليل ومرض سيف الدين وتوفي .

ذكر حكايته مع الشيخ ابي احمد بن الحداد الزاهد :

كان أبو احمد قد انقطع في قرية من بلاد الموصل يقال لها الفضيلية ، ومنها أصله ، وهي على فراسخ من الموصل

حدثني ابو بكر القديمي واسماعيل الشعار ، وكانا قد صحبا الشيخ أبا احمدقالا : كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد ، فقال

له : يا سيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات وتمكس المسلمين ، فان كنت تدع هذا والا فلا تجيء الى عندي ، فقال: ياسيدي أنا تائب الى الله من جميع ما قلت ، وترك الجميع وعاد الى ماكان عليه .

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق ، قال: فبينما نحن عنده ذات يوم واذا بسيف الدين قد أقبل وصعد إلى الدرج ، فقال لي أبو أحمد: أغلق الباب في وجهه ، وقل له ما لك عندي شغل ، وادفعه الى أسفل الدرج ، قال ابو بكر القديمي : فخرجت فاستحييت منه ، فقال لي سيف الدين: يا شيخ افعل بي ما أمرك الشيخ وأدار ظهره إلي فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج ، فقعد يبكي وقد صاح الجند بأسرهم ، فأشار اليهم ان اسكتوا، ثم قال لي: يا شيخ أبا بكر اصعد إلى الشيخ وقل له :مالي توبة؟ قال: فصعدت اليه واخبرته فقال: قل له : يجوز قد أذنت له ، قال : فخرجت وقلت: له بسم الله ، فدخل على الشيخ فبكي وقبل يده وتاب الى الله تعالى ، وعاد الى الموصل ، فأقام مدة يسيرة ، ومات يوم الأحد ثالث صفر ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

وأراد ان يعهد الى ولده سنجر شاه ، فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك ، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا وسنجر شاه صبي لا رأي له وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة ، اعهد اليه واجعله وصيا على أولادك ففعل ، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدته ، فلما ولي تغيرت أخلاقه فصار رفيقا بالرعية قريبا منهم محسنا اليهم .

ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم ، فأرسل اليه مجاهد الدين قيماز الفقيه ابا شجاع بن الدهان البغدادي ، يطلب منه ان يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف

الدين ، ويبقي عليه الجزيرة وما بيده من حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وقاطع الفرات ، فقال صلاح الدين :أما ما خلف عليه من بلاد الموصل فهو باق على حاله ، واما ما ذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط ان يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر ، أما الآن فالخليفة قد فوض امرها الي ، لا أفعل فيها الا ما أراه من المصلحة .....

السنة السابعة والسبعون وخمسمائة

وفيه عاد صلاح الدين من دمشق الى القاهرة واستناب بدمشق ابن اخيه عز الدين فرخشاه بعساكر الشام فبلغ قريبا من تيماء ، وبلغ البرنس فرجع الى الكرك ، وأمر صلاح الدين أخاه سيف الدين بالمسير الى اليمن فأقام يتجهز .

وفيها توجه صلاح الدين الى الاسكندرية فخيم بظاهرها عند عمود السواري ، وقال: نغتنم تجاه الشيخ ابي طاهر السلفي ونسمع من ابن عوف موطا مالك بزاويته على الطرشوشي ، وتم له ولأولاده السماع ، وكان واليها فخر الدين قراجا

وكان في هذه السنة بالمزة خطيب يقال له العالم ، زور على صلاح الدين خطأ بزيادة في جامكيته ، ووقف عليه فرخشاه فعلم بباطن الحال ، فهم بالايقاع به فهرب الى القاهرة واستجار بالسلطان فأجاره ، وقال: ما أخيب قصدك ، وكتب له توقيعا بما طلب
وحج بالناس من العراق طاشتكين .

فصل

وفيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، وكان مرضه بالقولنج بدأ به في رجب .

وذكر ابن الاثير في تاريخه: أنه لما اشتد به المرض ، وضعف وصف له الأطباء قليل خمر ، لا أفعل حتى أسأل الفقهاء ، فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز ، وسأل العلاء الكاشاني فأفتاه أيضا ، ولم يفعل وقال:إن كان الله قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا ، قال: فوالله لا لاقيت الله وقد لقيت ما حرم علي ، فمات ولم يشربه .

قلت: أخطأ الكاشاني فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة وجميع اصحابنا للتداوي ، وكذا عند مالك وأحمد ، وعند الشافعي يجوز للضرورة ،، عندنا ان الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها .

ولما اشتد مرضه أحضر الأمراء واستحلفهم لعز الدين صاحب الموصل ، فقيل له: لو أوصيت الى ابن عمك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو تربية أبيك ، وزوج اختك ، وشجاع كريم ، وعز الدين له من الفرات الى همذان؟ فقال: إن هذا لم يخف عني ، ولكن قد علمتم استيلاء صلاح الدين على الشام ومصر واليمن ، وعماد الدين لايثبت له ، وعز الدين له العساكر والأموال فهو اقدر على حفظ حلب ، ومتى ذهبت حلب ذهب الجميع ، فاستحسنوا قوله .

وتوفي في الخامس والعشرين من رجب ، ولم يبلغ عشرين سنة وكانت أيامه ثماني سنين وشهرا ، وأقام الحلبيون النوح عليه والمأتم ، وفرشوا الرماد في الأسواق وأقاموا مدة على ذلك ، وجرى عليهم ما لم يجر على أحد ، لأنه كان صالحا كما سمي ، عادلا منصفا حسن السيرة على اسلوب أبيه ، وتزوج عز الدين ام الملك الصالح في شوال ، وأقام في قلعة حلب الى سادس عشر شوال ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لملازمته الشام ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ودلوا عليه لأنهم اختاروه ، وضاق عليه ، فسار الى الرقة ، واتفق مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، وتقايضا ، ورحل عماد الدين الى حلب في سادس عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكتب صلاح

الدين الى الخليفة يستأذنه في الاستيلاء على حلب ، ويقول بأن جماعة الأتابكية يسعون في تفريق الكلمة ، ويستنهضون الفرنج لقتال المسلمين ، ويستعيذون علينا بالاسماعيلية ، وأقام بمصر منتظرا الجواب .....

السنة الثامنة والسبعون وخمسمائة

وفي المحرم سار سيف الدين طغتكين الى اليمن ، فنزل بزبيد وبها حطان (٢٥) ، فأمره أن يسير الى الشام ، فجمع أمواله وذخائره واسبابه فنزل بظاهر زبيد ، فقبض عليه سيف الاسلام وأخذ جميع ما كان معه ، وكان قيمته ألف ألف دينار ، ثم قتله بعد ذلك ، وكان عثمان الزنجبيلي بعدن ، فلما بلغه ذلك سار الى الشام بعد ان اثر في اليمن آثارا كثيرة ، وأوقف أوقافا ، وله مدرسة بمكة ، ورباط بالمدينة وغيرها .

وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر ، فنزل البركة قاصدا الى الشام ، وخرج أرباب الدولة لوداعه ، وأنشده الشعراء ابياتا في الوداع فسمع قائلا يقول في ظاهر الخيم:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

وطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان ، وتطير الحاضرون فكان كما قال اشتغل السلطان بالشرق والفرنج ، ولم يعد بعدها الى مصر ، وسار السلطان على ايلة والحسي ووادي موسى ، وكان فرخشاه بدمشق فبلغه ان الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان ، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية فقصدوه فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم الوفا واسر ، وساق عشرين الفا من الأنعام وغيرها ، وفتح حصنا مشرفا على السواد على شقيف

يقال له حصن جلدك ، وقتل من فيه ، وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع ، وساق الى بصرى ، فالتقى السلطان عندها فسر به ودخلا دمشق في صفر .

وفيها كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج ، خرج البرنس صاحب الكرك الى ايلة فأقام بها ، ومعه الأخشاب على الجمال والصناع بعمل المراكب ، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر ، فلما تم عملها ركب فيها ووصل الى عيذاب في بحر القلزم ، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر ، وسار يريد جدة ، وبلغ الخبر الى سيف الدين العادل أخي السلطان ، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ ، فركب في بحر القلزم وسار خلفهم ، وساعده الريح فأدركهم ، وقد اشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهرب بعضهم في البر ، وأسر الباقين ، فأخذ مائة وسبعين اسيرا ، وخلص أموال التجار ، وردها إليهم ، واستولى على مراكبهم ، وعاد الى القاهرة وكتبوا الى السلطان بذلك ، فقال: تضرب رقاب الأسارى بعضهم بالقاهرة وبعضهم بمكة والمدينة ففعلوا ، وكتب القاضي الفاضل الى الخليفة كتابا في هذا المعنى : وكان الفرنج قد ركبوا من الامر نكرا ، وافتضوا من البحر بكرا ، وعمروا مراكب شحنوها بالمقاتلة والازواد ، وضربوا بها سواحل تهامة وأوغلوا في البلاد ، وما ظن المسلمون إلا ان الساعة قد نشر مطوى شروطها ، وطوى منشور بساطها ، فثار غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام انبيائه المعظم ، وضريح نبيه المفخم ، صلى الله عليه وسلم، وزخر من فضل الله أنه كان البيت إذ قصدوه أصحاب الفيل ، ووكلوا الامور الى الله ، فكان حسبهم ونعم الوكيل ، فلم يبق من العدو خبرا ولا أثر (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) (٣٦) ....

السنة التاسعة والسبعون وخمسمائة

وفي يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل اليها وجلس في دار الامارة ، ثم سلمها وأعمالها الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان ، وكان وعده بها لما جاء الى خدمته ، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالها وحريمها الى الموصل ، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما ، فحملا ما خف حمله ، وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والأسلحة .

وفي المحرم عاد السلطان فقطع الفرات قاصدا الى حلب ، واجتاز في طريقه بعين تاب ، وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين ، ونزل اليه ، وقام بالضيافة ، فأبقاها عليه ، وجاءه ابن الساعاتي فأنشده :

وانهض الى حلب في كل سابقة
سيوفها تغني عن الفلك
ما فتحها غير إقليد الممالك
والداعي الى جميع الخلق والملك

فنازل حلب في سادس عشر المحرم ونزل بالميدان الاخضر وباشر القتال بكرة وعشيا وزحف يوما أخوه تاج الملك بوري فجاءه سهم في عينه ، فوقع مريضا ، ومات في الثالث والعشرين من صفر ، ثم علم عماد الدين زنكي أنه لا طاقة له به ، وضج من اقتراح الامراء عليه ، فقال لحسام الدين طمان : اخرج الى صلاح الدين وسله في الصلح فخرج سرا ولم يعلم به أحد ، فقرر الصلح وان يرد اليه سنجار وأعمالها ، والخابور ، ونصيبين ، وأنه يسلم اليه قلعة حلب ، وعلم الناس بالصبح ، فخرجوا الى صلاح الدين فخلع

عليهم ، وجعل اهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابونا ، وصاحوا على عماد الدين: يا فاعل ، يا صانع ، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث ما يصلح لك غير هذا ، وعملوا فيها الاشعار وتغنوا بها في الاسواق ، ومنها :

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم العشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان ، فحزن عليه حزنا عظيما وجلس للعزاء ، ونزل اليه عماد الدين فالتقاه السلطان وأكرمه وخدمه ، وقدم له الخيول والتحف الجليلة ، وعاد عماد الدين الى القلعة وأقام السلطان كئيبا حزينا وكان يبكي ويقول : ما وفت حلب بشعرة من أخي ، وقيل انه قال ما غلت حلب ببوري ، والأول اليق بالسلطان لانه ما كان في البيت مثل بوري ، وسار عماد الدين من يومه الى سنجار ، وأقام السلطان في المخيم غير مكترث بحلب لما جرى عليه من وفاة اخيه، ثم صعد القلعة سلخ صفر ، فأنشده القاضي ابن زكي الدين محمد بن علي القرشي ، قاضي القضاة بدمشق ابياتا منها .

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر .
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام ، فكان كما قال ، ولكن بعد اربع سنين ، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان ، وولى السلطان القضاء بحلب محي الدين بن الزكي والقلعة سيف الدين يازكيج ، والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وأعطى تل باشر وتل خالد لبدر الدين دلدرم ، ابن بهاء الدين ياروق ، وأعطى قلعة أعزاز لعلم الدين سليمان بن جندر ، ثم رحل عن حلب يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر ، ودخل

دمشق ، وكان دخوله دمشق ثالث جمادى الأولى فأقام بها أياما ثم خرج الى الفوار ، فأقام بها على رأس الماء .

وفيها بعث الخليفة عسكرا الى دقوقا فأخذها

وفيها كانت غزاة بيسان ، ورحل السلطان من الفوار في جمادى الآخرة ، فنزل بيسان وقد هـــرب أهلهـــا فقـــدم بين يديه جـــرديك النوري ، وجاولي الأسدي وجماعة مـــن النورية فجـــاؤوا الى عين الجالوت والفرنج الى الفولة ، فصادفوا على عين جالوت طائفة من الفرنج فقتلوا منهم مقتلة عظيمـــة وأسروا مـــائة فـــارس ، ورحـــل السلطان الى الفولة يطلب المصاف فتحصن الفرنج في الداخل ، ولم يخرج منهم أحد ، فلمـــا كان في الليل ســـاروا طـــالبين عكا ورحـــل السلطان خلفهم يقاتل الساقة فقتل منهم جمـــاعة فـــدخلوا عكا وعاد السلطان على صفورية فنهب وأحرق وعاد الى دمشق .

ثم خرج في رجب الى الكرك ، وكان أخوه سيف الدين العادل قـــد كتب اليه يطلب منه ان يعـــوضه بحلب عوض مصر ، فـــكتب اليه ان يوافيه على الكرك ، فالتقيا على الكرك ، ونصب الســـلطان عليهـــا المناجيق ، وحشد الفرنج ونزلوا الوالة ، قريبا من الكرك ، فـــرأى السلطان أن حصار الكرك يطول فعاد الى دمشق ومعـــه اخـــوه الملك العادل ، فأعطاه حلب ، فسار اليها وبها ولده السلطان الملك الظاهر غازي ، وسيف الدين يازكيج ، فسلمها اليه ، وقدم الظاهر دمشق مع يازكيج في شوال ، وأقـــام الظـــاهر في خـــدمة ابيه راضـــيا في الظاهر ، وفي الباطن فيه ما فيه .

وفيها وصل عبد الرحيم شيخ الشيوخ من بغداد رسولا الى صلاح الدين ومعه محي الدين أبو حامد محمد ابن قـــاضي القضـــاة كمـــال الدين بن الشهزروري رسولا من المواصلة ، فأغلظ محي الدين على السلطان وقال: تحلف لعز الدين ان هذه الجزيرة وما يقطع الفـــرات مـــن ناحية الشرق يكونوا مضـــــافين الى عز الدين ولا تعلق لك بهـــم ، والا جـــاء البهلوان وملوك العجـــم اليك ، واتفقـــوا

عليك ، فغضب السلطان وقال: أنا قاصد اليكم ، فإذا فرغت منكم سرت الى البهلوان ....

وفيها توفي تاج الملوك بوري - كما ذكرنا - ابن ايوب أخو صلاح الدين ، وكنيته أبو سعيد ، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة وكان الله عز وجل قد جمع فيه مكارم الأخلاق ، ولطف طباع وكرما وشجاعة ، وفضلا وفصاحة ، وكان أديبا وشاعرا مترسلا ، وله ديوان شعر ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه وأنشد مقطعات من شعره .....

السنة الثمانون وخمسمائة

وفيها كتب زين الدين بن نجية الواعظ من مصر الى صلاح الدين يشوقه اليها ، وكان السلطان بدمشق : أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد والنصر والتسديد ، أو ما يشتاق مولانا الى مصر ونيلها وخيرها وسلسبيلها ، ودار ملكه ، ودارة فلكه وبحرها وخليجها ونشرها واريجها ، ومقسم مقاسمها ، وأنيس أبياتها ، وقصور معزها ، ومبارك عزها ، وجيزتها وجزيرتها ، وبركها وبركتها ، وتعلق القلوب بقلوبها ، واستئلاف النفوس لاسلوبها ، وملتقى البحرين ، ومرتقى الهرمين ، وروضة جنانها ، وجنة رضوانها ،ومشاهدها ومجامعها ، ومساجدها وجوامعها ، ونواضر بساتينها ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات فضائلها ؟!.

وذكر ابن نجية كلاما طويلا من هذا الجنس فكتب اليه السلطان:
ورد كتاب الفقيه زين الدين أدام الله توفيقه ، لا ريب ان الشام أفضل وأن أجر ساكنه أجزل ، وإن القلوب اليه أميل ، وإن زلاله البارد أحلى وأنهل ، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل ، وإن

الجبال فيه أجمل ، والجمال به أكمل ، وإن القلب به أروح ، والروح به أقبل ، ودمشق فعاشقها بها مستهام ، وما على محبها ملام ، وما في ربوتها ريبة ، ولكل ذور فيها سيبه ، وساجعاتها على المنابر الورق ، وهزاراتها وبلابلها تعجم وتعرب ، وكم فيها من جواري ساقيات وسواقي جاريات ، وثمار بلا أثمان ، وروح وريحان وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وكون الله تعالى أقسم (والتين والزيتون) يدل على فضله المكنون ، وقال صلى الله عليه وسلم: الشام صفوة الله من بلاده ، يسوق اليها خير أمة من خلقه ، وعامة الصحابة اختاروا المقام بالشام ، وفتح دمشق بكر الاسلام ، وما يذكر ان الله تعالى ذكر مصر ، ولكن على لسان فرعون بقوله: (أليس لي ملك مصر) (٢٧) لكن هذا أخرج مخرج العتب له والذم ، ألا ترى أن يوسف عليه السلام نقل منها الى الشام ، ثم المقام بدمشق أقرب الى الرباط وأوجب للنشاط ، وأين قطوم المقطم من النيربين ، وأين دار منيف من ذروة الشرف المبين ، وأين لبانة لبنان من الهرمين ، وهل هما الا مثل السلعتين ، وهل للنيل من طول نيله وطول نيله برد بردا في نقع العليل ، وما لذاك الكثير من طلاوة هذا القليل ، وإن فاخرتنا بالجامع وفيه البشر ظهر بذلك قصر القصر ، ولو كان لهم بانياس لما احتاجوا الى قياس المقياس ، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الايمان ، ونحن لا ننكر ان اقليم مصر إقليم عظيم الشأن ، ولن نقول كما قال المجلس الفاضلي : ان دمشق تصلح ان تكون بستانا ولا نشك ان أحسن ما في البلاد البستان ، ولعل زين الدين يرجع الى الحق ويوافق على ما هو الاحق .

قلت : عاب السلطان على ابن نجية كون اصله ومنشأه بدمشق ، وفضل عليها مصر ، وليس من طارفه ولا تلاده ، وكان أولى أن يتشوق الى السلطان من غير وصف لما فيه مضاهاة لوطنه وبلاده .

فصل

وفيها هجم السلطان نابلس كانت عساكر الشرق وصلت اليه لنجدته فيها : نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وآمد وديار بكر ، ومظفر الدين بن زين الدين ، والعادل من حلب ، وتقي الدين عمر ، فخرج من دمشق ونزل الكرك ونصب عليها المناجيق ، وكان أعظم مهماته فتحه ، لكونه على طريق مصر ، وبلغ الفرنج فجمعوا الفارس والراجل وقصدوه ، ونزلوا الواله قريبا من الكرك ، فاغتنم السلطان خلو الساحل منهم ، وسار على البلقاء ونزل الغور وهجم نابلس فقتل وسبى ونزل على سبسطيه وبها الرهبان والاقساء وعندهم الودائع فطلبوا منه الأمان ، وأن يطلقوا ما عندهم من الأسارى ، فأمنهم ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق ، وعاد الى دمشق ، وكان عنده رسل الحلبية شيخ الشيوخ ، وشيخ الشيوخ بالرحبة ، وحج بالناس من العراق طاشتكين .

فصل

وفيها توفي ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، ولقبه قطب الدين صاحب ماردين وكانت وفاته في جمادى الآخرة ، وخلف ولدين صغيرين ، وكان جوادا شجاعا عادلا منصفا عاقلا ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السنة الحادية والثمانون وخمسمائة

وفيها قطع السلطان الفرات ، ونزل على حران سادس عشرين

صفر ، وسار السلطان ونزل على الموصل ، وضـايقها وخـرج اليه اهلها العوام والخواص فقاتلوه وظهـروا عليه ، وجـاءه الملوك زين الدين صاحب إربل ، وسنجرشاه صاحب الجزيرة ، وعسـكر ديار بكر ، وكان القتـال يعمـل كل يوم وتخـرج المواصـلة اليه عراة يقاتلون ، فبينما هو على ذلك جاءه الخبر بوفاة شاه أرمن صـاحب اخلاط ، وجاءت كتب مقدميها يطلبونه ، فشاور الأمـراء فـأشاروا إليه بقصد أخلاط ، لما رأوا أنهم لاطمع لهم في الموصل ، وقالوا: ما تفوت الموصل فسار الى اخلاط وفي مقدمته ناصر الدين محمد بـن أسد الدين شيركوه ، وتقي الدين عمر فوصلوا ميافـارقين ، وبهـا الاسد يرنقش ، مملوك صاحب آمد فـامتنع عليهـم وقـال:أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين وبعـد هـذا فـالأمر للخـاتون والدتهم ، فأرسل اليهـا صـلاح الدين خـادما ووعدهـا ان يتزوجها ، ويزوج ابنه احـدى بناتهـا ، فـأجابت وسـلمت اليه ميافارقين وأعطاها الهتاخ ، وأعطـى يرنقش جبـل جـور ، وكان الحاكم على اخلاط الوزير مجد الدين بن الموفق ، وهو الذي كاتـب السلطان فبعث اليه الفقيه عيسى ليكشف الحال ، فغالطه وقال : في القلعة سيف الدين بـكتمر ، وبهـا ابنة البهلوان زوجـة شـاه أرمن ، وربما جاءالبهلوان بعساكر أذربيجان وهمذان والشرق فنزل قريبا من اخلاط وارسل الى السـلطان يقـول: هـذه البـلاد لابنتي ، وهـي في القلعـة ، والمصـلحة تبقـى المودة بينناودوام الصداقة ، فرجع السلطان الى الجزيرة ، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل اليه سيف الدين بكتمرا موالا وهدايا ، وولى السـلطان على ميافارقين وديار بكر مملوكه سنقر الخلاطي .

وعاد الى الموصـل ، وهـذه المرة الثـالثة ، وهـي الأخيرة فنزل الاسماعيليات ، وقيل نزل على كفر رمان بدجلة ، وعزم ان يشـتي بذلك المكان ، واستعد المواصلة للحصار ، فأشار أمـراء عز الدين عليه أن يخرج اليه النساء بكتاب يتشفعن اليه فخرجوا معهـن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان ، وقـرر عمـاد الدين الصلح وخطب السلطان بالموصل ، واعطى شـهرزور والبـوازيج ،

ووقف عليها قرية تعرف ببـــاقيلا على ورثـــة شـــيخ الشـــيوخ ببغداد ، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة .

قال العماد وكان السلطان قـد لازم قـراءة القـــرآن في شـــهر رمضان ، واشتد الحر ، وقيل إنه قـد رد النســاء اللائي خـرجن يشفعن ، فندم على ردهن فمرض مرضا شديدا فتناثر شعر رأســه ولحيته ، وقيل إنه سقي وضــعف ضــعفا خيف عليه منه وأرجـف بموته ، وأقام على نصيبين وقد ايسنا منه ، ثـم تمــاثل فحمـل في محفة الى حــران ، ونزل بـظاهرها وبنى بهــا دارا ســـماها دار العافية .

فصل

وكانت المنجمون قد حكموا بأن يهـب رمـل هــواء مــزعج يهلك الناس ، فحفروا سراديبا واختفوا ، وظهر كذب المنجمين .

فصل

وفيها توفيت عصمة خــاتون بنت معين الدين زوجــة الســلطان صـــلاح الدين ، وكانت قبله زوجـــة الســـــلطان نور الدين محمود ، وكانت من أعف النســاء واكرمهـــن وأحــزمهن ، ولهـــا صدقات وبر عظيم ، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب أبـي حنيفـة في حجر الذهب قريبة من حمام أركش وتعرف بمدرسة خاتون ، وبنت للصوفية رباطا على الشرف القبلي خارج باب النصر على بــانياس وبنت تربة بقاسيون على نهر يزيد ودفنت بها ، ووقفـت على هــذه الأماكن أوقافا كثيرة ، وكانت وفــاتها في رجـب ، وبلغ الســلطان وفاتها وهو مريض بحران ، فتزايد مرضه ، وحزن عليها وتــأسف وكان يصدر عن رأيها ، ومات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بـن

معين الدين انر في هذه السنة ،وكان من أكابر الامراء زوجه السلطان أخته ربيعة خاتون لما تزوج اخته الخاتون ، فلما توفى مسعود بن أنر تزوج ربيعة الخاتون مظفر الدين بن زين الدين .

وفيها توفي محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولقبه ناصر الدين ابن عم صلاح الدين كان السلطان يخافه لأنه يدعي أنه أحق بالملك منه ، وكان يبلغ السلطان عنه هذا ، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء الى حمص ، وكان زوج أخت السلطان ست الشام ، وكانت وفاته بحمص يوم عرفة بقي يتناثر لحمه ، وقيل إنه سم ، وقيل مات فجأة فنقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالعوينة شمالي دمشق ، فدفنته بها عند أخيها شمس الدولة ، ولما بلغ السلطان وفاته أبقى على ولده أسد الدين شيركوه حمص وتدمر والرحبة وسلمية ، اقطاع ابيه ، وخلع عليه وكتب له منشورا بها ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السنة الثانية والثمانون وخمسمائة

فصل

قطع السلطان الفرات ، ووصل الى حلب ، وخرج منها يريد الشام فتلقاه أسد الدين صاحب حمص وأخته سفري خاتون بتل السلطان ، ومعها الهدايا العظيمة ، وسار الى حمص فأطلق المكوس وأزال الضمانات ، وقال لأخيه العادل أبي بكر: اقسم التركه بينهم على فرائض الله تعالى ، وكان قد خلف شيركوه وسفري وزوجته ست الشام ، فصعد العادل الى قلعة حمص وأقام أياما فقسم التركة ، وكان قد خلف اموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة ، فكان مبلغ التركه ألف ألف دينار ، وكان القاضي نجم الدين بن أبي عصرون حاضر القسمة ، فقام يوما فوقعت من

تحت نيله منطقة مجوهرة ، فنسبه العادل الى مالايليق ، وكان نجم الدين منزها عن ذلك ، لأنه كان عفيفا جـوادا شريف النفس فحلف للعادل أنني ما علمت بها ، وصدق ، وإنما الحساد وجـدوا طـريقا للقول .

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ، ومنع من الأذان بحـي على خير العمل ، وقتل جمـاعة مـن العبيد كانوا يؤذون الناس ، وأغلق أمير مكة باب البيت وصعد الى أبي قبيس فارسل اليه وطلب المفتاح فامتنع من انفاذه فقال سيف الاسلام قل لصاحبك ان الله نهـانا عن أشياء فارتكبناها ، وقال النبي صلى الله عليه وسـلم : لا تـأخذوا المفتاح من بني شيبة ، فنأخذه ونستغفر الله تعـالى ، فبعـث اليه بالمفتاح .

وفيها قسم السـلطان البـلاد بين أولاده وأهله بـرأي القـاضي الفاضل ، فانه لما مرض أشار عليه بذلك .

وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج ، وتفـرقت كلمتهـم ، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام .

وفيها غدر ابرنس صاحب الكرك ، واسمه ارناط ، وكان أخبث الفرنج وأشرهم ، فقطع الطريق على قـافلة جـاءت مـن مصر الى الشام ، وفيها خلق عظيم ومال كثير ، فاستولى على الجميع قتـلا واسرا ونهبا ، فأرسل اليه السلطان يوبخه على ما فعـل ، ويقـول أين العهود والمواثيق ، رد ما أخذت ، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم ، فنذر السلطان دمه وأقام السـلطان بـدمشق يتجهز للقاء العدو ، واستدعى العساكر من الشرق والغرب .....

السنة الثالثة والثمانون وخمسمائة

وفيها فتح البيت المقدس ، وعكا وحصون الساحل وسببه وقعة حطين ، خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام فنزل بصرى يرتقب وصول اخته ست الشام وابنها ابن لاجين ، وكان قد بلغه ان البرنس يرتقب وصولهم فخاف من غدره ووصل الحاج في أواخر المحرم ، وخلا سر السلطان منهم ، فسار الى الكرك فقطع الاشجار ، ورعى الزرع ، وفعل بالشوبك مثله ، وأقام ينتظر عسكر مصر وكان عند مسيره الى الكرك أمر ولده الأفضل أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ، ينتظر باقي عسكر الشرقية ، فأنهض الأفضل طائفة للغارة على طبرية ، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين بن زين الدين وعلى عسكر الشام صارم الدين قيماز النجمي فنازلوا طبرية ، وتقدم بدر الدين دلدرم مقدم عسكر حلب الى طبرية ، فخرج اليه مقدم الداوية والاسبتار بجماعة معهم فقاتلوهم فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم ، وسار الى صفورية ففعل كذلك ، وعاد بالاسارى الى الأفضل وهو على شعب الشهاب وجاء السلطان الى تسيل – قرية غربي نوى – وصعد تلها وعرض العساكر ، وسر بما رأى ، واندفع يوم الجمعة سابع عشرين ربيع الأول نحو فيق ورحل الافضل معه فالتقوا على الاقحوانة ، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركا بأدعية الخطباء ، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفا من الفرسان ، فأما الرجالة فيقال انهم كانوا في ثمانين الفا بين فارس وراجل ، فنزلوا الصفورية ، وتقدم السلطان الى طبرية فنصب عليها المناجيق ، ونقب اسوارها ، ففتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر ، وتمنعت القلعة عليه وبها الست زوجة القومص ، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس ، وملك المسلمون عليهم الماء ، وكان يوم حارا ، والتهب الغور عليهم ، وأضرم مظفر الدين بن زين الدين النار في الزرع ، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم ، فلما طلع الفجر يوم

السبت قاتلوا الى الظهر ، وطلعوا الى تل حطين والنار تضرم حولهم ، فهلكوا وتساقطوا من التل ، وكان القومص معهم ، فحمل وفتح له السلطان دربا فصعد الى صفت وعملت السيوف في الفرنج قتلا وأسرا ، وأسر من الملوك كاي وأخوه جفري وبرنس الكرك والهذفري ، وصاحب جبيل وبيروت وصيدا ، ومقدم الداوية والاسبتار ، وغيرهم وجيء الى السلطان بصليب الصلبوت ، وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من الذهب ، وهو عند النصارى مثل المسيح والذي اسر الملك درباس الكردي ، والذي اسر البرنس ابراهيم غلام المهراني .

فلما رآهم السلطان نزل وسجد لله تعالى ، وجاء الى خيمته فاستدعاهم ، فجلس الملك عن يمينه ، وبرنس الكرك الى جانب الملك ، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشا ، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشرب منه وسقى البرنس ، فقال ما أننت في سقيه ، وكان السلطان قد نذر ان يقتل البرنس بيده ، فقال له: غدار حلفت وغدرت ونكثت ، وجعل يعدد عليه غدراته ، ثم قام اليه فضربه بالسيف على كتفه ، وتممه المماليك ، وقطعوا رأسه وأطعموا جثته الكلاب .

فلما رآه الملك قتيلا ، خاف وطار عقله ، فأمنه السلطان ، وقال: هذا غدار كذاب ، غدر غير مرة ، ثم عرض السلطان الاسلام على الداوية والاسبتار فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلقا عظيما ، وبعث بباقي الملوك والأسارى الى دمشق الى الصفي بن القابض ، فاعتقل الأعيان في القلعة ، وباع الأسارى بثمن بخس ، حتى باع بعض الفقراء أسيرا بنعل فقيل له : هذا ثمن بخس ، فقال اردت هوانهم .

ودخل القاضي ابن ابي عصرون الى دمشق وصليب الصلبوت منكسا بين يديه ، وعاد السلطان الى طبرية ، فأمن صاحبتها ، فخرجت بنفسها ومالها الى عكا ، وولى طبرية قيماز

النجمي ، وأما القومص فانه خرج من صفت الى طرابلس فمات بها .

فقيل انه مات من جراحات كانت به ، وقيل ان امرأته سمته ، وقيل هذا كان سببا في هلاك دين النصرانية وأكثر الشعراء في هذه الوقعة .

ذكر فتح عكا

وفيها لغتان المد والنسبة اليها عكاوي ، وعكه بالهاء .

وسار السلطان من طبرية فنازلها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وليس بها من يحميها لأن وقعة حطين أبادتهم ، وكانوا ثلاثين ألفا ، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله ، فأمنهم ودخلها يوم الجمعة غرة جمادى الأولى وبها من الأسارى المسلمين أربعة آلاف ، فاستنقذهم وجعل الكنيسة جامعا وولاها ولده الأفضل ، وولى القضاء والخطابة والامامة عبد اللطيف ابن ابي النجيب الشهرزوري ، وغنم المسلمون أموالا لا تحصى ، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها وما فيها ، وأعطى السلطان الفقيه عيسى جميع ما يختص بالداوية ، ولم يحضر هذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان ، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا ويافا ، وحضره الملك العزيز لأنه تقدم مع العسكر المصري ، ومضى الى مصر وما عاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان ، والسلطان على صور .

وكتب العماد الكاتب الى بغداد كتابا اوله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٢٨) والحمد لله على انجاز هذا الوعد ، وعلى نصرة هذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وأحدث من بعد أمر أمرا ، وهون هذا الأمر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه

صبرا ، وخوطب النبي بقوله: (ولقد مننا عليك مـرة اخـرى) (٢٩) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخـرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكتابة ، والزمان كهيئتـه قـد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر قـد رد مـا عنده مـن الشعار ، والخادم يشرح مـن هـذا الفتـح العـظيم ، والنصر الكريم ، مـا يشرح صـدور المؤمنين ، ويسـوء وجـوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به في يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سـلخه ، وتلك سـبع ليال وثمـانية ايام حسوما عدموا فيه نفوسا وجسـوما ، فـأصبحوا قـد هـووا في الهاوية (كأنهم اعجاز نخل خاوية) (٣٠) واصبحت البلاد الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت بالكفر بـاكية ففـي يوم الخميس الأول فتحت طبرية ، والجمعة والسبت كانت الكسرة التي ما ابقت منهم بقية لا يقوم لهم بعدها قائمة ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة) (٣١)

وفي يوم الخميس سلخ الشهر فتحت عكة بالأمان ، ورفعت بهـا أعلام الايمان وهي ام البلاد ،وأخـت ارم ذات العمـاد ، وصـليب الصلبوت عندنا مأسور ، وقلب الكفـر الأسـير بخشـبه المكسـور مكسور ، وأنصار الصليب وأعوانه قد أحاطت به يد القبضة ، وعلق رهنه ، فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، .وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، وهو خير يوميها ، وصـارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بـالله واليوم الآخر ، وصـارت المذابـح مواقف لخطباء المنابر ، وعد الحصون التي فتحت .

وقال في آخر الكتـاب ــ ومـا يتـأخر النهـوض الى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقـد آن أن يسفر فيه الهدى عن صحة السلام .

ذكرما فتح السلطان في هذه السنة من بلاد الفرنج وطبرية وعكا

· لما فتح عكا راح الى تبنين ، وتسلمها وتسلم صيدا وبيروت وجبيل وغيرهـا والداروم والرملة ويبنا وبيت جبـرين والخليل وعسقلان ، فكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها خمس وثلاثون سنة ، لأنهم ملكوها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن ، وتسلم السلطان هذه الأماكن في اربعين يوما ، أولها ثامن عشرين جمادى الأولى وآخرها الثامن من رجب .

ذكر فتوح القدس

سار اليه السلطان فنازله يوم الأحد منتصف رجب ، وكان المنجمون قد قالوا له: تفتح القدس ، وتذهب عينك الواحدة ، فقال رضيت أن أفتحه وأعمى ، وكان قد نزل على غربيه اولا ، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذه الفرنج ، وكان مشحونا بالبطارقة والخيالة والرجالة ما يزيد على ستين الفا ، غير النساء والذرية ، فنصب عليها المناجيق وآلة القتال ، وتعلق النقابون بالسور ، وقاتل الفرنج قتالا شديدا ، فلما رأوا ان المسلمين قد ظهروا عليهم سقط في ايديهم وايقنوا بالخذلان ، فصاحوا الأمان ، فبطل عنهم القتال واستقر الأمر على ان يخرجوا بأنفسهم واموالهم وذراريهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح ، بعد ان يؤدي كل واحد منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصبي أربعة دنانير ، وعن الطفل دينارا ، ومن عجز منهم كان رقيقا سيملك ، ومن أراد من النصارى

الاقامة ، فليقم وتؤخذ منه الجزية ، وأقر بأيديهم القمامة ، وعينوا اماكن يزورونها ، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج ، فكان استيلاء الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة لأنهم اخذوه في سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وفتح في هذه السنة وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ودخل السلطان الصخرة وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي ، ومحا الصور منها ، وكسر الصلبان ، وأحرق دار الداوية ، وعمر المسجد الأقصى ، وفرق الأموال التي أخذها من الفرنج ، وكانت نيفا وثلاثمائة ألف دينار على العلماء والفقهاء والصوفية ، وكان قد حضر معه هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الأجناس ، وتطاول جماعة من الأعيان على الخطابة ، فذكر السلطان قول ابن زكي الدين :

وفتحه حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

قال الفاضل : إنه أنطق الله السلطان بالغيب ، فأعطاه الخطابة وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق .

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس ، وهو وهم منه ، وخلص السلطان من القدس ثلاثة آلاف من أسارى المسليمن ، وبعث مع الفرنج الذين كانوا في القدس من أوصلهم الى صور ، وكان بها مركيس .

قلت : ولقد ضيع السلطان الحزم بتسيير الفرنج الى صور ، ولم ينظر في عواقب الأمور ، فان اجتماعهم بصور كان سببا لأخذهم البلاد ، وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأجناد الاسلام ، وقد كان الواجب عرضهم على الاسلام فإن أبوا فالسيف ، « وهو أصدق انباء من الكتب » وأنى وكيف ، وما اشبه هذه القضية بفدية الأسارى يوم بدر حيث اشار بعض الصحابة بأخذ ذلك

القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وماصدر ذلك الرأي إلا عن صدر ، فلا جرم قتل منهم يوم أحد سبعون ، وأسر سبعون من المسلمين كما فعلوا يوم بدر بالمشركين .

وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضا لم يحضر هذا الفتح ، فأمر السلطان العماد الكاتب ان يكتب كتابا الى بغداد بالفتح ، فكتب في أوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٣٢) ، والحمد لله الذي انجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به من بعد المخافة ، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ، ومنحه أخلص اوليائه ، وأخص اصفيائه بعد ان انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه ، وفوات ترجيه ، وتقاصرت عنه الهمم وتخاذلت عنه ملوك الأمم فالله الحمد الذي حقق بفتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ما حيا ذل أمس ، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس ، وعباد الصليب ومستقبلي الشمس ، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قل هو الله احد ، وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم الى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج الى نابلس وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع لباس اليأس عنها بافاضة ثواب المحسنين ، ورجع الاسلام غريبه منه الى داره ، وطلع قمر الهدى من سراره ، وعادت الأرض المقدسة الى ما كانت عليه من التقديس ، وأمنت المخاوف بها ، وفيها فصارت صباح السرى ، ومناخ التعريس ، وأقصي من المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد اليه المصطفون المقربون ، وخرس الناقوس برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، ورفعت الأعلام الاسلامية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت

بألسنة عزتها (نصر من الله وفتح قريب) (٣٣) وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين ، وأبعد اهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين

وذكر بها ماذسي من عهد المعراج النبوي والاعجاز المحمدي ، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ، ورجع بيت الله من التقوى الى تأسيسه ، وذكر العماد فصولا في هذا المعنى (٣٤)

فصل

وفي شعبان سار السلطان الى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة ، وهي في البحر مثل السفينة ، والبحر محيط بها ، من جوانبها وليس لها طريق في البر الا من مكان واحد فيه سبعة ابراج ، وبه المركيس ، وكان شجاعا حازما ، وقد انطوى اليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج ، وأقام السلطان ينتظر الاصطول من مصر ، فوصل فقاتلهم في البر والبحر ، واتفق ان الاصطول غفل ليلة فكبسه الفرنج فأخذوا المراكب ، ورمى بعضهم نفسه في البحر ، فتأخر السلطان في سلخ شوال ، ووصل اليه من بغداد تاج الدين ابوبكر حامد أخو العماد الكاتب ، فالتقاه السلطان وأكرمه ، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على اسباب . منها: ان الخليفة عتبه لأجل ابن البوشنجي ويلقب بالرشيد ، وكان صبيا ببغداد ، ولا يؤبه له فخرج الى الشام ، واتصل بصلاح الدين ، وقيل له هذا من بيت كبير ...

السنة السادسة والثمانون وخمسمائة

وفي سابع المحرم دخل ألب ارسلان بن السلطان طغريل الى بغداد وهو صبي صغير وعليه كفن وبيده سيف مشهور كأنه يطلب عفو

الخليفة وجاء فنزل بباب النوبي ، وباس العتبة فبكى اهل بغداد ، ورق له الخليفة ، وأنزله دار ابن العطار مقابل المخزن ، وأكرمه وأحسن نزله ، وعفا عن جرائم ابيه وما فعل ابن يونس ، واستدعاه الى باب الحجرة وخلع عليه خلعة السلطنة ، وطوقه بطوق من ذهب ، واجتمع بولي العهد ابي نصر محمد .

وفيها تسلم الخليفة قلعة الحديثة ، بعد حصار كثير ، وفيها بنى الخليفة دار الفلك ، ورتب فيها ابنة السيد العلوي ، ويقال لها ست الجدود .

وأما حديث السلطان ، فإن هذه السنة دخلت وهو مرابط على الخروبة ، وفي ربيع الآخر تسلم شقيف أرزون بالأمان بعد الحصار الطويل ، وضيق على صاحبها ارناط ، بدمشق فسلمه ، ومضى الى صور ، وفي هذا الشهر قدمت العساكر الاسلامية على السلطان ، وفيهم الملك الظاهر صاحب حلب ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وعز الدين ابراهيم بن المقدم وغيرهم ، فتقدم السلطان الى تل كيسان وعزم على لقاء الفرنج ، وقد وصل رسول الخليفة فخر الدين نقيب العلويين بمشهد التين ومعه خمسة أحمال نفط ، وتوقيع بعشرين الف دينار تقترض من التجار على الخليفة فشق على السلطان وقال : أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا وأضعافه ، وماأنا مضطر ، ورد عليه الجميع ، فأشار عليه بعض اصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه ، ورد التوقيع ، وقال:يرحم الله العاضد وصل إلي منه في عشرين يومابمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ، ومثلها عروض .

حديث حريق الابراج

كان للافرنج ثلاثة ابراج من الخشب والحديد ، والبسوها جلود البقر المسقاة بالخل والخمر لئلا تعمل فيها النار ، وطموا خندق عكا ، وسحبوا الأبراج على العجل الى السور ، فأقبلت مثل الجبال ، وأشرفت على البلد ، وفي كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد ، وقد حيل بينهم وبين السلطان ، والعساكر ، واجتهدوا في الوصول الى البلد فلم يقدروا ، ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط فلم يحترق منها شيء ، وكان بعكا شاب دمشقي يقال له ابن النحاس ، ليس له في الديوان اسم ، وكان عارفا بالنفط والحريق ، فهيأ ثلاثة قدور ، وقال لقراقوش : انصب لي منجنيقا ، فانتهره وقال : قد عجز الصناع فمن أنت ؟ فقال : قد عملت قدورا الله تعالى وما اريد منكم شيئا ، وما يضركم ان ارمي بها في سبيل الله ، فإن نفعت والا فاحسبني واحدا منهم ، فقال قراقوش : ما يضرنا ذلك ، ثم نصب له المنجنيق فرمى قدرة واحدة في البرج ، فاحترق بمن فيه ، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث فكبر المسلمون وسمع السلطان وكبر العساكر ، وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والأموال ، فلم يأخذ منها شيئا ، وقال : انا فعلت هذا لله تعالى ، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول .

قلت وقد اجتمعت بابن النحاس في حلب سنة ثلاث وستمائة وحكى لي صورة الحريق ، وكان يحضر مجالسي ، فطاب قلبه يوما فقال للناس : اشهدوا ان نصف ثوابي في حريق الابراج لفلان عني .

وبعد يومين من حريق الابراج وصل عماد الدين زنكي صاحب سنجار الى خدمة السلطان ، فالتقاه وتعانقا وسار به السلطان الى خيمته ، فترجل عماد الدين قبل السلطان ومشى في خدمته بمقدار ما

لبس السلطان زرموجته ، ودخل السلطان الخيمة ، وقدم له السلطان من الطرف ما يقدم لمثله وبسط له الثياب الاطلس ، فمشى عليها ، وأنزله في طرف الميسرة .

حديث ملك الألمان

وفي هذه السنة قطع الألمان خليج القسطنطينية الى بلاد قليج ارسلان في ستمائة الف جاؤوا من أفرنجة ، فخاف منهم ملك القسطنطينية ، فقالوا: لا تخف نحن ما جئنا الا لنخلص القدس ، وصليب الصلبوت ، ونملك بلاد المسلمين ، فلما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة فاحتاج الى مسالمتهم ، وكتب الى السلطان يعتذر بالعجز عنهم ، وساروا طالبين ووقع فيهم الوباء ،فدفنوا كثيرا من سلاحهم ظنا منهم اذا عادوا اخذوها ، فهلكوا ، وأخذ المسلمون ما دفنوه ، ووصلوا الى نهر طرسوس فتخلص منهم ابن ليون بقلاعه لأنه أرمني ، وهم روم فأراد الملك ان يسبح ، وكان ماؤه بادرا فنهوه ، وقالوا : لا تفعل فأنت متعوب ، فقال : لابد فسبح فأخذته الحمى ، فأقاموا على النهر بسببه ، فأوصى الى ولده الذي كان في صحبته ومات ، فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوه في القدس .

ولما مات اختلفوا على ولده ، لأنه كان له آخر أكبر منه فكانوا يميلون إليه ، فتأخر عنه أكثرهم ، ودخل أنطاكية في جيش قليل ، وسأل البرنس أن يخلي له القلعة ليضع أمواله واثقاله فيها ، وكان في البرنس خبرة فأجابه الى ذلك ظنا منه أنه لا يتفق عوده اليها ، وكان كما ظن ما عاد ، وأخذ البرنس الجميع .

ثم سار الى طرابلس ، وجعل أهل الجبال يقتلونهم وينهبونهم ، فما وصلوا طرابلس الا في نفر يسير ، فأقاموا أياما ، وساروا إلى عكا فلقيهم الافرنج واستبشروا بهم ، ووصل

رسول ملك القسطنطينية يعتذر الى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب الخليفة والسلطان بقسطنطينية ، وانقطعت اخبار عكا عن السلطان ، فندب اقواما السباحة وأعطاهم المال في أوساطهم ، والطيور في أعبابهم فترد الأخبار ، ثم احترز الفرنج بعد ذلك بشباك نصبوها في المساقاة ، فاذا جاء سابح وقع فيها ، فامتنع الناس .

وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا ، فقال : ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج ، ففعلوا ذلك ، فخرج اليهم الفرنج في الشواني ، فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، فقالوا ما أخذتموه، بعد ؟ قالوا : لا ، فقالوا : وراءنا بطسة اخرى ردوها عن البلد ، فذهبوا ، عنهم ، فردوا القلوع الى البلد ودخلوا الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياما .

واما ابن ملك الألمان فانه اعد دبابة عظيمة ، فدخل تحتها الوف من الناس، و لها رأس عظيم برقبة طويلة اذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته ، وعمل بطسة لها خرطوم طويل ، اذا ارادوا قلب السور انقلب بالحركات ، وزحفوا الى برج الذبان ، فأحرق المسلمون جميع ذلك ، وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادها ، فقال السلطان: في هذه الحالة اصبروا الى زمان الشتاء ، فاما عماد الدين صاحب سنجار فأقام وأما سنجر شاه صاحب الجزيرة ، فأصر على الرحيل ، ودخل على السلطان فقبل يده ، وسار من ساعته ، وكتب السلطان وراءه كتابا يقول فيه ، وفي اوله كلاما منه :

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق ، فقال :له الى اين ؟ فأخبره فقال : ارجع ، فقال ما ارجع ، وكان تقي الدين مقداما فقال: ارجع ياصبي والا رجعت مقهورا فرجع فسأل تقي الدين السلطان فعفا عنه.

وفيها كتب السلطان الى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أمير الغرب ، كتابا يستنجد به على يد شمس الدين بن منقذ (٣٥)

ودخل فصل الشتاء فأعطى السلطان العساكر دستورا وأقام في نفر يسير .

وفي ذي الحجة مات ابن ملك الالمان ، واستشهد بعكا جماعة ، منهم جمال الدين محمد بن أرككز خرج في شاني يقاتل ، فاحتاطت به مراكب الفرنج وعرضوا عليه الأمان ، فقال ما أضع يدى الا في يد مقدمكم الكبير ، فجاء اليه المقدم الكبير ، فأخذ بيده وعانقه وألقى نفسه واياه في البحر فغرقا .

وفيها تسلم صلاح الدين الشوبك بعد حصار شديد بالأمان ، وفيها ملك سيف الدين صنعاء ، واعطاها اولده شمس الملوك الذي ادعى الخلافة ، وحج الناس من بغداد طاشتكين ....

وفيها توفي يوسف بن علي بن بكتكين صاحب إربل ، ولقبه زين الدين وهو أخو مظفر الدين ، وزين الدين ، كان عند السلطان في هذه السنة على الخروبة ، فمرض في رمضان ، فارتحل من الخروبة الى الناصرة ، فأقام يمرض نفسه ، وكان عنده اخوه مظفر الدين يمرضه فيقال انه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك ، فانه لم يكترث بموته ، ولا تأسف عليه ، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه ، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته .

وقال العماد : اتينا مظفر الدين نعزيه ظننا منا انه قد حزن عليه

حزن الأخ على اخيه ، فكأننا جـئنا نهنئه ، واذا بـه مشـغول عن العزاء بحيازة اموال وا سبابه ، والقبض على عماله وكتـابه ، ثـم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربـل وينزل عن حـران والرها ، فأجابه الى ذلك ، وسأله كتابا إلى صاحب إربـل في هـذا المعنى ، والله تعالى اعلم .

السنة السابعة والثمانون وخمسمائة

وفيها استيلاء الفرنج على عكا ، اشتد عليها الحصار في جمادى الآخرة ، وطـم الفـرنج الخنادق ، ونصـبوا المناجيق والدبـابات والسلالم ، ومل المسلمون من السهر والتعب والقتال وكثرت فيهـم الجراح ، وكان الفرنج قد صنعوا تلا من تراب يقدمونه يسيرا يسيرا ويقاتلون من ورائه ، لأن المسلمين أحـرقوا أبـراجهم ومناجيقهـم ودباباتهم ، فعملوا هذا التل وشرفـوه ، فصـار للمقـاتلة مثـل الحائط ، وجاء كتاب أهل عكا الى السلطان يقولون قد عجزنا ومـا بقي الا طلب الأمان والتسليم ، فلم يرد على السلطان خبر أشد من ذلك ، لأنه كان قد نقـل الى عكا جميع سـلاح السـاحل والقـدس ودمشق وحلب ومصر ، فقال:إني هاجم على القوم من البر ويخـرج المسلمون من البلد ، فقالوا : ماهذا مصلحة فقد نرى مـا بين ايدينا من الخنادق والرجالة كالسور ، وبعدهم الخيالة ، وهـم اضـعاف عددنا ، ولم يوافقـوه ، ولما كان يوم الجمعـة سـابع عشر رجب ، والسلطان قد ركب والعساكر بأسرها ، وإذا بأعلام الفرنج قد ظهرت على عكا وقت الظهـر ، وصـاح الفـرنج صـيحة عظيمة ، وطلع علم على القلعة وآخر على مأذنة الجـامع ، ومـلأوا الأبراج بالأعلام ، ودخلوا عكا وأسروا من كان بهـا ، واسـتولوا على جميع ما كان فيها ، وكانوا قبل ذلك قرروا على اهلهـا مـائتي الف دينار ، وألفي أسير ، وصليب الصلبوت ، ويخرج من بها مـن المسلمين سالمين بأموالهم وأهلهم ، وأخبروا السلطان ، فـأجابهم فقال الفرنج : سلموا الينا المال والأسارى ، واقنعوا بأماننا حتـى

نسلم إليكم اصحابكم ، فقال السلطان: وأي أمانة لكم ، ونخاف من غدركم ، والبلد وما فيه قد صار بأيديكم ، وتوقف الحال .

فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خرج الفرنج من عكا ، ووقفوا وسط المرج بين تل كيسان والعياضية ، وأحضروا المسلمين موثقين في الحبال ، وكانوا زهاء عن ستة آلاف مسلم ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ضربا وطعنا ، فقتلوهم فنزل المسلمون يشاهدونهم و لا يعلمون ما يصنعون بهم لبعدهم عنهم ، فعادوا وأخبروا السلطان فبكى بكاء شديدا ، ويقال انه لطم على رأسه ونتف لحيته ، ووقع العويل والبكاء في العسكر ، ورحل السلطان من منزله .

ذكر ما جرى بعد انفصال امر عكا

ولما كان غرة شعبان يوم الأحد رحل الفرنج من عكا ومقدمهم الانكلتار ، وكان ملكا عظيما ، فسار في البر بالفارس والراجل ، والمراكب في البحر ، ومعهم فيها ازوادهم ، فنزلوا على نهر القصب ، وكانو ثلاثة اقسام: الملك العتيق واسمه كاي في المقدمة مع الساحلية ، والانكلتار والفرنسيسية معه في الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية في الساقة والسلطان في اعراضهم ، وجرى بينهم قتال على نهر القصب قتل فيه اياز الطويل ، مملوك السلطان ، وكان فارسا عظيما في دبوسه عشرة أرطال حديد ، وكان يضرب الفارس ويهشمه ، فقاتل في ذلك اليوم قتالا عظيما ، وقتل من الفرنج جماعة ، فتقنطر به فرسه فقتلوه ، فحزن السلطان عليه ودفن على تل عال مشرف على بركة

وطلب الانكلتار الاجتماع بالملك العادل سيف الدين ، وركبا كل واحد في نفر يسير فقال له الانكتار .انما جئنا لنصرة أفرنج

الساحل ، فردوا عليهم ما أخذتم ، واحقدوا دماء الفريقين فقال العادل : حتى اجتمع بالسلطان .

ذكر وقعة ارسوف

لما كان السبت رابع عشر شعبان أصبح الفرنج على نصبة ، وصف السلطان عساكره ، فاندفع جماعة من المسلمين ، وثبت العادل وقيماز النجمي وعسكر الموصل وكان مقدمهم خرم شاه ولقبه علاء الدين ولد عز الدين مسعود ، فلقبه السلطان في ذلك بالملك السعيد ، ثم غارت عليهم عساكر المسلمين ، فلولا حيطان أرسوف لحل بهم الحتوف ،

وذكر محمد بن القادسي في نيله وقال: انهزم صلاح الدين في ذلك اليوم ورجع في عسكر الموصل ، وكانوا فوارس .

وقد حكى القاضي ابن شداد ، وكان حاضرها ، وليس المخبر كالمعاين ، فقال : ما انهزم السلطان ، انما بقي في سبعة رجال ، واعلامه واقفة وكوساته تخفق ، فلما رأى ما نزل بالمسلمين ، صاح فيهم وحرضهم ، ووقف في ظلته ، فلما رآه الناس في ظلته ثابتا أتت العساكر اليه ، فتراجع الفرنج الى منزلته ، وقتل من الفريقين جماعة ، وأما قول ابن القادسي انه قتل من الانكلتار مائة ألف وأربعين ألفا ، فإن الفرنج ما بلغت عدتهم يوم ارسوف ثلاثين الفا ، قال القاضي قتل منهم خمسون افرنجيا وقيل أقل .

حديث خراب عسقلان

وسار السلطان من أرسوف ، فنزل عسقلان ، فأجمع الأمراء

على خرابها ، فبكى السلطان على خرابها ، وقال : والله ان فقد اولادي اهون علي من خرابها ، أو أن أنقض منها حجرا ، فقالوا : اخربها والا جرى عليها ما جرى على عكا ، وهذه بين يافا والقدس ، ولا يمكن حفظ الموضعين ، واختر ايهما شيء ، وجاء الخبر نزول الفرنج على يافا ، فأمر بخرابها ، وكان فيها شيء كثير فأجابه المسلمون فنهبوها ، وأخربوا بعض السور والسلطان يبكي وينتحب ، ، وبعث الانكلتار يعرض على العادل ان يزوجه بأخته ، فأجاب العادل ، فاجتمعوا واوقفوا الأمر ، وقالوا: ان تنصر العادل ودخل في دينها ، والا غضب المسيح على الانكلتار ، فتوقف الحال على ما ذكر الأقساء ، وكان الانكلتار يجتمع بالعادل في كل وقت ، ويتهاديان ، وكان خديعة من الاثنين ، وبعث الانكلتار الى السلطان يقول : لا بد من القدس ، وصليب الصلبوت فادفعهما إلينا ولك من قاطع الأردن إلى ناحية الشرق ، فقال السلطان: أما القدس فهو اعظم عندنا مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومجمع الملائكة ، فلا يتيسر ان ننزل عنه ، وأما صليب الصلبوت فهلاكه عندنا قربة عظيمة فلا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي اوفى منه ، فقال: الانكلتار للعادل: اجمع بيني وبين السلطان ، فقال: الملوك اذا اجتمعوا تقبح الحرب بينهم بعد ذلك ، فاذا انتظم الصلح حسن الاجتماع ، وعاد الفرنج الى الرملة ، وطلع السلطان إلى القدس في ذي القعدة ، واخذ في تحصينه ، وشرع ينقل الحجارة هو وأولاده ، على أكتافهم وأمراؤه وأجناده ، والقضاة والفقراء والعلماء ، والعامة والخاصة .

وفيها عزل السلطان أبا حامد محمد بن عبد الله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق ، وولى محيي الدين بن زكي الدين قالوا ، سبب عزل ابن أبي عصرون عن قضاء دمشق مداخلته الجند ، واشتغاله بما اشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والمماليك والبرك ، ومباشرة الحروب ، ومعاملة الامراء ومداينتهم ، فتبرم السلطان منه وعزله .

وفيها حج بالناس من بغداد طاشتكين .

فصل

وفيها توفي أسعد بن المطران الطبيب ، ويلقب بالموفق ، وكان نصرانيا اسلم على يد السلطان ، وكان غزير المروءة ، حسن الأخلاق كريم العشرة جوادا مهيبا متعصبا للناس عند السلطان ، ويقضي حوائجهم ، وكان قد صحبه صبي من المسلمين اسمه عمر ، وكان حسن الصورة فأحسن إليه ، وكان الموفق يحب أهل البيت ، ويبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه ولقبح هجائه وثلبه لأعراض الناس ، ويحرض السلطان على نفيه من البلاد ، وقال اليس هو القائل :

سلطاننا أعرج وكاتبه
أعمش والوزير منحدب

فهجاه ابن عنين وقال

قالوا الموفق شيعي فقلت لهم
هذا خلاف الذي للناس منه ظهر

فكيف يجعل دين الرفض مذهبه
وما دعاه الى الاسلام غير عمر

وكان الموفق يعود الفقراء المرضى ، ويحمل اليهم من عنده الأشربة والأدوية حتى أجرة الحمام ، وزوجه السلطان بجارية له يقال لها جورة ، وكانت من حظايا السلطان ، ونقل معها جهازا عظيما ، وقال ليلة عرسها احملوا اليه المطبخ ، فنزل الموفق جامع دمشق ليصلي العصر ، فجاء اليه صوفية الخانكاه وطلبوا منه سماعا بالخانكاه ، فقال: سمعا وطاعة ، وقام فدخل الى الخانكاه الصميصاطي واستدعى مطبخ السلطان من دار العقيقي ، واحضر المغاني والحلاوة الكثيرة الى الخانكاه ، ونزلت العروس مع حظايا

السلطان الى دار العقيقي ، فأقمن طول الليل ، وهو عند الصوفية ، وهم يرقصون ، وما علموا انها ليلة عرسه فاستحى ان يعرفهم ، فلما كان في آخر الليل قيل للصوفية ايش عملتم الرجل الليلة عريس على جارية السلطان ، والساعة يبلغ السلطان فيغضب فجاؤوا اليه بأجمعهم ، واعتذروا وسألوه ان يمضي فقال: لا والله الى الصباح ، وبلغ السلطان فقال: آلام على هذا وتقريبه ، فكانت وفاته في ربيع الأول بدمشق ، ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته جورة ، ولما مات اشترت زوجته دارا وبنت الى جنبها مسجدا ، وبنت له تربة وهي تعرف اليوم بتربة جورة ولما قدمت الشام سنة ثلاث وستمائة كانت جورة ، باقية وكانت صالحة عابدة .

فصل

وفيها توفي القاضي أبو القاسم قاضي حماه ، واسمه الحسين ، ابن حمزة بن الحسين كان فاضلا جوادا سمحا لا ينزل قدره عن النار ، يضيف الخلائق من الخاص والعام ، وما اجتمع أحد بحماة من الأكابر الا وأضافه ، وكان صلاح الدين يحبه ، وكذا العادل وتقي الدين ، وبلغني ان العادل اجتاز بحماة فأرسل الى القاضي يقول له: اريد الحمام خلوة ، فأخلاه فما خرج العادل من الحمام الا وقد جهز له من الفواكه ، وكان قد تزوج بدمشق خطلخ خاتون بنت سودكين فأولدها ابنة وسماها زينب ومات القاضي وهي صغيرة ، فلما بلغت تزوجها رجل من أهل حماة يقال له اسماعيل ابن العرباض ، ثم مات عنها ، قلت فتزوجتها في سنة عشرين وستمائة وتوفيت في سنة ثلاث واربعين وستمائة وانا ببغداد ، فدفنوها بتربتي بقاسيون ، وخلف ابو القاسم ولدا ذكرا ، وللولد أولاد ، ومات القاضي وهو على قضاء حماة رحمه الله تعالى .

وفيها توفي الامير سليمان بن حندر من أكابر أمراء حلب ومشايخ

الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد صديقنا علم الدين بن سليمان ،وشهد سليمان مع السلطان حروبه كلها ، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس ، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان ، فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل الى حلب فدفن بها .

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، ابن أخت صلاح الدين صاحب نابلس ، واسمها ست الشام ، وكان شجاعا مقداما جوادا ، توفي ليلة الجمعة تاسع رمضان بدمشق ، وبينه وبين وفاة تقي الدين ساعات ، ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في يوم واحد ، ودفن بالتربة التى أنشأتها والدته بالعوينة بظاهر دمشق .

وفيها توفي الصفي بن القابض وزير صلاح الدين ، واسمه نصر الله ، وكان قد خدم السلطان لما كان بشحنكية دمشق ، وأمده بالمال ، فرأى له ذلك فلما ملك استوزره ، وكان شجاعا ثقة دينا امينا ، فلما نزل الفرنج داريا ، والسلطان في الشرق جمع من أهل دمشق سوادا عظيما ، وخرج الى ظاهر البلد ، فظنوهم عسكرا فرحلوا وكان كثير المعروف ، وكتب املاكه لمماليكه لأنه لم يكن له ولدا ، وبنى بالعقيقة مسجدا ودفن به في رجب ، ويعرف اليوم بمسجد الصفي...

السنة الثامنة والثمانون وخمسمائة

وفيها في ربيع الأول ولي جدي مدرسة الشيخ عبد القادر ، فذكر الدرس بها

وقال ابن القادسي:وفي جمادى الأولى جلس الشيخ أبو الفرج بن

الجوزي عند تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي ، فتاب مائة وثلاثون شخصا ومات ثلاثة في المجلس بوجدهم .

وفيها حبس الخليفة طاشتكين امير الحاج ، وكان في قلبه منه من ذوبة ابن يونس وتقصيره في القتال ، ونقل إلى الخليفة انه يكاتب صلاح الدين ، وكبر عنه ابن يونس ، فاعتقله تحت التاج واختفى خبره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر .

وفيها كانت ذوبة الخويلفة ، وكان السلطان قد كتب الى مصر يستدعي العساكر ، فاجتمع على بلبيس خلق عظيم وقافلة عظيمة فيها اموال الدنيا ، وكان الانكلتار يترقب مجيئهم فبعث السلطان يحذرهم وقال ابعدوا في البرية ، وبلغ الانكلتار قربهم ، فركب من تل الصافية في ألف فارس مردفين بألف راجل ، وساروا حتى نزلوا ماء يقال له الحسي ، وجاء الانكلتار فكبسهم بغتة قبيل الصبح وهم غارون ، فالسعيد من نجا بنفسه ، وكانت ذوبة لم يجر مثلها في الاسلام ، ساقوا من الجمال ثلاثة آلاف جمل ، ومن الخيل ألفا وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، ومن المسلمين خمسمائة اسير ، ومن العين ألفا ألف دينار ، ومن الثياب مثلها ، وكان في القافلة فلك الدين أخو العادل لأمه ، فنجا على فرسه وعاد الفرنج إلى تل الصافية في سادس عشر جمادى الآخرة وبلغ السلطان فاسقط في يده وقال : الأمر لله .

ولما حصل ذلك بيد الافرنج ، عزموا على قصد مصر ، ثم عدلوا الى القدس ، وبعث الانكلتار الى البلاد الساحلية ، فاستدعى الفارس والراجل ، فجاءه خلق عظيم ، فسار من الرملة الى بيت ذوبة ، ووصل الانكلتار الى القبيبة في نفر يسير ، وشاهد القدس ، وعاد الى بيت ذوبة .

وكان السلطان في القدس ، فشاور الأمراء ، وقال انتم جند الاسلام ومنعته ودماء المسلمين واموالهم واهاليهم متعلقة

بكم ، فان خفتم طووا البلاد طيا ، وكنتم المطالبين بذلك ، فقالوا: نحن مماليكك وما تطير رؤوسنا الا بين يديك ، وافترقوا على هذا ، فلما كان في الغد اختلفوا فقال بعضهم : ما نقيم حتى يكون السلطان معنا ، نخاف ان يجري علينا ما جرى على أهل عكا .

وبلغ السلطان فبعث اليهم يقول: هذا مجد الدين فرخشاه ابن أخي يكون عندكم ، وأكون أنا من وراء أذب عنكم ، فقالوا: ما هذا برأي وانما نخرج ونصدقهم الحملة ، فإن قهرناهم والا نسلم العسكر ونمضي الى دمشق ، فعز عليه ذلك خوفا على القدس ومن فيه من المسلمين ، وبات ليلة الجمعة ساهرا باكيا متضرعا ، وبعث بالصدقات الى الفقراء ، وطلع الفجر فجلس الى الضحى يدعو ومضى الى المسجد الأقصى ، فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع الى الله تعالى .

وكان جرديك في اليزك ، فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم ، وبات السلطان ليلة السبت قلقا لم يعرف المنام ، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعا فقال السلطان: يهنيك رحلوا نحو الرملة ، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم ، وسبب رحيلهم ذلك لأن السلطان كان أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس ، فقال لهم الانكلتار : ومن أين نشرب؟ قالوا : من العيون التي حول القدس ، فقال يتخطفوننا فحكموا منهم ثلاثمائة من علمائهم ، وحكم الثلاث مائة اثني عشر ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل ، فباتوا يتشاورون فترجح عندهم الرحيل ، وقالوا: السلطان حاضر ، ومعه العساكر ، فارحلوا فرحلوا طالبين عكا ، وكانوا قد اخذوا يافا وحصنوها .

فأقام السلطان بالقدس حتى تيقن وصولهم الى عكا ، فخرج فنزل على يافا وحصرها وتعلق النقابون في الأسوار ، وملك المدينة وأشرفوا على أخذ القلعة فصاح أهلها الأمان ، ونهب المسلمون البلد فوقف مماليك السلطان على الأبواب كل من خرج ومعه شيء

أخذوه وعز ذلك على الأمراء والأكراد ، وسلموا القلعة ، وبعث السلطان لها جماعة من أصحابه وبقي فيه من الفرنج أربعون رجلا ، فبينما هم على ذلك اذ لاحت مراكب يسيرة ، فرأوا علم السلطان عليها فظنوا أنه قد أخذها فتوقفوا ، وقويت نفوس الفرنج الذين في القلعة ، وعلموا أنها مراكب الانكلتار فرمى واحد نفسه في الماء ، وسبح اليهم وقال: تقدموا فارسوا إلى المينا ، وكانت خمسة وثلاثين مركبا ، ووصل الانكلتار ، فهرب المسلمون من البلد وتأخر السلطان الى يازور ، وجاء الانكلتار فنزل في منزلة السلطان ، ولم يكن معه سوى عشرين فارسا ، وثلاثمائة راجل ، وعشرين خيمة ، والسلطان في ألوف ، فبعث الى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش الكثير ، ومعظم عساكر المسلمين ، فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي ، وليس عندي احد ، ولا طلعت من البحر الا بزربولي ، فغضب السلطان ، وبات على غضب ، فلما أصبح ركب وركبت العساكر والانكلتار نازل على حاله لم يصل اليه من الفرنج أحد ، فحمل اليه المسلمون ، وهو في عشرين فارسا وثلاثمائة راجل ، فلم يتحرك ، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة ، فلم يجبه أحد وقال له الجناح أخو المشطوب:قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس وأخذوا كسبهم ، ويقال ان الانكلتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة ، فلم يعترض أحد وساق السلطان من حينه الى النطرون .

ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد ، ولم يتجاسر أحد أن يكلمه ، وجاءت رسل الانكلتار إلى السلطان يقول: قد هلكنا نحن وأنتم وما طلبت الصلح لتقصير وضعف مني بل حرصا على المصلحة العائد نفعها علينا وعليكم .

ثم وقع الاتفاق على أن البلاد الساحلية التي بأيدي الفرنج هي لهم ، والبلاد الجبلية التي فيها القلاع تبقى بأيدي المسلمين ، وما بين العملين يكون مناصفة ، واختلفوا في عسقلان ، ثم اتفقوا انها

تكون للفرنج خرابا لاتعمر ،وأعطاهم السلطان القمـامة ، وكتبـوا كتاب الصلح ، واتفقوا ولم يؤاخـذ السـلطان الجناح بـل عفـا عنه ، وكان عفوه من كمال عفو السـلطان ، لأن الناس كلوا وملوا وعلتهـم الديون وذلوا ، وخـاف السـلطان ايضـا على البيت المقدس ، وانعقد الصلح. وارتفعت أصـوات الفـريقين وضـجوا فرحا وسرورا ، وكان يوما عظيما ، واختلط الفريقان وزال بينهـم الشنآن ، وسار الانكلتار في البحر طالبا بلاده ، فمات قبل أن يصل اليها ، وعاد السلطان إلى دمشق ، وعزم على الحج فقيل له : البلاد خراب ، وما نأمن من غدر الفرنج فتوقف .

فصل

ووصل الى السلطان كتاب في غرة السنة من اليمن أن ثلاثة أنهار من الحبشة تغيرت ، كانت عذبة فصار الواحد أجاجا ، والآخر لبنا والثالث دما .

وحج بالناس من بغداد فلك الدين ، ومن الشام درباس الكردي .

فصل

وفيها توفي سنان بـن سـليمان ، صـاحب الدعوة بقـلاع الشام ، وأصله مـن البصرة ، وكان في حصـن ألموت ، فـرأى منه صاحب الأمر في تلك البلاد نجـابة وشـهامة ويقـظة ، فسـيره الى حصون الشام ، وكانت له معـرفة وسـياسة وحـذق في اسـتجلاب القلوب ، وكان مجيئه الى الشام في أيام نور الدين محمود ، فـأقام واليا ثلاثين سنة ، وجرت له مـع السـلطان قصص ، وبعـث اليه جماعة فوثبوا عليه ، وقـد ذكرناه وفي عزم السـلطان قصـده ، ولم يعطه طاعة قط ، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي.

ويحكى عنه الغرائب والعجائب ، وفي الجملة أنه كان كما وصفنا ولم يقم أحد بعده مقامه.

فصل

وفيها توفي سيف الدين المشطوب ملك الهكارية ، واسمه علي بن أحمد الهكاري ، كان شجاعا صابرا على الحرب مطاعا في قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث ، وشهد فتح مصر ولزم خدمة السلطان ، فكان ممن أسر بعكا ففدى نفسه بخمسين ألف دينار عجل منها عشرين ألفا ، وأعطاهم رهائن بالباقي ، واطلق فأحسن السلطان إليه وأعطاه نابلس وأعمالها فجار ديوانه على أهلها ، فاتفق أن السلطان اجتاز بنابلس من القدس في عوده إلى دمشق ، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا فقال : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يتظلمون من المشطوب ، وهو راكب بين يديه ، فقال : ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك حتى يسمع الله ، فكيف وهم يدعون عليك .

واختلفوا في وفاته ، فقال العماد الكاتب : مات المشطوب في نابلس في آخر شوال ، وقال القاضي ابن شداد : مات في القدس ، وصلي عليه في المسجد الاقصى ، ودفن بداره .

وفيها توفي قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، صاحب بلاد الروم ولقبه عز الدين .

وفيها توفي المركيس صاحب صور ، قدم عليه راهبان فلزما الكنيسة وتعبدا عبادة زائدة ، وبلغه خبرهما فقربهما ، ولم يكن يصبر عنهما ، فأغفلاه ليلة وذبحاه فأخذا وقررا فقالا : نحن من الاسماعيلية ، فقتلا وسر الانكلتار بقتله ، لأنه كان يضاهيه ويضاده ، ويراسل السلطان في الاعانة عليه ، فلما قتل استقل

الانكلتار بالامر ، وزوج الانكلتار زوجة المركيس بكندهري ابن اخت ملك الانكلتار من أبيه ، وابن اخت ملك الافرنسيس من أبيه ، وأقام الانكلتار كندهري موضع المركيس ، وكانت امرأة المركيس حاملا منه فدخل بها كندهري وهي حامل ، وما ذاك عيب عندهم في دين النصرانية ، ويكون الولد منسوبا لأمه ، وكان الملك في المملكة فأقام كندهري ملك الافرنج سبع سنين .....

السنة التاسعة والثمانون وخمسمائة

ويقال لها سنة الملوك مات صلاح الدين ، وبكتمر شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل .....

وفيها توفي بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط ، مات شاه أرمن ولم يخلف ولدا ، فاتفق خواصه على بكتمر ، فضبط الأمور وأحسن الى الرعية ، وعدل فيهم ، وصاحب العلماء والصوفية ، وكان حسن السيرة متصدقا صالحا دينا جاءه أربعة من الصوفية ، وكان لايمنع صوفي ، فتقدم إليه واحد فمنعه الخازندارية ، فقال دعوه فتقدم وبيده قصة فأخذها منه فضربه بسكين فشق جوفه ، فمات من ساعته ، فأخذوهما وقرروهما فقالا : نحن من الاسماعيلية ، وكانوا قد شفعوا إليه في أمر لايليق ، فلم يقبل شفاعتهم فعملوا هذا ، فأحرقوا ، وذلك في جمادى الاولى وخلف بكتمر ولدا صغيرا .....

فصل

وفيها توفي عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل ، كان خفيف العارضين أسمر مليح اللون ، عادلا منصفا محسنا عاقلا جوادا ، صبر على حصار صلاح الدين للموصل ثلاث مرات حفظا على البلاد ، وفرق الاموال وداري حتى سلم له الملك ،

وكان قد بنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل ، ويصلي فيه أورادا كانت له ، ويلبس فرجية أهداها له الشيخ عمر المسـنائي الصـوفي فيصلي فيها ، وكان قد خرج مـن الموصـل في جهـاد ، لقتـال الملك العادل سيف الدين بن أيوب ، وكان على حران بعـد مـوت صـلاح الدين ، ثم عاد في سابع عشرين شعبان مـريضا فـاحتضر فجعـل يتشهد ويذكر الله تعالى ويقر بـالشهادتين ، وعذاب القبـر ، ومنكر ونكير والصراط والحساب والميزان ، وتوفي ودفن بمـدرسته التـي أنشاها بالموصل بمقابر دار السلطنة ، وكانت أيامـه ثـلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وأوصى بالملك إلى ولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه ، وكان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة ، فصرفهـا عنه أخوه عز الدين إلى ولده نور الدين أرسلان شـاه ، وقـام بـالامور مجاهد الدين قيماز أحسن قيام .....

فصل

وفيها توفي الملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بـن أيوب بن شاذي بن مروان ، من أولاد خلفـاء بني أمية ، وذكر ابـن القادسي ، أن شاذي مملوك بهروز، وهذه من هنات ابـن القـادسي ، وما كان شاذي مملوكا قط ولا جرى على أحـد مـن بني أيوب رق ، وإنما شاذي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت ، استنابه فيها وقـد ذكرناه .

ذكر طرف من اخباره

ولد صلاح الدين بتكريت في سنة اثنتـان وثـلاثين وخمسـمائة ، ونشأ في حجر أبيه أيوب ، وربي في الدولة النورية ، وولاه نور الدين دمشق ، وخرج مع عمه أسد الدين إلى مصر فملكها ، وقد ذكرنا ذلك أولا ، وكان شجاعا سمحا جوادا مجاهدا في سبيل الله ، يجود بالمال

قبل الوصول إليه ، ويحيل به ، ومتى عرف وصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وما خيب أحدا بالرد وإن لم يكن عنده شيء لطف به كأنه غريم يستمهله ، وكان مغرما بالانفاق في سبيل الله وحسب ما اطاقه

ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطا للفرنج من رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة الى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، مدة ثلاث سنين وكسر ، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب والاكاديش الجياد ، للحاضرين معه في الجهاد ، والقادمين عليه من البلاد ، غير ما أطلقه من الاموال في أثمان الخيل المصابة في القتال .

وقال العماد : ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، ولاجاءه قود إلا وهو مطلوب وما كان يلبس الا ما حل لبسه وتطيب به نفسه ، كالكتان والقطن والصوف ، ويخرج عالي أثمان كسوته في أثمان المعروف ، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل ، وما سمعت منه قط كلمة فحش ولا كلمة تسقط ولا لفظة تسخط ، ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ، ويتكلم عنده في العلم الشرعي المفيد ، ويلين المؤمنين ويغلظ على الكافرين ، ومن جالسه لايعلم أنه جليس سلطان ، بل يعتقد أنه أخ من الأخوان ، وكان حليما ، مقيلا العثرات ، متجاوزا عن الهفوات ، تقيا وليا صفيا ، مارد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا أخجل ولا خيب آملا .

قال : وشكا إليه أيوب بن كنعان دينا ، مبلغه اثنا عشر ألف دينار ، فقضاه عنه ، قال : وكتب إليه سيف الدولة بن منقذ ، نائبه بمصر ، أن بعض الضمان انكسر عليه مال كثير ، وربما وصل إلى الباب ويتمحل ، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب ، وتمحل وبلغ السلطان ، فأرسل إليه يقول احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ .

قال العماد : ورأى معي يوما دواة محلاة ، فأنكر علي ، وقال :

ما هذا ؟ فلم اكتب بعد بها عنده أبدا ، قال : وكان محافظا على الصلوات في أوقاتها ، مواظبا على مفروضاتها ومسنوناتها ، ومارأيته يصلي إلا في جماعة ، ولم يؤخر صلاة من ساعة إلى ساعة ، ولايلتفت إلى قول منجم ، وإذا عزم على أمر توكل على الله الذي يقدم ويؤخر .

وذكره القاضي ابن شداد في السيرة وأثنى عليه ، وحكى عنه العجائب ، فمن ذلك انه قال : كان حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، وإذا جاء وقت الصلاة ، وهو راكب نزل فصلى وماتركها إلا في مرضه ، الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط فيها ذهنه ، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري ، وعلمها أولاده الصغار ، ليرسخ في أذهانهم من الصغر وكان يأخذها عليهم .

وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط ، وأما صدقة النوافل فاستنفدت أمواله كلها ، وكان يحب سماع القرآن ، واجتاز يوما على صبي صغير بين يدي أبيه ، وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة .

قال : وكان شديد الحياء ، خاشع الطرف ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، شديد الرغبة في سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية ، وكان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه ، وأسمع اولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماعه إجلالا له ، وإن لم يكن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك ، سعى اليه وسمع منه ، وروى عنه ، وتردد اليه ، ومضى إلى الاسكندرية ، وسمع الحديث الكثير من الحافظ السلفي ، ومن ابن عوف الموطأ ، وكان مبغضا لكتب الفلاسفة ، وأرباب المنطق ، ومن يعاند الشريعة ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله ، وكان محبا للعدل له اثنان وخمسون مجلسا للعلم تحضره القضاة والفقهاء ، ويصل إليه الصغير والكبير والشيخ والعجوز ، وما استغاث إليه أحد إلا وأجابه وكشف ظلامته ، واستغاث اليه زهير الدمشقي على تقي

الدين عمر وقال : ما يحضر معي مجلس الشرع ، فأمر تقي الدين بالحضور معه ، وكان أعز الناس عليه تقي الدين .

قال : ولقد ادعى رجل على السلطان أن سنقر الخلاطي مملوكه مات على ملكه ، قال : فأخبرته فأحضر الرجل ، وتزحزح عن طراحته وساواه في الجلوس ، فادعى الرجل ، فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الشيوخ من الأمراء الخيار ، وهم وقوف على رأسه ، فقال : لمن تعرفون سنقر الخلاطي ؟ قالوا : نشهد أنه مملوكك ، وأنه مات على ملكك ، ولم يكن للرجل بينة فأسقط في يد الرجل ، قال : قلت يامولانا رجل غريب ، وقد جاء من خلاط في طمع ونفدت نفقته ، وما يحسن أن يرجع من المولى خائبا ، فقال : ياقاضي هذا إنما يكون على غير الوجه ، ووهب له خلعة ونفقة وبغلة وأحسن إليه .

قال : وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان ، واجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال ، وفرق ثمنها فيهم ، قال : وسألت ابن بير زان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس ، فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف ، قتل منهم أكثر من مائة ألف ، وغرق معظمهم ، وكان يوم المصاف يدور على الاطلاب ويقول : هل أنا إلا واحد منكم ، وكان في الشتاء يعطي العساكر دستورا وهو نازل على برج عكا ، ويقيم طول الشتاء في حلقته في نفر يسير ، قال : وكنا على الرملة فجاءه كتاب بوفاة تقي الدين ، فقال : وقد خنقته العبرة : مات تقي الدين ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو ، ولقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح فما قال له كلمة وقد استدعاه فأيقن بالهلاك ، وارتقب الناس أن يضرب رقبته فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق وسقاه ماء وثلجا ، قال : وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبيا فباتت أمه تبكي طول الليل ، فقال لها الفرنج : إن السلطان رحيم القلب فاذهبي إليه ، فجاءته وهو على تل الخروبة

راكب ، فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فأخبروه بقصتها فرق لها ودمعت عيناه ، وتقدم إلى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفا حتى أحضره ، فلما رأته بكت وأخذته وأرضعته ساعة ، وضمته اليها ، وأشارت الى ناحية الفرنج ، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

وقال : وكان حسن العشرة ، طيب الخلق ، حافظا لانساب العرب ، عارفا بخيولهم ، طاهر اللسان ، والقلم ، فما شتم أحد قط ، ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم ، وما حضر بين يديه يتيم إلا ويترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه ، فإن كان له كافل وإلا كفله ، وسرق من خزانته يوما ألفا دينار ، وجعل في الكيسين فلوس فما قال شيئا ، وذكر القاضي من مناقبه الغرر وسطر من فضائله مازين به التواريخ والسير .

قلت : حكى لي المبارز سنقر الحلبي قال : كان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ، ومعه قصص فقدم له قصة ، وكان السلطان قد مد يده اليمنى على الارض ليستريح ، فداسها سنقر الخلاطي ، ولم يعلم ، وقال له : علم عليها فلم يجبه ، فكرر عليه القول ، فقال له : ياطوا شي أعلم بيدي أو برجلي ؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم ، ثم قال السلطان : هات القصة فعلم عليها ، ومازال السلطان على هذه الاخلاق حتى توفاه الله تعالى إلى مقر رحمته ورضوانه .

ولما كان السادس عشر من صفر وجد كسلا ، وحم حمى صفراوية ، وكان قد ركب فالتقى الحاج ، فركب وبكى ، وتأسف حيث لم يكن معهم ، وأصبح يوم السبت والحمى بحالها ، وتزايد به المرض حتى ضعف ، وأجمع الاطباء على أنه لايفصد فخالفهم الرحبي وفصده ، فكان سبب وفاته ، وحجب عن الرجال ، وتولاه النساء واحضر الأفضل والامراء ، سعد الدين مسعود ، أخو بدر

الدين مودود ، وشحنة دمشــق ، وناصر الدين صــاحب صــهيون ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ابــن الداية ، وميمــون القصري وأيبك الفارسي ، وأيبك فطيس ، وحســام الدين بشــارة ، وســامة الجبلي ، وغيرهم فاستحلفهم لنفسه ، وكان عنده أبو جعفــر إمــام الكلاسة يقرأ القرآن ، فلما انتهى الى قوله تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(٣٦) وقــد كان غاب ذهنه فقــال صحيح ، وكانت وفاته يوم الاربعاء بعــد صــلاة الفجــر الســابع والعشرين من صفر ، وغسله الخطيب الدولعي ، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي ، وبعــث إليه القــاضي الفــاضل الاكفــان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه .

قال ابن القادسي : ودفن معه سيفه ، قال الفاضل هذا يتوكأ عليه في الجنة ، وهو وهم من ابن القــادسي ، لأن ســيفه بعــث بــه ولده الافضل إلى بغداد ،وسنذكره .

وعمل الأفضل العزاء ثلاثة أيام وحزن الناس عليه حزنا لم يحزن قبله مثله على غيره .

قال العماد : دخلنا عليه ليلة الأحد العيادة ، ومرضه في زيادة ، وفي كل تضعف القلوب ، وتتضاعف الكروب ، ثم انتقــل مــن دار الفناء الى دار البقاء سحرة يوم الاربعاء ، ومات لموتــه رجــاء الرجــال ، وأظلم لغروب شمسه فضاء الافضــال ، ودفــن بقلعــة دمشــــق في مسكنه ، ودفن جماع الكرم والفضل في مدفنه ، ورثــاه الشــعراء ، وبكاه الفصحاء ، فمن ذلك قصيدة ذكرها العماد في البرق الشامي ، عددها مائتان وعشرون بيتا ذكرت هــهنا غررها ، وســطرت دررهــا فأولها يقول :

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء واقلعت حسناته

ومنها

بالله أين الناصر الملك الذي
له خالصة صفت نياته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوة وثباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاته
مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي مازال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته
اين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
لاتحسبوه مات شخصا واحدا
بل عم كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبدا لماذا أسلمته حماته
قد اظلمت مذ غاب عنا دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تنشر بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه واقفرت ساحاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل
محفوفة بوفوده حافاته
من اليتامى والارامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
من ذكره في ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إنخلت
من سلها وركوبها عزماته

ياوحشة الاسلام حين تمكنت
من كل قلب مؤمن روعاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
ياراعيا الدين حين تمكنت
منه الذئاب واسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا
دينا تولى مذ رحلت ولاته
فارقت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكا باقيا راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته

وكتب الفاضل الى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)(٣٧) الاية : كتبت الى الملك الظاهر أحسن الله عزاءه في مصابه ، وجعل الخلف فيه لماليك المرحوم وأصحابه ، والدموع قد حفرت النواظر ، والقلوب قد بلغت الحناجر ، فإني قد ودعت أباك مخدومي وداعا لاانلتقي بعده ، وأسلمت الى الله طالبا فضله ورفده ، ولم تدفع عنه جنوده القضاء ، ولاردت عنه الاسلحة والخزائن البلاء ، والعين تدمع والقلب يخشع ، ولانقول ما يسخط الرب وإنا عليك يايوسف لمحزونون :
وفي آخر الكتاب : فان اتفقتم ما عدمتم إلا شخصه ، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلية هولها عظيم .

قلت : قد فات الفاضل شيئان أحدهما النعيم ، والثاني عند قوله هولها عظيم ، كان ينبغي أن يقول : (ذلك تقدير العزيز العليم)(٣٨) .

ذكر ما خلفه ، واختلفوا فيه

ذكر القاضي ابن شداد في سيرة السلطان وقال توفي ، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحدا صوريا ذهبا ولم يخلف دارا ولا عقارا ولاضيعة ولابستانا ولاسقفا ولاغيره ،

وقال العماد الكاتب : لم يخلف في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهما ، ودينارا واحدا ذهبا ـ ذكر بمعنى ما ذكر ابن شداد .

ذكر فتوحاته :

اول ما فتح الديار المصرية ، والحجاز ومكة والمدينة ، واليمن من زبيد الى حضرموت متصلا بالهند ، وفي الشام : دمشق وبعلبك وحمص وبانياس وحماة وحلب وأعمالها ، ومن حصون الساحل بلاد القدس وغزة والداروم وتل الصافية وعسقلان ويافا وقيسارية وحسي وعكا وطبرية والشقيف وصفد وكوكب والكرك والشوبك ونابلس وصيدا وبيروت وجبيل وجبلة واللاذقية والشغر وبكاس وصهيون وبلاطنس وحصن برنية وقد ذكرنا تلك الحصون .

ومن الشرق حران والرها والرقة ورأس العين وسنجار ونصيبين وجملين والموزر ، وسروج وديار بكر وميافارقين وآمد وحصونها وشهرزور والبوازيج ، وخطب له على المنابر من باب همذان الى الفرات ، ومن الفرات إلى حضرموت ، ومن المغرب إلى إفريقية .

ويقال انه فتح ستين حصنا ، وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس ، والساحل وبلاد الفرنج ، وديار بكر ، ولو عاش لفتح الدنيا شرقا وغربا وبعدا وقربا ، وإن كان مبدأ فتوحه مصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله ، وبينهما

مقاربة في السيرة والعدل والايام واجتناب الاثـام وكلاهمـا لم يبلغ ستين سنة ولا خلا من فضيلة ومنقبـة حسـنة ، وقـد ذكرنا ان نور الدين ولد في سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وتوفي سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولد صلاح الدين سنة اثنتان وثلاثين وخمسمائة وتوفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقد ذكرنا ذلك .

ذكر اولاده

كانوا ستة عشر ذكرا وابنة واحدة ، وكان أكبر أولاده الأفضل علي ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة يوم عيد الفـطر ، وأخـوه لأبيه وأمه خضر الملقب بالظافر ، ولد بمصر سـنة ثـلاث وسـبعين وخمسمائة واخوهما لأبيهما وأمهما موسى ويلقب قـطب الدين ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسـمائة ، وعثمـان الملك العـزيز ولد بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة ، واخـوه لابيه وأمـه يعقـوب الأعز ، ولد بمصر سنة اثنتان وسبعون وخمسـمائة ، وغازي الملك الظاهر ولد بمصر سنة ثمـان وسـتين وخمسـمائة ، وأخـوه لأبيه وامه . الزاهر داود ولد بمصر سنة ثـلاث وسـبعين وخمسـمائة ، والمعز اسحاق ولد سنة سبعين وخمسمائة ، والمؤيد واسمه مسعود ولد بدمشق سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، والأشر ف محمـد ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسـمائة ، وأخـوه لأبيه وأمـه ملك شاه ، ويلقب بالغالب ولد بالشام سنة ثمان وسبعين وخمسـمائة ، وأخوهما لأبيهما وامهما ابو بكر ، ويلقب بالنصرة ولد بحران بعـد وفاة أبيه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

واما البنت فاسمها مؤنسة خاتون ، تزوجها الكامل محمـد بـن العادل ماتت عنده ، وكان لصلاح الدين ولد اسمه اسماعيل مـات في حياة أبيه .

ذكر قضاته ووزرائه وكتابه

القاضي كمال الدين بن الشهر زوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ومحيي الدين بن زكي الدين ، ووزيره صفي الدين بن القابض ، وكتابه : الفاضل ، والعماد ، وكان الفاضل حاكما على الجميع ، وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الامور إلا بمضائه .

ذكر ما تجدد بعد وفاته

كان أخوه العادل سيف الدين لما توفي بالكرك ، فقدم دمشق معزيا للأفضل ، فأقام ثم رحل إلى الجزيرة إلى البلاد التي أعطاه إياها السلطان ، وهي : حران والرها وسميساط ، والرقة وقلعة جعبر ، وميافارقين ، وديار بكر ، وكان له بالشام : الكرك والشوبك ، وبعث الأفضل ضياء الدين بن الشهر زوري رسولا الى الخليفة ، ومعه زردية السلطان وسيفه وحصانه وكزاغنده ، ودبوسه وتحفا كثيرة ، وعاب الناس عليه بحيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد ، وكتب كتابا إلى الخليفة بيد ابن الشهر زوري ، فمنه : أصدر العبد خدمته هذه ، وصدره معمور بالولاء ، وقلبه مغمور بالصفاء ، وذكر كلاما طويلا ، فقيل لابن الشهر زوري(لله الامر من قبل ومن بعد)(٣٩) ، وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه ، واستثاروا عز الدين صاحب الموصل وأصحابه ، فأشار عليه المجد ابن الاثير بالخروج ، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام ليظهر حقائق الامور ، ويراسل جيرانه : ابن زين الدين صاحب إربل ، وسنجر شاه صاحب الموصل ، وعماد الدين صاحب سنجار ، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران ، فاستنجد العادل بأولاد أخيه ، فجاءته عساكر الشام ، ومصر ومرض عز الدين على

نصيبين بالاسهال وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع الى الموصل جريدة فمات بها ، ثم إن الملك العزيز قدم الى الشام وتقدم في منزلته ، وقدمت معه العساكر على الأفضل ، وبعث إليه العادل ارحل إلى مرج صفر ، فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد لتصل العساكر ، فوصل الظاهر من حلب ، والمنصور من حماة ، وشيركوه من حمص ، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل ، فقال العادل : قد تقرر أنه يرجع إلى مصر ، ويقع الاتفاق ، وتعود الامور إلى ما كانت عليه ، وا شتد مرض العزيز ، ولولا مرضه ما صالح ، فأرسل العزير كبراء دولته فخر الدين شركس وغيره ، فحلف الملوك وطلب مصاهرة العادل ، فزوجه ابنته خاتون ، ورجع كل واحد إلى بلده ، وذلك في شعبان .

وقال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته فسمي : الملك النوام ، وفوض الأمر الى وزيره ابن الجزري ، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي فأفسدا عليه الأحوال ، وكانا سببا لزوال دولته ، واستبدلا بكبراء الأمراء والأجناد أراذل الناس ، ففسدت أمور العباد .

حواشي المحاسن اليوسفية

١ ـ ذكرنا من قبل انها بلدة في اذربيجان ، وتقارن هذه الروايات مع ما جاء حول آني ودولة منوجهر هناك وقضاء الكرج عليها .
٢ ـ بعد ما تعرض صلاح الدين للاغتيال احترز فصار يبيت ويقيم في برج خشبي محصن .
٣ ـ اليزك : الاستطلاع
٤ ـ القنابل : الكتائب ، واراد هنا المنجنيقات والات الرمي الاخرى .
٥ ـ انظر كنز العمال ج ٦ ص ٤ ـ ١٤ .
٦ ـ أبرز قادة البيت الايوبي ايام صلاح الدين ومؤسس الدولة الايوبية بحماة .
٧ ـ لم اجده بهذا اللفظ
٨ ـ انظره في موسوعة اطراف الحديث ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٣ ص ٢١٦ .
٩ ـ سورة العنكبوت ـ الآية : ٦٩
١٠ ـ اراد قوله تعالى في سورة هود ـ الآية: ٤٢ : « وهي تجري بهم في موج كالجبال »
١١ ـ سورة النحل ـ الآية: ١١٠
١٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١٣٤ .
١٣ ـ سورة القلم ـ الآية : ٤
١٤ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٩٠
١٥ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢١٦ .
١٦ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دولة الكنوز الاسلامية لعطية القوصي ـ ط . القاهرة ١٩٧٦ ص ٦٨ ـ ٨٠
١٧ ـ قرنا حماه هما جبل زين العابدين وجبل الهاشمية الى جواره حاليا .
١٨ ـ خارج حلب
١٩ ـ عرف من قبل باسم الفنيدق .
٢٠ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
٢١ ـ قلعة من نواحي حلب بين نهر الجوز والبيرة . معجم البلدان
٢٢ ـ قرب زيزون بجوار شلالات تل شهاب في محافظة درعا ـ سورية .
٢٣ ـ هي عنجر حاليا في بقاع لبنان على مقربة من الحدود مع سورية .
٢٤ ـ انظر سورة الاحزاب ـ الآية : ٢٦ .
٢٥ ـ سورة الروم ـ الآية ٤٧
٢٦ ـ من انواع الخناجر المعكوفة والطويلة .
٢٧ ـ لم اجده بهذا اللفظ
٢٨ ـ سورة غافر . لآية : ٨٥ .
٢٩ ـ سورة الاحزاب ـ الآية ٢٥ .
٣٠ ـ الأوج : الحدود او الثغور ، والهذكرهم الهنفار .
٣١ ـ اي هيثوم ملك ارمينية الصغرى .

٣٢ ـ اي فارسا .
٣٢ ـ سورة الحاقة · الآية ٧
٣٤ ـ سورة الفرقان . لآية ٢٦ .
٣٥ ـ سورة الرعد ـ الاية ٣٨ .
٣٦ ـ سورة يوسف ـ الآية ٧٧
٣٧ ـ سورة الاحزاب ـ الآية : ٢٥
٣٨ ـ القيمون : حصن قرب الرملة .
٣٩ ـ سورة القصص ـ الآية: ٦٠
٤٠ ـ سورة الانفال ـ الآية :٦٦
٤٠ ـ سورة الطلاق ـ الآية ٣ .
٤١ ـ سورة هود ـ الآية : ١١٥ .
٤٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٤ .
٤٣ ـ سورة البقرة ـ الاية : ١٥٦ .
٤٤ ـ سورة الاحزاب ـ الآية : ٣٨ .
٤٥ ـ سورة الرحمن ـ الآية : ٦٠
٤٦ ـ اي قائد القلعة
٤٧ ـ بالفارسية البيكار · الحرب
٤٨ ـ ماتزان تحملان الاسم نفسه الى الجنوب من دمشق .
٤٩ ـ سورة الحشر ـ الآية : ٢٢
٥٠ ـ سورة الرعد ـ الآية . ٣٠

حواشي مرآة الزمان

١ ـ ربما تل معشر هو تل صلبي الحالي وهو يقع على ارتفاع يمكن منه مراقبة شيزر
٢ ـ جوسلين صاحب حصن تل باشر . ابن القلانسي : ٢٧٩ .
٣ ـ كذا في الاصل ولا وجه لها ، وفي تاريخ دمشق : ٢٩٤ ، « كان النزول على الاقحوانة » .
٤ ـ الخبر عند ابن الاثير في الكامل ، على انه حدث في صقلية
٥ ـ في غوطة دمشق قرب جرمانا حيث هناك تل اثري كبير .
٦ ـ تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٥٠٣ ـ ٥٠٦ حيث المزيد من التفاصيل .
٧ ـ ديوان اسامة بن منقذ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ مع فوارق ، واسم المسجد مسجد سبرين
٨ ـ سورة الرعد ـ الآية : ١١

٩ ـ عرقلة الكلبي ، حسان بن نمير [ت ٥٦٧ ها] له ديوان شعر منشور .
١٠ ـ مسعود بن محمد بن مسعود توفي سنة ٥٧٨
١١ ـ هي المدرسة العادلية ومقر مجمع اللغة العربية من قبل .

١٢ ـ اي كتاب الباهر لابن الاثير الجزري .
١٣ ـ هو عمر بن علي بن محمد بن علي بن حموية شيخ الشيوخ المتوفي سنة ٥٧٧ .
١٤ ـ محمد بن عبد الله بن القاسم المتوفي سنة ٥٧٢ .
١٥ ـ الكوافر جمع الكافر ، وهو ثوب يلبس فوق الدروع
١٦ ـ سورة الانبياء ـ الآية . ١٠١
١٧ ـ عبد الله بن علي توفي سنة ٦٣٠ .
١٨ ـ محمد بن نصر الخالدي توفي سنة ٥٤٨ .
١٩ ـ محمد بن عبد الملك قتل سنة ٥٨٣ .
٢٠ ـ توفي سنة ٥٧٣ .
٢١ ـ مجد الدين مات سنة ٦٦٥ .
٢٢ ـ محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري .
٢٣ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ٨٧ .

٢٤ ـ هي المدرسة الشامية البرانية ، قيد الترميم حاليا في دمشق .
٢٥ ـ حطان بن كامل بن منقذ الكياني (٥٧٨ هـ)
٢٦ ـ سورة الزمر ـ الآية : ٧١
٢٧ ـ سورة الزخرف ـ الآية : ٥١ .
٢٨ ـ سورة الانبياء الآية : ١٠٥
٢٩ ـ سورة الصافات ـ الآية:٣٧ .
٣٠ ـ سورة الحاقة ـ الآية :٧
٣١ ـ سورة هود ـ الآية : ١٠٢
٣٢ ـ سورة الذور ـ الآية : ٥٥

٣٣ ـ سورة الصف الآية : ١٣
٣٤ – مزج المصنف في نصه اكثر من رسالة من رسائل العماد وجه كل منها الى جهة
٣٥ ـ هو عبد الرحمن بن محمد ابن اخي اسامة بن منقذ ، انظر ترجمته المستخرجة من المقفى المقريزي .
٣٦ ـ مات سنة ٥٨١
٣٦ ـ الشهرزوري .
٣٧ ـ سورة الاحزاب ـ الآية ٢١
٣٨ ـ سورة يس ـ الآية : ٣٨ .
٣٦ ـ سورة الحشر ـ الآية : ٢٣ .
٣٩ ـ سورة الروم ـ الآية : ٤

المحتوى